

العلامة

تحليل المفهوم وتاريخه



أمبرتو إيكو

العلامة

تحليل المفهوم وتاريخه

لـ أمبرتو إيكو

ترجمة: سعيد بنكراد
راجع النص: سعيد الفانمي



المركز الثقافي العربي
Arab Cultural Center



كلمة
KALIMA

الطبعة الأولى ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

ردمك 7-193-68-9953-978

جميع الحقوق محفوظة الناشر  والمركز الثقافي العربي
مكاتب:

ص.ب ٢٣٨٠ أبوظبي، آ.ع.م هاتف ٦٣١٤٤٨٥ ٢ ٩٧١ + فاكس ٦٣١٤٤٦٦ ٢ ٩٧١ +

المركز الثقافي العربي

بيروت - هاتف ٣٥٢٨٢٦ ١ ٩٦١ + / الدار البيضاء - هاتف ٢٣٠٣٣٣٩ ٢ ٢١٢ +

Email: cas@uccaedition.com

تضمن هذا الكتاب ترجمة من النص الفرنسي لكتاب

La Signe

Umberto Eco

Copyright © by Bompiani, 1973

Arabic Copyright © 2007 by Kalima and Arab Cultural Center

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه
التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروعة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ
المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

الفهرس

7	تقديم المترجم
27	مدخل
47	الفصل الأول: السيرة السيمائية
63	الفصل الثاني: تصنيف العلامات
115	الفصل الثالث: المقاربة البنيوية
185	الفصل الرابع: أنماط الإنتاج السيميائي
203	الفصل الخامس: القضايا الفلسفية للعلامة
227	المراجع

تقديم المترجم

يعد هذا الكتاب ثالث عمل في مسيرة أمبيرتو إيكو، الباحث السيميائي والروائي الإيطالي الشهير، فقد نشر سنة 1962 كتابه الأول «Opera Operta» الذي ترجم إلى الفرنسية سنة 1965 تحت عنوان (L'oeuvre ouverte العمل المفتوح)، ونشر بعد ذلك، أي سنة 1968 كتابه الثاني «la struttura assente» الذي ترجم إلى الفرنسية سنة 1972 تحت عنوان (La structure absente البنية الغائبة)، وهو كتاب اعتبر في حينه مساهمة نوعية في تحديد موضوع السيميائيات وإبراز قدرتها على وصف كل الوقائع المتضمنة إلى التجربة الإنسانية كيفما كانت مادة تجليها. وسينشر بعد ذلك كتابه الثالث الذي يحمل عنوان segno سنة 1973، وهو الكتاب الذي تقدم ترجمته إلى العربية اعتماداً على الترجمة الفرنسية. ولم يترجم إلى الفرنسية إلا سنة 1988 وصدر عن منشورات Labor بروكسيل، وأنجز الترجمة أحد الأسماء اللمعة في ميدان الدراسات السيميائية في بلجيكا وهو جان ماري كلينكتيرغ. وللتذكير فإن كلينكتيرغ هذا هو أحد أبرز الأسماء المكونة لـ «جماعة موه البلجيكية»، وتضم هذه الجماعة فريقاً من الباحثين اشتهروا بدراساتهم في ميدان البلاغة، وهو بالإضافة إلى ذلك معروف

كأحد أبرز الباحثين الفرنكوفونيين المتخصصين في ميدان الدراسات
السيمائية الخاصة بالحقول البصرية.

ولهذا الكتاب طابع خاص، فهو لا يقدم لنا تاريخاً خاصاً
بالنظريات السيميائية التي عرفتھا الأزمنة المعاصرة، ولا يحدثنا عن
المردودية التحليلية للمنهج السيميائي - إن كان هناك حقاً منهج
سيميائي -، ولا يحدثنا عن الأسماء الكبيرة التي صنعت مجد
السيمائيات الحديثة وشهرتها، وإنما يكفي بتأمل تجربة إنسانية شاملة،
يتأمل محاولات الإنسان المضنية من أجل التخلص من برائن طبيعة
هو جاء لا ترحم لكي يحتمي بعالم ثقافي (رمزي) يمنحه الدفء
والطمأنينة ويوفر له التفسير الممكنة للظواهر الطبيعية والاجتماعية على
حد سواء. وبعبارة أخرى، إنه يبحث في التراث السلوكي والذهني الذي
خلقه الإنسان عن الأسس الفلسفية التي تحدد كنه العلامة باعتبارها اللبنة
الأساس في سيرونة السيوز (السيرونة المنتجة للدلالات وتداولها).

ومن هذه الزاوية يمكن اعتبار هذا الكتاب تاريخاً لرحلة الإنسان
مع الرموز وأشكالها المتعددة، أو هو، نتيجة لهذه الرحلة، تاريخ
للرؤى الدينية والفلسفية التي رأت في الطبيعة رموزاً تنوب عن قوى
أخرى غير مرئية، أو «هي الصوت الذي يحدثنا الله عبره عن قدرته»
كما هو شائع في كل الديانات السماوية المعروفة. ولهذا فإن التاريخ لا
يحضر في هذا الكتاب باعتباره تسيباً لمحطات مرئية ومثبتة في
التاريخ العام، بل يمثل أمامنا باعتباره كماً زمنياً نقيس من خلاله درجة
نمو الأشكال الرمزية وتطورها وتعقيداتها المتصاعدة.

يفتح الكتاب بمدخل يروي فيه أميرنو إيكو قصة مواطن إيطالي
(السيد سيغما) كان في زيارة إلى باريس، فبدأ يحس فجأة بألم في
معدته. فقرر البحث عن طبيب يشخص له المرض ويمدّه بدواء يسكن

درست و درست‌تر از آنکه بگوئیم: «درست» یا «غلط» و «مستند» یا «غیر مستند»
و شفرات گفته شده، «درست» و «غلط» و «مستند» و «غیر مستند»
و شفرات گفته شده، «درست» و «غلط» و «مستند» و «غیر مستند»

الامه. وفي رحلته هاته، كما يصفها إيكو بأسلوبه الممتع، نكتشف أن
الإنسان، وليس السيد سيغما وحده، لا يمكن أن يخطو خطوة واحدة
في الحياة دون الاستناد إلى سنن وشفرات تمكنه من فهم وتصنيف ما
يحيط به، وتساعد على تحديد موقعه من نفسه ومن الآخرين. فالتسمية
والتعرف والتمييز بين الأشياء والكائنات عمليات لا يمكن أن تتم إلا
استنادا إلى نسق، صريح أو ضمني، هو الذي يمنح هذه الأحكام
التصنيفية معناها، ف«العلامة توجد كلما استعمل الإنسان شيئا ما محل
شيء آخر» كما يقول إيكو في هذا الكتاب نفسه. وتلك هي الأسس
التي انبنى عليها المجتمع ذاته، فهذا المجتمع «رهين في وجوده بوجود
تجارة للعلامات»، فالمجتمع لا يمكن أن تقوم له قائمة إذا لم يخلق
سننه وشفراته الخاصة التي يعتمدها الأفراد المتمون إليه للتواصل فيما
بينهم، وهي التي تسمح لهم بتبادل الدلالات واستهلاكها.

استنادا إلى هذا، فإن العلامة هي الشكل الرمزي الأمثل الذي
يقوم بدور الوسيط بين الإنسان وعالمه الخارجي، وهي الأداة التي
يستعملها في تنظيم تجربته بعيدا عن الإكراهات التي يفرضها الاحتكاك
المباشر مع معطيات الطبيعة الخام. بل يمكن القول، استنادا إلى مثال
إيكو نفسه، إن العلامة هي الأداة التي من خلالها تأنس الإنسان
وانفلت من ربة الطبيعة ليلج عالم الثقافة الرحب الذي سيهبه طاقات
تعبيرية هائلة.

فالإنسان كما يقول إيكو حيوان رمزي (وهو تصور قال به
إرنست كاسيرر منذ العشرينيات من القرن الماضي) والرمزية ليست
ميزة لغوية فحسب، بل تشمل ثقافة الإنسان كلها. فالمواقع
والمؤسسات والعلاقات الاجتماعية، والملابس هي أشكال رمزية
أودعها الإنسان تجربته لتصبح قابلة للإبلاغ. إنه كذلك لأن علاقته

بالعالم الخارجي ليست علاقة مباشرة. فالإنسان لا يأتي إلى الكون «مغمض العينين» و«خالي الذهن»، إنه يحتك بالطبيعة مسلحاً بالمفاهيم، ومن خلالها فقط يستطيع الإمساك بالكائنات والأشياء والحالات، ليقوم بتصنيفها والحكم عليها. والمفهمة ذاتها هي أول وأرقى أشكال الترميز، أو هي حالة رمزية نستعير بها عن الوجه المادي للوقائع. ولهذا السبب، فإن الثقافة ذاتها ارتبطت - حسب إيكو - بالفعل الإنساني الهادف إلى اشتقاق ما يؤثر في الطبيعة من خلال الطبيعة ذاتها: اكتشاف الأداة. والأداة هي انفصال الإنسان عن الموضوع، كما أن الرمز هو انفصال عن العالم وتمثل له خارج الإكراهات اللحظية كما يقول جان موليно.

وعلى هذا الأساس، فإن التوسط السيميائي هو الحالة الرمزية المثلى التي مكنت الإنسان من اكتشاف نفسه ووعبها خارج حدود التطابق الوجودي بينه وبين محيطه، وهو ما مكنته من الانفلات من الطبيعة بإيقاعها المكرور للولوج إلى الملكوت الحي الذي تقدمه الثقافة احتفاء به وتميزاً له عن الكائنات الأخرى.

ولقد قادت مفامرات الإنسان الأولى مع الرمز ووظائفه إلى تقديم تصورات موهلة في التطرف والمثالية عن تأويل حالة الترميز ذاته، فقد أصبحت الطبيعة بأشياءها وكائناتها عند اللاهوتيين وبمض الفلاسفة علامات يحدثنا من خلالها الله عن ملكوت لا نرى منه سوى هذه الصور الرمزية المجسدة في الطبيعة كلها (لقد كانت نظرية أفلاطون أول محاولة في هذا الاتجاه). فعمند «طبيعة» بودلير، تلك الغاية من الرموز (...) إلى الفكر الهایدغري، كان الهدف واحداً: ليس الإنسان هو من يصوغ اللغة من أجل السيطرة على الأشياء، بل الأشياء (الطبيعة أو الكائن) هي التي تبدى من خلال اللغة: إن اللغة

هي صوت الكينونة، والحقيقة ليست شيئا آخر سوى الكشف عن الكينونة من خلال اللغة. وإذا كانت وجهة النظر هذه صحيحة، فلا مكان للسميات أو نظرية للعلامات.

إلا أن الأمور ليست بهذه البساطة فنظرة من هذا النوع تؤدي إلى نفي كلي للزمنية الإنسانية ذاتها مادام كل شيء معطى بشكل سابق على الممارسة الإنسانية. ذلك أن السنن الثقافية (الأشكال الرمزية) لا تنمو خارج ملكوت الممارسة الإنسانية، فالعلامات هي إفراز للفعل المفرد والجماعي، وليست كما سلوكيا مودعا في ذاكرة الإنسان خارج تفاعله الحي مع محيطه الطبيعي والإنساني.

ودليلنا في ذلك ما وقع للمسيد سيغما. فهذا المواطن العادي الذي واجه مشكلا عضويا وطبيعيا كـ «ألم في البطن» وجد نفسه فجأة منغمسا داخل شبكة من أنساق العلامات: بعضها مرتبط بإمكانية القيام بأفعال عملية، ويعود البعض الآخر مباشرة إلى مواقف نسميها «إيديولوجية» بشكل مباشر. وفي جميع الحالات، فإن هذه الأنساق مجتمعة تعد رمزا أساسيا داخل التبادل الاجتماعي إلى الحد الذي يمكن أن نتساءل معه هل العلامات هي التي تسمح لهذا المواطن بالعيش داخل المجتمع، أم أن المجتمع الذي يعيش داخله هذا المواطن باعتباره كائنا إنسانيا ليس سوى نسق واسع ومركب من العلامات؟ وهل يعني سيغما بشكل عقلائي آلامه؟ هل كان من الممكن لسيغما التفكير في هذه الآلام وتصنيفها، لو لم يؤسسه المجتمع والثقافة ويجعل منه حيوانا قادرا على بلورة علامات وإبلاغها؟.

وعلى هذا الأساس، فإن «الضرورة الإيلاجية التي لا تستند إلى سنن والخيالية من كل دلالة ستكون مجرد مشير - استجابة. فالمشيرات ليست كافية لمنح العلامة أبسط التعريفات، فهي في أحسن الحالات

تحتصر العلامة في «شيء» يوضع محل شيء آخر». والحال أن المثير لا يعوض شيئا آخر ولا يحل محله، بل يثير هذا الشيء بشكل مباشر. وهو ما يتناهى مع وضع العلامة ووظيفتها ودورها في تحويل الفعل من حاله الخام إلى حالة ثقافية تلغي «ميتافيزيقا المرجع» نعير إيكو، وتستعوض عنه بنسخة ثقافية مشقة منه.

وهذا ما سيغير من نظرتنا إلى السيميائيات ويدفعنا إلى إعادة النظر في بعض تعريفاتها. إن السيميائيات ليست علما للعلامات كما شاع ذلك وانتشر، وكما تصور ذلك سوسير أيضا، إن العلامة المعروفة والمقصولة عن أي سياق لا يمكن أن تكون منطلقا صلبا لفهم المعاني التي ينتجها الإنسان عبر لغته وسلوكه وجسده وأشياءه. إن السيميائيات، على العكس من ذلك، هي ذلك العلم الذي يهتم بتمفصل الدلالات وأشكال تداولها، أو هي العلم الذي يرصد تشكل الأنساق الدلالية ونمط إنتاجها وطرق اشتغالها.

وهذا ما حاولت فصول الكتاب الخمسة أن تجيب عنه : فالكتاب يحاول في مرحلة أولى وصف السيرورة المنتجة للعلامات والمحددة لموها، لينقل بعد ذلك إلى تحديد المعايير التي تصف وفقها مجمل العلامات الموضوعية للتداول داخل مجتمع ما، ليقدم لنا في مرحلة ثالثة إسهامات البنيوية في تحديد نمط اشتغال الوقائع وطرق إنتاجها لدلالاتها، ليرصد في مرحلة رابعة نمط إنتاج العلامات وطرق تلفيقها، لينتهي بمصطلح مجمل القضايا الفلسفية التي أثارها السيميائيات منذ القدم، والفصل عبارة عن سلسلة من التأملات الفلسفية في النشاط السيميائي ذاته باعتباره حالة وعي معرفي رافق الإنسان منذ أن استشعر ضرورة التحكم في التجربة من خلال الكشف عن وحدتها في التناظر الحسي.

سلسلة من العلامات المندرجة ضمن سنن هي عماد التواصل الاجتماعي وهي أساس بناء المجتمع ذاته.

وليس غريبا أن يشتد الخلاف بين كل الذين شُعلوا بحياة العلامة واشتغالها في شأن العناصر المكونة لهذه العلامة: هل تتكون العلامة من عنصرين (دال ومدلول)؟ أم تتكون من ثلاثة عناصر (دال ومدلول ومرجع)؟ وما هي طبيعة كل عنصر على حدة؟ وما موقع المعطيات الخارجية داخل العلامة؟ وهل تعريف العلامة يستدعي المرجع كمكون من مكوناتها، أم أن المرجع لا علاقة له بوضع العلامة كعلامة؟ تشكل هذه التساؤلات في واقع الأمر محاولة لتحديد كنه المعنى وتحديد علاقته بمصادره الأولى، أي أساسه المادي الذي منه تشتق كل الحالات الثقافية التي تغطي الوجود الإنساني.

ويتعلق في مرحلة ثانية بتصنيف العلامات، والتصنيف معناه تحديد ما يشكل فعلا علامة وما لا يمكن النظر إليه باعتباره كذلك. وبعبارة أخرى، إننا نروم من وراء التصنيف تحديد ما ينتمي إلى السيميائيات وما يوجد خارجها، أي ما يشكل حقا علامات أي ما يشكل حالات ثقافية، وما يحترجها من السلوك العرضي البيولوجي أو الطبيعي المعطى خارج الذات وخارج مكوناتها الثقافي.

وبطبيعة الحال ستكون الإحالة في البداية على التمييز الكبير بين العلامات الطبيعية والعلامات الاصطناعية، أي بين ما ينتمي إلى شدة عموي حال من أية قصيدة مثل البراقع على جسم الإنسان التي تمكن الطبيب من تشخيص بعض الاضطرابات الكبدية، أو صوت أقدام منيرة بقلوم شخص ما، أو الغيوم التي تعلن عن قرب هطول الأمطار الخ. فما تقوله الطبيعة من خلال ظواهرها المتعددة لا يقصد منه تدليح دلالة أو توصيل إرسالية ما. إن الطبيعة تعبر عن نفسها وعن حالاتها

قصدية صريحة، وكما يقول إيكو «التظاهر» بسلوك ما يصح علامة رغم ظهوره بمظهر الطبيعي العفوي.

ولتوضيح مجمل التصنيفات يقدم لنا إيكو مجموعة من المعايير التي تصنف بموجبها الوقائع باعتبارها علامات أو باعتبارها حوادث عرضية تنتهي بانتهاء الشروط التي أنتجتها. ولقد قام بذلك استنادا إلى سلسلة من التعريفات التي ترعرع بها الأدبيات السيميائية، منها ما ورد عند دعاة سمبولوجيا الإبلاغ (يوسنس، بيرتو، مومان بالأساس) الذين رفضوا أن يتعاملوا مع ما تنتجه الطبيعة من ظواهر باعتبارها علامات، فالفقصدية عندهم هي المعيار الأساس الذي تصنف على أساسه الظواهر باعتبارها علامات أو باعتبارها معطى بيولوجيا أو طبيعيا خالي من أية دلالة. ومنها تلك التي ربطت العلامة بظواهر الاستنتاج المنطقي بحيث يُنظر إلى العلامة باعتبارها «هي اللاحق الضمني للسابق الصريح» كما يقول لبياتان أو هي «الكائن الذي نستنتج منه حضور أو وجود السالف والأنني لكائن ما» كما يقول وورف، أو هي: «لقضية التي تتكون من رابط صحيح وكاشفة عن رابط سابق» كما تصور ذلك الرواقيون.

وعلى هذا الأساس، علينا، من أجل تصنيف العلامات، أن نأخذ في الحسبان ما يعود إلى مصدر العلامة ذاتها، وهو الذي قادنا إلى التمييز الذي أشرنا إليه سابقا بين معطيات الطبيعة اللاقصدية وبين ما ينتجه السلوك الإنساني بشكل قصدي.

ويجب أن نأخذ في الحسبان أيضا الخصوصية السيميائية. فالشيء الوظيفي يتحول إلى دال بحيل على مدلول يتجاوز الوظيفة ليحيل على دلالات لها علاقة بالوضع الاجتماعي أو الثقافي لمستعمل هذا الشيء، فالمعطف كما يقول بارت يقي من البرد، ولكن لا يمكن

أو مقصده عن حالة طبقية معينة، كما لا يمكن أن تفصله عن الوضع الاجتماعي لصاحبه.

ويجب أن تأخذ في الحسبان ما يعود إلى درجة وعي الباث لفصديته. فكما أن الباث قد لا يعي بشكل كلي قصدية سلوكه، فإن المتلقي هو الآخر قد لا يؤول سلوكا ما باعتباره دالا على قصدية ما، والعكس صحيح أيضا. فقد أقر على الطاولة بأصابي بشكل عموي ويتوهم المتلقي أسي ضجر وأريد منه أن ينصرف. وقد أقر بأصابي على الطاولة لأعبر عن ضجري من محدثي في حين لا يعي هو ذلك باعتباره دعوة إلى الانصراف، وينظر إليه باعتباره حركات عفوية بلا دلالة.

وعلى هذا الأساس، تعد درجة وعي الباث لفصديته ودرجة وعي المتلقي لهذه القصدية معيارا أساسيا في تصنيف الظواهر والتعامل معها باعتبارها علامات أو باعتبارها سلوكا عفويا عرضيا ولا معنى له. وقد يستند التصنيف إلى معيار مادية العلامة ذاتها، فالعلامة قد تستعمل جزءا من مرجعها باعتباره دالا، وفي هذا المجال يحيل إيكو على تصنيفات بيرس الخاصة بالماثول حيث تتحول نوعية ما إلى علامة استنادا إلى مادة تكونها، (قد ألوح لصديقي بعلبة سجائر لأعبر فقط عن رغبتي في سجارة واحدة).

يشير إيكو أيضا إلى التعدد المضموني للمدلول الواحد. وفي هذا الإطار يستنتج إيكو إمكانية وجود تصنيفات تستند إلى قدرة المدلول على التخلص من دلالاته الأولى لكي ينشر شبكته التدليلية في اتجاهات متعددة تعطي مجمل المناطق المشكلة للوجود الإنساني.

وإذا كان هناك من غاية من تحديد معايير التصنيف هذه، فإن الأمر يتجاوز حدود إعطاء صنافه عامة وشاملة للعلامات، بل يهدف إلى نيل الطابع المركب والمتحرك والمتغير لوضع العلامات. فقد

تشتغل هذه الواقعة باعتبارها علامة ضمن سياق بعينه، إلا أنها لن تكون كذلك في سياق آخر.

وليس غريباً أن ينتهي هذا الفصل أيضاً ببسط لمقترحات بيرس في ميدان تصنيف العلامات (سيتتهي الفصل الخامس أيضاً ببسط لتصور بيرس للقضايا الفلسفية الخاصة بالعلامة). فتصنيف بيرس يعد من أكثر التصنيفات دقة وشمولية، فهو لا يكتفي بتفليم صفة عامة وبهائية للعلامات، بل يشير في الآن نفسه إلى إمكان وجود سلسلة من التأليقات بين العلامات المختلفة، وكل تأليف يتح عنه علامة تغطي منطقة من المعيش النفسي أو الاجتماعي أو السلوك العملي، أي ما يسميه بيرس في كتاباته بالعادة التي تزول وفقها الوقائع. فنحن نؤول دائماً وفق غايات نفعية.

وبناء عليه، فإن هذا التصنيف هو في واقع الأمر إطلالة على أساط إنتاج العلامات وأسباط اشتغالها، وهي القضايا التي سيخصص لها إيكو الفصل الرابع من هذا الكتاب. ففي هذا الفصل سنبقش بشكل مستفيض الطريقة التي تنجسد من خلالها العلامات في وقائع وتصبح كيانات دالة.

وهي هذا السياق يستحصر إيكو النموذج اللساني باعتباره أرقى السادج وأكثرها شمولية واسجاما من جهة، وباعتباره النسق الذي تتم من خلاله عملية تأويل كل الأساق الأخرى، فاللسان هو أرقى الأساق التواصلية كما يقول موسير. ولقد كان استحصار هذا النموذج مرتبطاً بالتساؤل عن قدرة هذا النموذج (أو عجزه) عن إصاءة نمط اشتغال العلامات غير اللسانية. وبعبارة أخرى هل يمكن إسقاط قواسم النموذج اللساني على أساق من طبيعة أخرى. وفي هذا المجال يشير إيكو إلى محاولات دعاة سمبولوجيا الإبلاغ الذين قدموا في الستينات

من انقود العاصي سلسلة من الدراسات الخاصة بأنساق التواصل كأرقام عرف الفنادق أو أرقام الحافلات أو اللوحات التوجيهية الخاصة بالقاتون المظم للسير. ولكن هذه الدراسات لم يكن لها أية مردودية في مجال المعرفة العلمية الخاصة بهذه الأنساق. فالموضوعات التي عالجتها موضوعات محدودة العدد والقيمة، وتتميز بالثبات وضحالة التأليف.

ولقد اتضح فيما بعد أن التطبيق الحرفي للنموذج اللساني لا يمكن أن يقود إلى معرفة مثلى لهذه الأنساق ولا يمكن أن يزودنا بمعرفة تتجاوز تلك التي سلكها بشكل عفوي عن هذه الأساق. وبدل ذلك يجب القيام بشيء آخر. فعرض البحث عن النموذج اللساني في هذه الأنساق، يجب البحث عن خصوصية هذه الأنساق من خلال عناصر تكوينها ذاتها، أي البحث عما يحمل هذه الأساق قدرة على خلق وحداتها التدلالية الخاصة بها. فأسطورة التمهصل المزدوج مثلاً برهت على قصورها في إدراك نمط وجود أساق من قبيل العلامات الأيقونية مثلاً. فصورة سدس مثلاً كما يقول بارث لا تقابلها على الإطلاق كلمة سدس. إن ما يقابلها حقاً هو ملفوظ تتحدد أبسط تحفظاته من خلال العبارة التالية: «هذا سدس».

وعلى هذا الأساس «يمكن التأكيد أن النظرية السيميائية تتجاوز النموذج اللساني باستعمالها لنمذجة من هذا النوع. إن أساط الإنتاج المدروسة هنا ليست في ذاتها لا لسانية ولا غير لسانية، فالفتات السيميائية المستعملة هي التي نحدد الظواهر السميوزية المستخدمة في مختلف أساق العلامات، وهي القدرة على كشف السيرورة اللسانية والسيرورات غير اللسانية».

وسيعف إيكو في هذا الكتاب مطولا عند قضيتين هامتين: ما

يعود إلى التراث البنيوي ودوره في تشكل السميولوجيا (السميات) كعلم مستقل بذاته، وهو تراث لساني في المقام الأول كما سرى ذلك. وما يعود إلى القضايا الفلسفية الخاصة بتشكيل العلامة ودورها في تحول الإنسان من مجرد حيوان يصارع من أجل البقاء، إلى كائن فينكر تاريخه الخاص مبتعدا عن الأجناس الأخرى التي خلفها وراءه بلا تاريخ مستسلمة لآلية الطبيعة على حد تعبير فرانس السواح⁽²⁾

فعلى الرغم من أن السيماتيات عرفت النور ضمن سياقات فلسفية وعقدية بالغة التنوع والاختلاف، فإن البنيوية لعبت دورا حاسما في تحديد الأسس الأولى التي اتبنت عليها السيماتيات (ستترك جانبا وضع بيرس، فهو يشكل حالة فريدة، فتصوراته السيميائية ولدت ونمت خارج التقليد اللساني الأوروبي الذي أرسى دعائمه سوسير). ولتذكر في هذا المجال أن البدايات الأولى للسميولوجيا في أوروبا استمدت مفاهيمها الأولى من اللسانيات السوسيرية. فالسميولوجيا، على حد تعبير بارث، ما كان لها أن تحطو خطوة واحدة إلى الأمام دون الاستعانة بالمعرفة اللسانية. وهذا ما يتضح من خلال المفاهيم الرائجة في الدراسات السيميائية. فالعلامة والبنية والبدال والمداول والمركب والاستبدال والسانكرونية والدياكرونية ومفهوم القيمة وكذا شكل المضمون والتحليل الدلالي المستند إلى التقابل بين السيمات الدلالية (المعانم) كلها مفاهيم مستقاة من اللسانيات البنيوية. بل إن طرق وصف الوقائع فإنها مستوحى من الدراسات البنيوية.

وليس غريبا أن تتردد في الأدبيات السيميائية مفاهيم من قبيل السق والسنن والتماسك الداخلي للواقعة والشبكة العلائقية إلى غير ذلك من المفاهيم التي نحيل جميعها على طريقة في بناء الواقعة وطريقة في وصفها. وبطبيعة الحال، فإن البنية هي المفهوم المركزي

هي السبوية (وفي السيميائيات أيضا) والبنية حسب إيكو هي. «نموذج نمت بلورته استنادا إلى قواعد تبسيطية تسمح لنا باستيعاب مجموعة من الظواهر من جهة نظر معينة». والتركيز على البنية هو الذي سيؤدي إيكو من حديد إلى تحديد مفهومي النسق والسنن، وهو تمييز بالغ الأهمية كما سبى ذلك. فإذا كانت البنية هي المرادف للنسق (لم يستعمل سوسير أبدا مفهوم البنية، لكنه أشار مرارا إلى أن اللسان نسق من لعلامات) فإن السنن يحيل على شيء آخر، والخلط بينه وبين النسق مثلا قد يؤدي إلى كثير من الارتباك النظري والتطبيقي. فالنسق هو مجموعة من الاختلافات التي تقابل بين وحدات من نفس الطبيعة ومن نفس الوضع. وهذا ما يجعل من النسق كيانا يحتاج إلى وحدتين على الأقل لكي يوجد، مثال ذلك التقابل بين اللونين الأحمر والأخضر خارج كل السياقات الممكنة.

أما السنن فهو، على الرغم من ارتباطه بالنسق، من طبيعة مختلفة، إنه على خلاف النسق يقوم بالربط بين نسقين مختلفين: نسق المدلولات ونسق الدوال، ففي المثال السابق، يشير تقابل الدالين: أحمر (م)⁽³⁾ أخضر إلى تقابل أحمر على مستوى المدلولات في نسق القانون المنظم للسبر أي مرور ممنوع (م) مرور مسموح به⁽⁴⁾. وقد يشير إلى تقابل آخر في سياق آخر. وهذا يعني أن النسق ينتظم وفق أسباب موضوعية (التقابل بين /p/ و /b/ يستند إلى أسباب نطقية، والتقابل بين /مرور/ ولا مرور، يمكن أن يحكمه مقام ملموس يشمل على اختيار الذات هذا الحل دون ذاك، كما وقع لموسى عندما وصل إلى ساحل السحر الأحمر). وبالمقابل، فإن السنن يتأسس بشكل اعتباطي (حتى وإن كان هناك من يقول بأن هناك أسبابا موضوعية تعود إلى الإدراك أو إلى قابلية رد الفعل، تدفعنا إلى الربط بين الأحمر وبين

المنع، وهي أسباب ستهار إذا وضعنا علما أحمر يرفرف على واجهه
حزب يساري».

استنادا إلى هذه التميزات ستتضح كل القضايا الخاصة بتحليل
الوقائع وطريقة الإمساك مدالاتها المتعددة. فالمعنى ليس مرثيا من
خلال ما تقدمه العناصر المشكلة للوقائع، إن المعنى كيان مني استنادا
إلى أساق. وبعبارة أخرى، لا يمكن للمعنى أن يصح مرثيا وفدلا
للإدراك إلا إذا تم الكشف عن النسق المولد له. فلا وجود لدلالة
معطاة بشكل كلي ونام ونهائي قبل تدخل الذات القارئة التي تقوم
بإعادة بناء القصدات الضمنية المتحركة في العلاقات غير المبرية من
خلال التجلي المباشر للنص.

وعلى هذا الأساس إذا كان حلم البنيوي في مرحلة من مراحل
تطور الدراسات البنيوية هو الوصول إلى تحديد البنية التي تنتهي عندها
كل المتناقضات (تحديد «سنن الأسنن» بتعبير إيكو)، أي الرغبة في
الوصول إلى الإمساك ببنية تنصهر داخلها كل العناصر ضمن انسجام
كلي ونهائي استنادا إلى عمليات التبسيط المتتالية (المثال الذي يقدمه
إيكو من أجل الربط بين بنية الإنسان وبنية شجرة ضمن نموذج مثالي
يحيل على الإنسان وعلى الشجرة في الآن نفسه)، فإن السيميائيات
على العكس من ذلك، تسير في اتجاه معاكس. إنها تبحث عن ديمية
الباء الدلالي للواقعة من خلال إدراجها ضمن ما يسميه أميروتو إيكو
الموسوعة. والموسوعة، على خلاف البنية المعزولة والثابتة، متفتحة
ومتجددة ولا يمكن وصفها وصفا كليا. إن الموسوعة بناء ثقافي يشمل
على كل عناصر المعرفة الخاصة بالإنسان ومحيطه، ولهذا السبب فهي
في تبين وتجلد دائمين.

وكل الأمثلة التي يقدمها إيكو تؤكد هذا المنحى، سواء تعلو

الأمر بالطريقة التي تصف بها اللغة المعطيات المنتمية إلى العالم الحسي (لتفطيع المفهوم لمعطيات الطبيعة) أو تعلق الأمر بالوصف الحاص بالوحدات الدلالية المشكلة لما يسمى بشكل المضمون (المودج الأصلي الذي قدمه هالمسليف والمادج اللاحقة: نموذج بونسي ونمودج كريماس ونمودج كاتز وفودور)، أو ما يتعلق بالمستويات الدلالية التي تؤكد استحالة الإحالة الواحدة، وهو ما يفتح الواقعة الدلالية على الموسوعة التي تنتمي إليها، أو على الموسوعات التي تحدد أطرا ثقافية مغايرة (مستوى التقرير باعتباره يعبر الحد الأدنى الدلالي، ومستوى الإيعاء باعتباره يحبل على كل الممكنات الدلالية التي تشتمل عليها الواقعة بشكل ضمني أو صريح).

وهذا ما يميز السيميائيات عن البنيوية. فإدراج النص (الواقعة) ضمن الموسوعة معناه استعادة ذاكرة النص الخفية التي تشكل الأساس الذي تنبني عليه كل الوقائع التي تفرزها الممارسة الإنسانية. ذلك أن «الموسوعة هي مسلمة سيميائية، أي فرضية إبستمولوجية يجب أن نستثير الاكتشافات والتمثيلات الجزئية والمحلية للكون الموسوعي. (...) ولا فرق داخلها بين المعرفة اللسابة ومعرفة العالم. ففي الحالتين معا يتعمق الأمر بمعرفة ثقافية يتم داخلها شرح كل واقعة استادا إلى الوقائع الموسوعية»، ورغم طابعها الشمولي هذا فإنها «لا تدرج ضمنها كل المعارف المخصصة الممكنة التي يتوفر عليها فرد معرول، إنها تشتمل فقط على تلك التي تدرجها الثقافة ضمن الإرث المعرفي الجماعي».

وعلى الأساس، فإن السيميائيات لا تبحث في النص عن سمة دلالية كلية وثابتة (من قبيل فكرة التناظر الدلالي التي قال بها كريماس، وهي فكرة لم تعد تقنع أحدا)، ولا تبحث عن معنى معطى ومكف بدانه، إنها على العكس من ذلك تحاول الكشف عن السيرورات الممكنة

داخل الواقعة. فالوقائع ليست سوى سيرورات ضمنية يعيد المحلل بناءها وفق فرضياته التأويلية المعلنة أو الضمنية. فلا شيء ثابت داخل هذه الوقائع، ولا شيء يحمل دلالاته في ذاته في انفصال عن السيرورة التي يولدها التلقي. وكما يعبر عن ذلك إيكو بطريقته الخاصة فإن «المحاور الدلالية في تبين مستمر وفق المقامات، ولكن من الضروري أن توجد هذه المحاور من أجل إقامة صرح الدلالة. وعلى كل دراسة سيميائية أن تنظم أكبر قدر من هذه التقابلات غير المتطابقة ظاهرياً داخل سدادح بعينها، حيث تتخذ العلاقات شكل قواعد للتحويل أكثر عمومية. وفي حالات كثيرة، وفي مناطق شاسعة من الحقل الدلالي الشامل، سيكون ذلك ممكناً، بحيث سيكون في مقدورنا بناء حقول دلالية هامة وبالغة البنية. إلا أن السيميائيات لا تدعي لنفسها أمل عزل ووصف هذا النسق الدلالي الشامل. وإذا حصل أن تم هذا الوصف، فإن تلك الحركة الإبداعية الدائمة التي تستلهمها حياة السميوز مستوقفة».

وسر ذلك نجده في تحديد فحوى المعنى ذاته، فالمعنى ليس جوهرًا ولا مادة، إنه واقعة ثقافية، وكل الوقائع لا يمكن أن ينفلت من التحديد الثقافي المسبق، لذلك أن الثقافة تقوم بتجزئة المضمون وتثبت في وحدات ثقافية تلك الأجزاء الواسعة من المضمون الذي نطلق عليه الإيديولوجيا.

وعلى هذا الأساس فإن السيميائيات (السيرورات السميوزية) ارتبطت تاريخياً برغبة الإنسان في الإمساك بوحدة التجربة من خلال البحث عن القواعد الضمنية التي تحكم هذه التجربة وتجعلها كيماً قابلاً للفهم والاستيعاب والتبادل. فالسلوك السيميائي بدأ في التبلور حين أحس الإنسان تميزه وانفصاله التدريجي عن الكائنات الأخرى. وهذا ما يميز السلوك السيميائي عن ردود الفعل الطبيعية. إن السلوك السيميائي

هو الحالات الثقافية التي تمنح الأشياء والأعضاء بعدا جديدا يحولها إلى شكل رمزي، أي وسيط بين الإنسان وإدراكه لعالمه الخارجي. وهذه الأسباب، وأسباب أخرى، فإن السيميائيات ليست نظرية وحسب، وإنما هي ممارسة دائمة. إنها كذلك لأن النسق الدلالي في تطور مستمر، وهي لا تستطيع وصفه إلا جزئيا استناداً إلى وقائع إبلاعية ملموسة ومحددة. وهي كذلك أيضا لأن التحليل السيميائي بغير من النسق الذي يولده. وهي كذلك، في الختام، لأن الممارسة الاجتماعية ذاتها لا تجد تعبيرها إلا في السيميوز. إن العلامات تشكل فعلا قوى اجتماعية، وليست فقط أدوات تعكس هذه القوى.

تلك هي بعض القصايا التي يشتمل عليها الكتاب بشكل صريح أو ضمني، وقد حاولنا من خلال هذه المقدمة أن نلقي بعض الأضواء على الغايات التي تحكم هذا الكتاب، وهي غايات ليست مفصلة من الأسس المعرفية التي يستند إليها المؤلف في صياغة فرضياته النظرية والتحليلية.

أتقدم بحزبيل الشكر والامتنان لكل الأصدقاء الذين ساعدوني على إنجاز هذه الترجمة، وأخص بالذكر الأستاذين أحمد الفوحي ومحمود ميري.

ونجدر الإشارة إلى أن العنوان الأصلي للكتاب كما ورد في الترجمة الفرنسية هو :

Le signe

Histoire et analyse d'un concept

في الختام، أهدي هذه الترجمة إلى الذي ذهب وفي قلبه كثير من الحب والحسرة، إلى صديقي عبد العلي اليزمي.

سعيد يتغراد

للهمامش:

- (1) Umberto Eco: Kant et l'ornithorynque, éd Grasset, 1999, p 70.
- (2) فرانس السواح: لعز عشتار، الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، دار علاء الدين، الطعة السابعة، 2000، ص 13.
- (3) (م) = تسمي هنا (مقابل).
- (4) Jean-Marie Klinkenberg: Précis de sémiotique générale, éd De Boeck Université, 1996 pp . 139 -140.

مدخل

«المهم هو الكلمات، أما الباقي فمجرد لغو» بونيسكو

لنفترض أن السيد سيفما^(١)، وهو مواطن إيطالي يقضي عطلة في باريس، بدأ يحس به «ألم في بطنه». ولقد استعملت لفظا عاما، لأن السيد سيفما لا يشعر سوى بإحساس لم يتبين كنهه بعد، وسيحاول بعد ذلك تحديد طبيعة هذا الاضطراب: هل يتعلق الأمر بقرحة المعدة؟ أم بانقباض أم بمغص؟ إنه يحاول أن يعطي اسما لمثيرات غير محددة بعد. فعندما يصل إلى تسميتها، فإنه سيتمنحها بعدا ثقافيا، أي أنه سيصنف ما يبدو لحد الآن باعتباره مجموعة من الظواهر الطبيعية في خانات محددة و«مسنة». إنه يحاول بذلك ربط تجربته الشخصية بسمة تجعلها قابلة لأن تقارن بتجارب أخرى سبق أن منحتها كتب الطب أو المقالات الصحفية اسما.

والآن فقط عثر على الكلمة التي تبدو أنها تصدق على حالته. وتمثل هذه الكلمة - أو تحل محل - الاختلالات الجسمية التي يحس بها. وما أن عاينته هي إبلاغ هذه الاختلالات إلى طبيب ما، فإنه يعرف بأنه يستطيع استعمال الكلمة (كلمة يستطيع الطبيب فهمها) محل

الإحساس التي يشعر بها (وهي أحاسيس لا يحس بها الطبيب وربما لم يحس بها أبدا في حياته). ويتفق الجميع على أن الكلمة التي كشف عنها السيد سيغما هي علامة. إلا أن القضية التي نحاول دراستها أعقد بكثير من هذا الأمر.

لقد قرر السيد سيغما زيارة الطبيب، سيبحث في دليل الهاتف عن «منطقة باريس»، وهناك علامات طباعية تميز الطبيب عن غيره، وتبين له كيفية الاتصال به.

سيخرج وسيبحث عن علامة يعرفها جيدا، وهي العلامة الدالة على حانة. فلو تعلق الأمر بمقهى إيطالي فسيبحث عن الهاتف في الركن الأيسر القريب من الصندوق حيث يوجد جهاز هاتف من لون رماسي. وبما أنه في حانة فرنسية، فإن هناك قواعد وأولية أخرى خاصة بتنظيم المحيط الداخلي للحانة، لهذا سيبحث عن سلم يؤدي إلى القبو، وهناك، كما هو الحال مع أية حانة تحترم نفسها، سيجد المراحيض والهاتف. إن المحيط يُمثل أمامه باعتباره نسف من العلامات يقوم بتوجيهه. وفي هذه الحالة، فإنه سيعين له المكان الذي يستطيع فيه إجراء مكالمته.

نزل اليد بينما السلم ووجد معه أمام ثلاث مقصورات
صغيرة. وهناك نتق آخر من العلامات سيتمكنه من معرفة الكيفية التي
سيستعمل بها الفيشة التي في جيبه (الفيشات ليست صالحة كلها
للاستعمال في كل الهواتف، عليه إذن أن يقرأ الفيشة «س» باعتباره
«تستعمل في الهاتف «ي»)، وفي النهاية سيصرف من خلال الإشارة
الصوية أن الخط مفتوح. وهذه الإشارة تختلف عن تلك التي تستعمل
في إيطاليا، فعليه إذن أن يكون مطلعاً على قاعدة أخرى لكي يمت
رموزها. إن هذا الطنين هو المعادل للمباراة اللغوية «الخط مشغول».

أمامه الآن أسطوانة كتبت عليها حروف وأرقام. إنه يعرف أن الطبيب الذي يريد الاتصال به يُرمز له بـ dan 0019⁽²⁾. إن هذا المقطع المكون من حروف وأرقام يتطابق مع اسم الطبيب، أو يدل على «مزل لملا». إلا أن إدخال السبابة في الأسطوانة وجعلها تدور وفق المقاطع الرقمية والحرفية المراد الحصول عليها له دلالة أخرى - فهذا المعنى يقول لنا إن الطبيب سينتبه إلا أن السيد سيغما يتأذى. والأمر يتعلق هنا بنظامين متميزين للأشياء: قد أتعرف على رقم هاتفي، وأعرف إلى ماذا يرمز، ولكنني لن أكلم هذا الشخص أبداً، وقد أكون رقم كيفما اتفق وأنا أجهل صاحبه، وأنا أعرف أنني مع ذلك أكلم أحداً.

فالدال الهاتفي يسير وفق سنن قائم الذات: فالحروف مثلا تعين منطقة خاصة من المدينة، ولكنها ترمز في الآن نفسه إلى أرقام بعينها: فإذا نادينا نفس المركز في باريس من مدينة تقع خارج فرنسا، ميلانو مثلا، فعلياً أن نترجم DAN إلى عبارة رقمية تتطابق معها، ذلك أن الهاتف الإيطالي يحكمه سنن آخر.

ولنعد الآن إلى سيغما الذي يكون رقمه: هناك صوت جديد يقول له إن الموقع الذي يريد مكالمته مفتوح. وأخيراً سيمسح صوتاً: إن هذا الصوت يكلمه باللغة الفرنسية، وهي ليست لغة سيغما. ومن أجل الاتفاق على موعد مع الطبيب، على سيغما أن يمر من سنن إلى آخر ويترجم إلى الفرنسية ما يفكر فيه بالإيطالية (من أجل شرح المعنى للطبيب فيما بعد). وبهذا سيحدد له الطبيب موعداً وعنواناً. إن هذا العنوان علامة تحلل على موقع محدد داخل المدينة، وعلى طابق محدد وعمارة محددة، وباب محدد في هذا الطابق. والموعد، من جهته، قائم على قدرة الطبيب وسيغما على الإحالة على نسق من

العلامات لها استعمال كوني: مبناء عداد الساعة.

ولنحتصر العمليات التي على سيفما القيام بها من أجل إمداد سائق التاكسي بالمعلومات وكذا الطريقة التي سيؤول بها هذا السائق الإشارات الطرقية (الاتجاهات الممنوعة، يُسمح الانحراف بميا أو يسارا)، ويقارن بين الإشارات التي تعطى له شفها وبين تلك التي تقولها الإشارات الطرقية، وسترك جانباً أيضاً العمليات التي يقوم بها سيفما من أجل التعرف على المصعد والزرر الموافق للمطبق الذي يريد الوصول إليه، والتعرف في النهاية على الشقة التي فيها الطبيب كما هو مثبت في اللوحة المعلقة على الباب. وعلى سيفما أيضاً أن يميز بين زرين يوجدان قرب باب الطبيب: ما يشير إلى الجرس وما يشير إلى زر نور العمارة: يمكن أن نتعرف عليهما من خلال بعض الجريثات كشكلهما وموقعهما القريب أو البعيد من الباب، أو بفصل وجود رسم على الزر (جرس صغير في الحالة الأولى ومصباح في الحالة الثانية)، والخلاصة أن على سيفما من أجل الدخول عند الطبيب أن يكون مدماً بمجموعة كبيرة من القواعد نجعل من شكل ما متطابقاً مع وظيفة ما، أو تطابق العلامات الطباعية مع وحدات معينة.

وفي النهاية ما هو بطلنا أمام الطبيب، يحاول أن يشرح له ما حدث له هذا الصباح: «معنتي تؤلمني».

إن الطبيب يفهم بالتأكيد هذه الكلمات، ولكنه لا يثق بها. فهو ليس متأكداً أن سيفما حدد بالضبط موطن الداء بعبارات مناسبة. سيصع عليه أسئلة، ومن خلال الحوار سيحدد سيفما بطريقة أفضل نوع الألم الذي يحسه، وموقعه بالضبط. سيقوم الطيب من جهته بحس بطن سيفما وكبد: فالتجارب علمته أن بعض اللمسات لها دلالة خاصة (فلقد قرأ كتباً شرحت له أن بعض التجارب التلمسية تعانها

ضرر عضوي). إنه يقوم بتأويل أحاسيس سيغما (أحاسيس لا يشعر بها هو) ويقابل بينها وبين أحاسيسه اللمسية الخاصة. فإذا كانت مُسن السميولوجيا الطبية صحيحة، فإن الإحساسيين معا يجب أن يكونا متدعسين. إلا أن أحاسيس سيغما تأتيه عبر أصوات اللغة الفرنسية. وعلى الطبيب أن يتأكد حينها ما إذا كانت الكلمات التي تتجلى من خلال شكل صوتي تتطابق مع الأحاسيس التي يشعر بها في الاستعمال اليومي. ولكنه متشكك في الأمر: فسيغما قد يستعمل كلمات غير دقيقة، لا لأن هذه الأحاسيس غير دقيقة، ولكن لأن المريض قد لا يترجم بشكل جيد الإيطالية إلى الفرنسية: إنه يقول «بطش»، ولكنه يريد أن يتحدث عن الكبد (قد يكون سيغما جاهلا، ولذلك فإن بطش وكبد تعنيان عنده حتى في اللغة الإيطالية نفس الشيء).

سيأخذ الطبيب كمي سيغما: هناك لطفات حمراء، غير منتظمة، «علامات لا تبشر بخير» همهم الطبيب: «ألا تشرب كثيرا مثلاً؟ اعترف سيغما، «وكيف عرفت ذلك؟» سؤال مباح: فالطبيب يمكنه أن يؤول بعض الأعراض كما لو كانت فصيحة بشكل كبير (فهو يعرف على ماذا تدل بعض اللطفات وعلى ماذا يدل الانعراج). ولكنه لا يعني ذلك بشكل أكيد: فمن خلال كلمات سيغما ومن خلال تجاربه اللمسية ولبصرية تعرف على بعض الأعراض وحدها من خلال مفاهيم علمية تتطابق مع ما درسه في الجامعة؛ ولكنه يعرف أيضا أن تعففات عديدة تشير إليها نفس المجموعة من الأعراض. فعليه الآن أن يستقل من العرض إلى المرض الذي يدل عليه هذا العرض، وهذا الأمر من اختصاصه. ونتمنى فقط أن لا يستدعي الأمر القيام بأشعة، ففي هذه الحالة سيضطر إلى الانتقال من علامات البيانات التصويرية (الغرافيكو فوبوغر فيا) إلى الأعراض البادية عليه، ومن العرض إلى الضرر

العضوي، حينها لن يقف عند حدود نسق واحد من الأعراف السيميائية بل سيشمل عمله أنساقا أخرى، وهي صعوبة قد تؤدي إلى الخطأ التشخيصي.

ولن نهتم بهذا الأمر، ويمكننا أن نترك سيعما يواجه مصيره وحده، ونتمنى له الشفاء: إذا استطاع قراءة الوصفة الطبية (وهو أمر صعب، فعادة ما تكون الكتابة الخطية للأطباء صعبة القراءة)، ويمكن أن يشفى ويستمتع بالعطلة الباريسية.

قد يكون سيعما فريدا وعنيذا، وعندئذ، سيرد على النصيحة التي يقدمها له الطبيب «إما أن تتوقف عن الشرب وإما أن أهني نفسي من أية مسؤولية تحس كبدك» قائلا «حير لي أن أستمع بالحياة دون الاهتمام بالصحة، من أن أتحول إلى شخص تأكله الوسواس ويقضي حياته في وزن الطعام والشراب في ميزان صيدلي». وفي هذه الحالة فإن سيعما سيفهم تقابلا بين قبعتين: حياة جميلة في مقابل صحة جيدة، وهو تقابل لا يشبه ذلك الذي نقيمه عادة بين حياة (م) موت: فأن يحيا الحياة دون الاكتراث بمحاطرها الدائمة التي هي الموت، تدو له وكأنها نفس الوجه لقيمة أساسية، وهي «عدم الاكتراث»، وهو ما يتقابل من جهة أخرى مع الثنائية. صحة - اكتراث، وهي ثنائية مليئة بالملل.

وفي هذه الحالة سيكون سيعما نسق فكري خاص (من نفس طبيعة النسق السياسي أو الجمالي) يتخذ شكل تنظيم خاص للقيم، أو المصامين. وبما أن هذه المصامين تتخذ شكل مقولات ذهنية، فإنها ستكون أيضا بدائل «استعملت» محل شيء آخر: إنها كذلك بالة لما يترتب عنها من قرارات، وبالنسبة للتجارب التي تدعمها. ونفس المعنى، فإن هذه المصامين تدو كعلامات داخل الحياة الشخصية

هذا هو المعنى الذي نريد أن نوضحه. إننا نريد أن نوضح أن
الشيء الذي نريد أن نوضحه هو أننا نريد أن نوضح أن

وداخل الشخصية لسيغما. وإذا كانت الأشياء كذلك فهذا أمر يدعو
إلى التأمل، ولكن هناك من يعتقد في صحة هذا الأمر.

وما يهمنا الآن هو التركيز على أن شخصا سويا واجه مشكلا
عصويا وطبيعيا كـ «ألم في البطن» سيجد نفسه منغمسا داخل شبكة من
أساق العلامات بعضها مرتبط بإمكانية القيام بأفعال عملية، وأخرى
تعود مباشرة إلى مواقف نسميها «إيديولوجية». وفي جميع الحالات،
إن هذه الأنساق مجتمعة تعد رمزا أساسيا داخل التبادل الاجتماعي،
إلى الحد الذي يمكن أن نتساءل معه هل العلامات هي التي تسمح
لسيغما بالعيش داخل المجتمع، أم أن المجتمع الذي يعيش داخله
سيغما باعتباره كائنا إنسانيا ليس سوى نسق واسع ومركب من
العلامات؟ وفي الختام، هل يعني سيغما بشكل عقلائي آلامه؟، هل
كان من الممكن لسيغما التفكير في هذه الآلام ونصيفها، لو لم يؤسسه
المجتمع والثقافة ويجعل منه حيوانا قادرا على بلورة علامات
وإبلاغها؟

ومع ذلك قد يوحي المثال الذي سناه بأن هذا الغزو الشامل
للعلامات لا يتعلق سوى بحضارة صناعية، ولن يتجلى سوى داخل
مدينة تغطيها الأضواء والمصابيح، مدينة مليئة بالألواح التوجيهية،
ومليئة بالأصوات والإشارات من كل الأنواع. إننا ننظر إلى المسألة،
وكان وجود العلامات مرتبط بوجود الحضارة، بالمعنى المادي
لكلمة.

إن الأمر ليس كذلك، فحتى لو كان السيد سيغما فلاحا معزولا
عن العالم، فإنه سيعيش أيضا وسط العلامات. سيجوب أطراف الريف
مد طلوع الفجر تحت رحمة الغيوم المعتلة في الأفق، سيكون بإمكانه
التكهن بالرمز، وستطعمته ألوان الأوراق على مآل الموسم الفلاحي،

... يذوقونهم ... ولا يرونهم ...

... مني عظمي ... يقرأ ...

وستحبره سلسلة الأخاديد المحفورة على أديم الأرض وهو قاصد
عن نوعية الفلاحة التي تصلح لها هذه التربة. ويحبره برعم وسط
الحشائش عن انتشار نوعية معينة من الحبوب في هذا المكان،
وسيكون بإمكانه التمييز بين المطريات السامة ونظف الصالحة
للاستهلاك، وسنحدد له الفقاعات التي تفرزها الأشجار الصالحة جهة
الشمال، إذا لم يكن قد استنتج موقعه ذاك من خلال مدار الشمس.
وبما أنه لا يملك ساعة، فيستعين بالشمس لمعرفة الوقت، وهبوب
ريح تقول له أشياء كثيرة لا يستطيع الحضري أبداً معرفة كنهها. وهكذا،
فإن رائحة ما كامية لتحدثه، هو الذي يعرف أين نبت بعض الورد،
ومن أين تهب الريح. وإذا كان صيادا، فإن أثره على الأرض، أو
كومة من الشعر معلقة على فن فيه أشواك، وبعض الآثار لطيفة
ستكشف له عن هوية الطريدة التي مرت من هنا، ومتى مرت.
والخلاصة أن السيد سيعما، حتى ولو كان غارقا وسط عالم طبيعي
فإنه سيعيش وسط العلامات.

إن هذه العلامات ليست ظواهر طبيعية، فالظواهر الطبيعية هي
ذاتها لا تقول أي شيء، إنها لا تحدث السيد سيعما إلا إذا كانت
هناك تقاليد علمته كيف يقرأ هذه الظواهر. إن سيعما يعيش إذن وسط
عالم من العلامات، لا لأنه يعيش وسط الطبيعة، بل لأنه يعيش وسط
مجتمع حتى وهو يعيش وحده: فما كان لهذا المجتمع الريفي، أن
تقوم له قائمة لو لم يبلور شئ الخاصة هي تأويل المعطيات الطبيعية
(التي ستتحول حينها إلى معطيات ثقافية). وهذه المعطيات هي التي
تسمح لنا بفهم ماذا يعني كتاب مخصص لدراسة مفهوم العلامة إنه
سيهتم بكل شيء.

وبطبيعة الحال من حق اللساني أن يلاحظ أننا إذا كنا سنطلق

سم علامة على كل ما يتوسط ذاتين بما فيها الترجمات المنفردة التي يقوم بها سيغما بيه وبين نفسه، فلن تكون هناك أية حدود لمفهوم علامة. سيقول لنا هناك بالتأكيد أدوات تعد علامات بالمعنى الخاص كالكلمات وبعض العلامات، وبعض الأعراف الإشارية، ولكن لذي لا يعد علامة هو تجربة إدراكية، أو قدرة على صياغة المفاهيم والتوقعات استنادا إلى التجارب.

إن هذا المقترح يستجيب فعلا للحس السليم. وسنحاول تعميده في الصفحات الآتية. ولكن القارئ لم يصل بعد إلى هذه المرحلة. لنأخذ بمجالة ظاهرتين متؤكدان لنا أن الاعتراض اللساني لا يقرود سوى إلى الابتسار.

من جهة، استعمال مفهوم العلامة، طوال تاريخ الفكر الفلسفي بالمعنى الواسع للكلمة إلى الحد الذي أصبح يطبق فيه على عدد كبير من التجارب التي وصفاها من خلال مثالا السابق، ومن جهة ثانية، لقد هودنا الاستعمال العادي - ما تقدمه القواميس بشكل خاص - على استعمال كلمة «علامة» بشكل فصفاض لكي يشير إلى معناها لعام.

II - لقد استعان الفلاسفة بـ «العلامة» واستعان بها رجل لشارع على حد سواء، فرجل الشارع يستعمل تعابير يومية مثل «علامة سيئة»، «عطا علامة عندما تكون جاهرا»، «ولدت تحت أية علامة». إن لفلاسة، في مظر المتعلمين، يستعملون كلمة علامة بدقة، ويمطرونها معنى منسجما، أما في الاستعمال اليومي، كما هو الحال في الحمل السابقة، فإن «علامة» هو لفظ متعدد المعاني، أي لفظ يستعمل في ظروف متنوعة، ومعاني مختلفة، وغالبا بطريقة ميتافيزيقية وعامة. وسنرى فيما بعد، كيف يمكن للاستعمال الفلسفي لكلمة علامة

مثل ذلك. الأمر أو الرغبة أو الخير: «لم تصدر عنه علامات ثبت أنه حي»، «انقطعت أخباره».

5- صمة تمييزية مطبوعة أو مختومة على شيء أو شخص من أجل التعرف عليه.

6- شكل طباعي بسيط (نقطة، خط مستقيم، خط مائل) يحيل عروباً على موضوع مجرد، أو كيان طباعي مركب له نفس الوظيفة (أرقام، تركيبة كيميائية، علامات نباتية، علامات الاختصار، علامات ملكية، علامات عرقية تحيل على وحدات عسكرية). ملاحظة: يطلق على هذه العلامات أحياناً رموز (يجب ألا يخلط بينها وبين مجاساتها في 10 و 11).

7- التمثيل المادي لموضوعات محسوسة: مثال ذلك رسم حيوان يلائم موضوعاً أو مفهوماً يتطابق معه.

8- (لسانيات) إجراء يتم من خلاله تمثيل مفهوم أو موضوع من خلال صورة سمعية (كلمة مثلاً). كل عنصر يعد جزءاً داخل سيرة.

9- كل عنصر داخل فعل بصري يحيل على صورة سمعية أو على كلمة أو مفهوم أو موضوع مثال: حروف الأبجدية، العلامات القورية (السيوغرافية)، المختصرات، الكتابة الصورية (سينوغرافيا)، علامات الضبط، النوطات الموسيقية، أبجدية المورس، أبجدية براي مثال: حروف الطباعة.

10- الرمز، كيان تصويري أو غير تصويري يمثل، من خلال خصائصه الشكلية أو من خلال طابعه الحرفي، حدثاً أو قيمة، أو حدثاً أو هدفاً، مثلاً: الصليب («علامة الصليب»)، المسجل والمطرقة، جمجمة ميت «علامات شعارية»، «علامات البحرية» (شراع، شهب، مربع منحرف)

11- الرمز، كيان تصويري أو غير تصويري يحيل بطريقة فضفاضة أو إيحائية أو غير دقيقة على حدث أو فيعة.

ج-12- (لاتينية نادرة) علم.

13- تشاكلات فلكية، علامات البروج (أو علامات كوكبية، علامات الحظ).

14- ضمن علامة، تحت تأثير شيء ما، تحت أحضان، في مناخ ما، في ظل شروط أحدثها شيء ما

15- (قديم) seing

16- (نادرة) أموال وضعت بين يدي عرافة معامرة.

17- ظاهرة طبيعية، حدث ينظر إليه كتجمل لإرادة مستترة، أو قصدية إلهية، أو قدرة سحرية، أو توضيح لنظرية، قال (معجزة).

ويجب أن سه على أن القواميس التي اطلعنا عليها قامت، من أجل التعرف على الاستعمال اليومي، بتصنيف مختلف التصورات الموصوفة هنا في خانات غير ممنهجة، ومن جهتنا سنعمل على تنظيم هذه التصورات وذلك من أجل :

1- أن نصنف ضمن (أ) العلامات غير القصدية التي تشكل، بطريقة ما، أحداثا طبيعية ستمثلها من أجل التعرف على شيء ما أو استنباط وجودها (وهكذا فمن خليط دحان في أعلى الجبل نستنتج وجود نار)، ونصنف ضمن (ب) العلامات الاصطناعية التي يستعملها الإنسان من أجل التواصل مع أخيه الإنسان استنادا إلى وجود أعراف.

2- التمييز بين التصورات الأساسية والتصورات المشتقة (استعاريا أو من خلال الامتداد)، فالتصورات الثانية نصنف بعد الأولى ضمن نفس الخانات.

3- إدراج ضمن (ج) تعابير مركبة وبعض التصورات الأدبية أو

الرمز
العلم

التعابير المهمة، حتى وإن كانت مشتقة من خلال الامتداد، من معاني موصوفة في (أ) و(ب). وهكذا فإن التصور (15) مرتبط بالتصور (5) (3) أما التصور (14) المعزول، فهو مثبت في كل القواميس باعتباره تعبيراً مستقلاً، ويشير إلى نقطة متناقض فحواها فيما سيأتي: إن بعض الألفاظ لا نكتسب بعض القيم المحددة إلا ضمن سياق ما، وهي حالها هنا، رغم أن «علامة» هذا التعبير مرتبطة بالتصور (13). وهي لاحتام فإن التصور (17) الذي تفق عنده كل القواميس إلى حد أنها تخصص له حانة مستقلة ليس سوى امتداد لـ (1) و(4) و(8)، وذلك تبعاً للفرضية الميتافيزيقية والدينية والسحرية التي تتحكم في التعرف على هذه العلامات: يمكن أن نرى فيها أعراضاً وأوامر وأمارات أو كلمات أصيلة في لغة إلهية.

وفي جميع الحالات ملاحظ، ونحن نقرأ هذه التعريفات، من جهة وجود سمات مشتركة بين كل أنواع هذه العلامات، ومن جهة ثابته وجود خصائص تسمح لنا بتمييز مجموعات متعددة من هذه الأنواع. فلقد تبلورت منذ القدم، استناداً إلى لعبة الخصائص المشتركة والمختلفة، مجموعة من التعريفات الخاصة بالعلامات. إن هذه التعريفات والتصنيفات، حتى وإن كان اللسانيون أو الفلاسفة هم الذين اقترحوها، فإنها تشترك فيما بينها من خلال خصائص بارزة. إنها قائمة على الاستعمال المشترك. إما لأن هؤلاء الملامسة واللصاق يكررون تعاريف وتصنيفات صاغتها الذوات المشكلة (والقواميس)، وإما لأنهم يسورون تعاريف جديدة مستقط، بمجرد اقتراحها في الميدان العمومي للخص السليم.

يجب أن نطلق من التعديل الذي يعد ثمرة للخص السليم (المشترك أو العام)، لأننا أولاً في حاجة لنقطة ارتكاز ما، ولأن

اطلاعنا على لائحة هذه التصنيفات وتاريخها سيسمكنا من بناء
 فينومينولوجيا حقيقية للعلامة. إن التصرف بهذه الطريقة قد يبدو ناهيا
 وبيزنطيا. وبالمقابل إذا لم تفعل ذلك، فهذا معناه أن خطاب سيظل
 عامضا ومطلقا واستعاريا. إن كون مجموعة من الفلاسفة قبلوا الحق
 الثاني لا يشكل بأي حال من الأحوال عدرا: بل على العكس من ذلك
 يجب أن يدفعنا إلى الدقة والتقنية. فلم يشعر لا أرسطو ولا أفلاطون
 بأي حرج وهما يمزجان فلسفة اللغة باعتباريات ذات طبيعة لسانية
 ونحوية.

وعلى العكس من ذلك ظهرت في أيامنا هذه فلسفة أكاديمية
 تنفّز من التحليل التقني الحاصل للغة، لا لوجود تخصص لا يسي
 يتقوى في هذا المبحث (وهو تخصص يشعرهم أنهم ليسوا مؤهلين
 للاقتراب من ميدان يحتاج إلى معرفة دقيقة ومتخصصة)، بل لأن
 الفلسفة تنظر إلى نفسها باعتبارها خطابا نظريا شاملا، تتحدى
 التحليلات التقنية الدقيقة. وبهذا المعنى، فالفكرة القائلة إن الإنسان
 «حيوان رمزي»، وبصمته تلك فهو تواق إلى التواصل، هي فكرة من
 طبيعة فلسفية. وبالمقابل فإن وصف الطريقة التي يتم بها هذا التواصل
 والآليات التي تحكم الروابط الدلالية ليس من الفلسفة في شيء، بل
 هو أمر يعود إلى اللسانيات أو إلى شيء آخر. وهكذا فإن بعض
 الفلاسفة المشهورين، هايدغر مثلا، سمحوا لأنفسهم بالمحاجة
 فلسفيا امتدادا إلى اشتغالات تجعل متخصصا في اللسانيات التاريخية
 يشتمر مما يسمع، ولكنه حجاج لا يجعل إيروودور ذو سيفي يتحرك في
 قبره. والحال أن بيرس الذي قصى حياته في تصنيف وتبئة كل آليات
 اشتغال الدلالة - وهو السبب الذي جعل الفلاسفة ينظرون إليه نظرة
 مريبة - مازال يُنظر إليه باعتباره فيلسوفا بفضل صفحاته التي كتبها عن

عبر ٧٠

السينافيرفا والأخلاق (أو بفضل ما كتبه عن المنطق)، لا بفضل
إسهاماته السيميائية (ويدون هذه الإسهامات لا معرف بالضبط ماذا يريد
قوله عندما يتحدث عن الله والعالم والذهن البشري). وبالتأكيد لا
يمكن التشكيك في ضرورة اهتمام الفلسفة بالقضايا التي لا تعبرها
العلوم اهتماما نظريا لاستغراقها في التخصص الأعمى، ولكن الاهتمام
بالقضايا الكبرى لا يعني تجاهل النتائج المكتسبة في ميادين خاصة.
وهذا يعني، على العكس من ذلك، أخذ هذه النتائج بعين الاعتبار
وتأويلها (عندما يتم الحصول عليها خارج ميدان النشاط الفلسفي)، إن
لم نقل إثارتها عندما نعامر الفلسفة في حقل لم تصل فيها التخصصات
الدقيقة إلى نتائج يمكن الاستفادة منها.

وتلك مسألة نعرفها الفلسفة جيدا: فمن المستحيل حاليا تأسيس
فلسفة لدعة دون الأخذ بعين الاعتبار كل ما أنتجته اللسانيات في
القرنين الماضيين؛ ومن جهة ثانية، سيكون من المفيد جدا بناء
سيميائيات من أجل تمديد الإشكالية اللسانية إلى إشكالية الدلالة (كما
تجلى في جميع المستويات بما في ذلك المستوى غير اللفظي).
إلى هذا الحد لا يمكن التنازل: هل السيميائيات هي فقط
الشكل الثنائي الذي تحده فلسفة الدلالة؟ (التي تقوم بتفكيك المفاهيم
العامة للغة) أم يتعلق الأمر بنقطة للبحث تبناها فلسفة اللغة من أجل
الحدث عن العلامات؟

ومع ذلك هناك أمران لا يمكن إنكارهما :

أ- إن الإنجازات الأكثر أهمية في ميدان اللسانيات كانت -
شأنها شأن إنجازات الفيزياء وعلم النفس - ثمرة مجهودات عميقة في
التخصص معاً، لا من إنجاز الفلاسفة وحدهم. (إنتاين وهابزبرغ
في الفيزياء، وسوسير وهلمسليف في اللسانيات).

ب تعد الـيميائيات حالياً تقنية في البحث بجحت في وصف
اشتغال مـيرة الإبلاغ والدلالة.

وما دام الأمر كذلك، فإننا سنتصرف، في جره هام من هذا الكتاب، بطريقة لا نذكر بالخطاب الفلسفي الأكاديمي، لأن السائد هو الاعتماد بأنه من الأجدى لنا الحديث عن العلامة بلغة فلسفية سنحاول أن نقدم وصفا تقنيا لظاهرة عملية التوليد الدلالي (السمبور)، سنحلل امتثالها للمعوس، وسنجازف بتقديم تعاريف جريئة. وبدون هذه الطريقة لا يمكن تأسيس فلسفة للعلامة. وإذا حدث وتأسست هذه الفلسفة، فإنها ستكون فلسفة رديئة. وبالمقابل، وبفضل هذه الفلسفة ستقوم بما قامت به فلسفة العلامة. فعلى هذه الفلسفة أن تأخذ بعين الاعتبار حالات مثل تلك التي يكشف عنها موريس. «السؤال الخاص بمعرفة هل بنية اللغة وبنية الطبيعة لا يمكن مناقشتها بشكل صحيح إلا إذا تم توضيح لفظي «سبب اللغة» و«بنية الطبيعة»» (موريس 1938 - 22).

وتبعاً لذلك، فإن فلسفة العلامة يجب أن تنظر إلى أساليب تحليلها باعتبارها قادرة على تمكين كل خطاب فلسفي من مراقبة حدوده الخاصة. «نعمنا السيميائيات بإنجاز إحدى المهام التي تُنظر إليها عادة باعتبارها من طبيعة فلسفية، ولقد أخطأت الفلسفة عندما خلطت في لغتها الخاصة بين مختلف الوظائف التي تقوم بها العلامات. ولكن الأمر يتعلق بتقليد قديم يريد من الفلسفة أن تدرس بعمق الأشكال المميزة للنشاط الإنساني وتناصل من أجل معرفة عامة وممنهجة. وهذا التقليد يتخذ شكلاً عصرياً في تعاهي الفلسفة مع نظرية للعلامات ونوحيد العلم، أي المظهر الأكثر عمومية والأكثر سقوية لسيميائيات خالصة ووصفية» (موريس 1938، 58 - 59).

سيدرك القارئ وهو يتفحص فهرس هذا الكتاب أننا حاولنا
القيام بالعمليات التالية أحسن قيام :

قدمنا في الفصل الأول تعريفا تقريبا للعلامة، وهو تعريف
نصري ومؤقت، لأنه «تعريف متوسط» وإن جار التعبير، فإنه تعريف
يأخذ في الاعتبار مختلف التعريفات السابقة عليه. وهذا التعريف كاف
من أجل تناول الفصل الثاني حيث حاولنا أن نقدم وصفا لمجمل
لتصنيفات الخاصة بالعلامة قديما وحديثا. إن هذين الفصلين من طبيعة
تسامحة، بهما لا يدعيان تأسيس أفق نظري موحد، بل يقدمان فقط
بانورااما للآراء.

أما الفصل الثالث فهو أكثر انسجاما، على الرغم من أنه يقدم
بأمور ما لمختلف النظريات. إنه يدرس البنية الداخلية للعلامة بدءا من
المقاربة البنيوية في اللسانيات. ولقد بدا لنا من المفيد أن نحصر
فصلا كاملا لهذه المقاربة لسببين على الأقل أولا لأن هذا التيار هو
الذي مارس في هذا القرن تأثيرا حاسما على تطور السيميائيات. وثانيا
لأن هذا التحليل يقدم لنا توجيهات ثمينة وأساسا نظريا من أجل
التفكير في العلامات غير اللسانية، على الرغم من أننا لا نستطيع
تطبيقه بشكل جاهز على الأنساق الأخرى للعلامات.

ولهذا السبب، فإن الفصل الرابع الذي يصف مجمل أنماط
الإنتاج وتأويل العلامات، سيتجاوز النموذج اللساني الذي ناقشناه في
الفصل الثالث. ولكنه يقوم بذلك باستعمال مفاهيم مصدرها هذا
النموذج. وهذا الفصل هو أقل تسامحا من المصول الثلاثة السابقة:
فهو يقدم مقاربة نظرية واحدة ووحيدة.

وحصصا الفصل الخامس للقضايا الفلسفية للعلامة. إنه الفصل
الأكثر تعقيدا، ولكنه لا يرمد لنصه أن يكون - ولن يكون - تاريخا

لفلسفة العلامة، إنه يتناول قضية أخرى. وربما سيبدو متسامح
كالفصول الثلاثة الأولى، ولكن ليس عبثاً أن ينتهي مع فلسفة
بيرس⁽⁵⁾، فإذا كنت قد تركت الكلمة الأخيرة لهذا السيميائي، فلاسي
أنوي أن أقترح على القارئ رأياً يتخذ شكل خاتمة.

وفي جميع الحالات فإن هذا الكتاب هو من طبيعة إحصائية
وتميمية. فهو لا يشكل عرضاً لنظرية موحدة، إلا أنه يتيح مسيلاً
متصاعداً: الفصل الثلاثة أسهل من الفصلين الرابع والخامس.

وقبل أن أعتم علي أن أقدم بعض الملاحظات، إن هذا الكتاب
يعالج مفهوم العلامة. والسيميائيات تقدم نفسها في أغلب الأحيان على
أساس أنها العلم الذي يدرس العلامات؛ ولكن هذه العلامات هي
المادة الأساس التي تستعملها كل الكائنات من أجل التواصل مع
كائنات أخرى استناداً إلى السيرة التي يؤسسها نسق إبلافي يطلق
عليه بيرس السميوز أو عملية التوليد السيميائي⁽⁶⁾. فلا يمكن أبداً أن
يكون هناك تواصل استناداً إلى علامات معزولة، وحتى في الحالة التي
نستعمل فيها علامة معزولة - كلمة، إشارة مرور، إيماءة يدوية - فربما
نستند إلى سياق (يمكن أن أقول / فطيرة/، ولكنني إذا نطقت هذه
الكلمة في مطعم، فهذا يعني / أعطي فطيرة/). إن العلامات تنظم
داخل أكوان السميوز في ملفوظات وإثباتات وأوامر وتساؤلات.
وتنظم الملفوظات في نعوص، أي ضمن خطاب. ويمكن القول
حيث لا وجود لسيميائيات للعلامة دون سيميائيات للخطاب. إن نظرية
للعلامة كوحدة معزولة ستكون عاجزة عن شرح الاستعمال العملي
للعلامات، ولهذا فإن تأسيس سيميائيات للفن هو تأسيس بالضرورة
لسيميائيات للخطاب والنص.

وعلى هذا الأساس، فإن حدود هذا الكتاب واضحة. وعلى

الفصل الأول

السرورة السيميائية

1.1. العلامة باعتبارها عنصرا داخل السرورة التواصلية

1.1.1. تستخدم العلامة من أجل نقل معلومات، ومن أجل قول شيء ما، أو الإشارة إلى شيء ما يعرفه شخص ما يريد أن يشاطره الآخر هذه المعرفة. إنها بذلك جزء من سرورة تواصلية من نوع

مصدر - باث - قناة - إرسالية - مرسل إليه

إن هذه الخطاطة تستعيد بشكل مبسط تلك التي يطورها مهندسو الاتصالات عندما استشعروا ضرورة تحديد الشروط الأساسية لتبليغ معلومات. وفي جميع الحالات، فإن هذه الخطاطة تصدق على مجموعة كبيرة من السرورات التواصلية. ولنفترض مثلا أن زلزالا دمر الفلبينيين، وأن مراسلا محليا لجريدة نقل هذا الخبر عبر التلوكس، إن الحدث الذي وقع في الفلبين سيكون هو المصدر، وسيكون المرسل هو الباث، ونظام التلوكس سيكون هو القناة، أما المعبر فيشكل الإرسالية، في حين يعد المحرر الذي يتلقى الخبر مرصلا إليه.

سنترك جانبا هنا بعض التعقيدات التقنية (هناك إشارة كهربائية وآلة للث، وأخرى للاستقبال) وكذلك إمكانات تبسيط النموذج (في حالة الكاتب فإن المصدر والباث شخص واحد). وسنترك جانبا أيضا

كون الزلزال والنبأ المقروء في جريدة ما يستدعيان عددا كبيرا من
السيرورات (المراسل - المحرر - المحرر المدير - المدير -
المصنف، الطابع الخ وانتهاء بقارئ الجريدة).

2.1.1. إن الإرسالية، في التصور الذي تبينناه، تعاد
العلامة. فالإرسالية يمكن أن تكون متكونة من التنظيم المعقد لمجموعة
من العلامات (وهذا ما يحدث في جميع الحالات). ولكنا سأخذ في
الاعتبار سرورية إبلاغة شديدة البساطة. مثال ذلك إذا ما رفعت عقبرني
بالصراخ / سأني حالا / استجابة لنداء صديقي، فإني أكون في هذه
الحالة باثا، وهذا الباث يمتزج مع المصدر، أما البيرة التي صاحبت
صراعي فلأنها تشكل الفناة، و/ سأني حالا / تشكل الإرسالية التي
تتطابق هذه المرة مع ما يمكن اعتباره علامة معزولة.

من الواضح أن الخطاطة المقترحة هي خطاطة مبسطة جدا، كما
سبق أن أشرنا إلى ذلك. فهي لا تجيب عن قضايا من نوع: هل تشكل
الإرسالية البث الصوتي ذاته أم مدلول هذا البث؟ هل تشكل الإرسالية
من كلمات مكتوبة أم تتشكل من كلمات يمكن قراءتها بصوت مرتفع
ويُنظر إليها باعتبارها باثا صوتيا لا آثارا للكتابة؟ سنتطرق إلى هذه
القضايا في فصل آت من هذا الكتاب.

3.1.1. علينا في جميع الحالات أن نضيف شيئا آخر إلى
خطاطتنا: إن صديقي لن يفهم العلامة / سأني حالا / إلا إذا كان يتكلم
العربية. أما إذا كان يجهلها، فإنه لن يدرك من العلامة سوى كيان
صوتي لا شكل له ولن يستوعب دلالتها. وبما عليه، يجب أن يتوفر
الباث والملقي على متن مشترك، والستن في هذه الحالة هو مجموعة
من القواعد التي تمكنا من إعطاء معنى للعلامة.
بالحاجتنا على هذا الشرط نكون قد انتقلنا إلى جهة نظر أخرى:

وضعيفة وغير تامة وعرضية.

والطامع المضاف والناقص والعرضي والمتناقص للأسنن لا يطل تعريف العلامة: ففي أسوأ الحالات يجعل الدلالة عامضة، ويجعل إبلاغها أمرا صعبا. سيكون الإبلاغ صعبا لا لأن العلامات لا شتمل باعتبارها كذلك، بل لأنها عندما تتعرف على العلامات تكون السنن الخاصة بهذه العلامات ضعيفة.

4.1.1. إن السيرة الإبلاغية التي لا تستند إلى سنن وخالية من كل دلالة ستكون مجرد مثير-إستجابة. والمثيرات ليست كافية لمنع العلامة أبسط التعريفات، فهذه التعريفات تختصر العلامة في شيء يوضع محل شيء آخر، إن المثير لا يعوض شيئا آخر، ولكنه يشير هذا الشيء بشكل مباشر. والضوء القوي الذي يجبرني على إغماض عيني مختلف عن أمر يجبرني على إغماضهما. ففي الحالة الأولى أغمض عيني دون تفكير، أما في الثانية علي أن أهتم الأمر أولا، أي أن أنت التسنين (سيرة سيميائية)، وبعد ذلك أقرر عصيان الأمر أو طاعته (سيرة إرادية تخرج من دائرة الأهلية السيميائية). وبهذا المعنى، فإن ريس الجرس الذي يفقد كلب بافلوف إلى إخراج لعابه هو مثير وللضجيج نص الأثر الذي يحدثه الطعام الذي ارتبط طوالت التجربة بالرنين. إلا أن هذا الجرس لم يوضع أبدا محل الطعام، وفي هذه الحالة نتحدث عن الفعل المنعكس الشرطي. أما حالة الكائن الإنساني الذي قد يكون فهم أن رنين الجرس يسبق حضور الطعام، فهي من طبيعة أخرى: إن الرنين سيكون في هذه الحالة أمانة على طعام أو على الدعوة إلى تناول «الحساء» في حالة الجرس العسكري، أي علامة مصطنعة لها نفس وضع الإعلان المكتوب. إن المتخصصين في سيميائيات الحيوانات (سبيوك 1968 - 1972) يعتقدون أن

الحيوانات أيضا يمكن أن تتخبط ضمن سيروية سيميائية. وفي هذه الحالة يقول إن رنين الجرس يعد عند الحيوان علامة إذا كان هذا الأخير ينصرف كالكلب الذي وردت حكايته في بكتة، فهذا الكلب كان إذا أراد الحصول على طعام يقصد معهد بافلوف ويطلق العنان للعبه، إلى أن يقوم «عالم نفس» بطق الجرس ويعطيه لقمة.

ولقد سبنا هذا المثال لكي نقول إن السيرويات السيميائية ليست كذلك، لا إذا كانت قابلة لسلوك السبيل المعاكس، كما هو الشأن مع كل السيرويات الفكرية (بياجي 1968)، فبالإمكان الانتقال من العلامة إلى مرجعها عندما نكون قادرين على العودة من جديد إلى العلامة. كلما كان هناك دحان كانت هناك نار، وأيضا كلما كانت هناك نار كان هناك دحان.

1.2. العلامة باعتبارها عنصرا داخل سيروية دلالية

1.2.1. إن وجهة النظر هذه، وهي وجهة نظر خاصة بتصنيف العلامات، لا تملك نفس بداهة وجهة النظر الأولى. ومثال الحضارات البدائية معروف في هذا المجال، وكذلك السلوك المشتق منها حيث التغيرات التي ستقدم لاحقا ليست واضحة على الإطلاق. وهذا ما ألمحنا إليه عندما قلنا إن الكلمات تشابه، في بعض لسياقات، مع الأشياء. إن هذا التمييز رغم حضوره في الفكر اليوناني، في حضوره الذهني عند أفلاطون وأرسطو، لم يكن واضحا بشكل صريح إلا مع الرواقيين. فهؤلاء ميزوا داخل كل سيروية سيميائية بين:

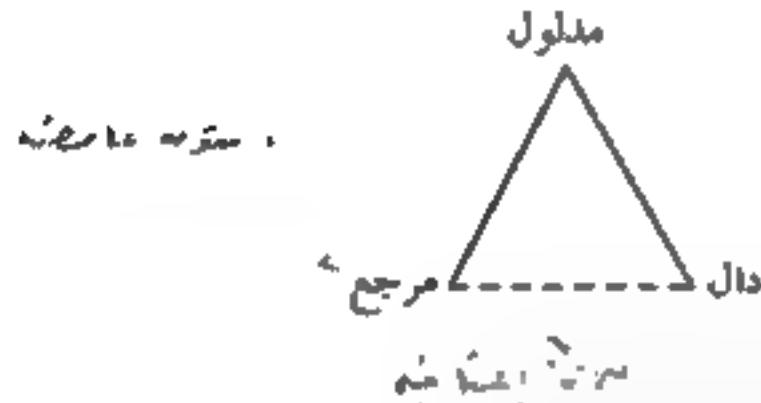
semainon أو الدال، أي التعبير بصفته كيانا ماديا.

semainomenon ما يتم التفسير عنه، أو المدلول، أو

المضمون، وهو ليس من طبيعة مادية.

tynchanon الموضوع الذي تحيل عليه العلامة، وهو من طبيعة مادية أو هو حدث أو فعل.

1.2.2. لقد عُبر عن هذا التمييز من خلال مفاهيم متنوعة عبر تاريخ الفلسفة واللغة واللسانيات. وستطلق من هذا التمييز فيما سيأتي لكي يقدم بشكل نهائي مفاهيمها الخاصة. ويمكن أن يمثل لهذه الخطاطة في المثلث التالي، وهو مثلث مشهور⁽¹⁾.



ولنأخذ مثال الفرس. إن الدال / فرس / لا معنى له عند رجل من الإسكيمو لا يعرف العربية (أي أنه لا يملك سنانا)، وإذا أردت أن أشرح له مدلول / فرس / سأقوم بترجمة الكلمة إلى لفته، أو أن أعطي تعريفا كافيا للفرس كما يقوم بذلك القاموس أو الموسوعة، أو أرسم على ورقة فرسا. وكما سنرى ذلك لاحقا، فإن كل هذه الحلول تهدف إلى إعطاء دوال أخرى عوض شرح المدلول الخاص بالمرس (دوال لفظية أو بصرية الخ نطلق عليها مؤولات للعلامة): وفي جميع الحالات فإن التجربة تعلمنا أن هذا الرجل سيصل إلى فهم ما تدل عليه كلمة / فرس /. قد يعتقد البعض أن فكرة أو مفهوما يكونان قد تبلورا في ذهن هذا الإسكيمو، وسيقول آخرون إننا أثرنا لديه «استعدادا للاستجابة»، وقد يمكنه هذا الاستعداد من استحضار حصار

والخرافات القروسطية⁽³⁾. ومع ذلك فإن المرجع قارن لم يوجد أبدا.
 3.2.1 إن الاعتراضات التي يمكن أن تقدم في هذا المجال تتجاوز الحس السليم، لذلك فإننا نتركها الآن جانبا، ويمكنني تقديم صبعة جديدة للمثلث نصع على أضلاعه مجموعة من المفولات. لني استعملت من أجل التصنيف :



وكما هو واضح، فإن الحس السليم - الشيء الذي يتقاسمه الناس جميعا - يتفق مع التوزيع الثلاثي، ولا يستعمل نفس المفاهيم. فالبعض ذهب إلى حد اعتبار / الملول / مرجعا، واعتبر / المعنى / ما نطلق عليه نحن الملول. ومثلا فإن bedeutung عند فريجه ترجع إلى

«مدلول» أو «معنى» عند البعض، وترجم إلى مرجعية عند البعض الآخر. إن هذه الاختلافات قد تكون منهجية محضاً، وقد نخفي أحياناً أخرى اختلافات حقيقية في المنطلقات. إن مناقشة اختيار كل هذه مصائد معناه كتابة تاريخ شامل وواسع وسجالي لعلم الدلالة. ولهذا فإساً في الصفحات الآتية لن تناقش سوى بعض هذه القضايا. إلا أن هناك أمراً محيراً على كل حال: ما هو مضمون العلامة داخل هذا تصنيف؟ هل هو ما يوجد على يسار المثلث؟ فإذا بقينا في حدود تصور سوسير، فإننا سنقول إن العلامة هي كيان بوجهين تتكون من دان ومدلول (للمرجع الذي يوجد في يسار المثلث لا موقع له في المسايات). إلا أن موقف سوسير أعمق بكثير من هذا. وبالإضافة إلى هذا، فإن يحيل الدال (كما سنرى لاحقاً) على مدلولات متعددة، فإن هذا معناه أن الوحدة المفترضة التي هي العلامة تتحول إلى كيان بالغ التعقيد، وتنحل داخل شبكة من الترابطات المنعقدة باستمرار. ومن جهة ثانية فإن /العلامة/، داخل الحطاب الفلسفي ذاته، تستعمل في الغالب «لأهم كمرادف لـ «الدال»، أي «كشيء يحل محل شيء آخر». وبناء عليه، فإننا إذا لم نحدد بالتدقيق معنى العلامة، فإساً سنستعمل كلمة «علامة» كمرادف للدال. ولسنا مصطرين، نظرياً، لاستعمال لفظ «علامة»، نظراً لعمومه وطابعه المضلل. إلا أن التعريف الذي يقدمه الفوموس، والذي لا يقوم إلا باستعادة الفموض المرافق للاستعمال الاعادي لهذه الكلمة، يوحي أن وراء هذا الفموض متواليات سيميائية نطلق عليها اسم /علامة/.

3.1. ثلاث نظرات في تصور العلامة: الدلالة والتركيب والتداول

لقد اقترح موريس (1946) ثلاثة مسل في التعامل مع العلامة،

وهو تمييز كان له صدى كبير في الأوساط العلمية. فالعلامة يمكن النظر إليها من خلال ثلاثة أبعاد :

- البعد الدلالي: ينظر إلى العلامة في هذا المجال باعتبار علاقتها بما تدل عليه.

- بعد تركيبى: ينظر إلى العلامة باعتبار قدرتها على الانصواء داخل مقاطع من علامات أخرى وفق قواعد تأليفية بعينها، ومعنى به التركيب أيضا دراسة البنية الداخلية للوجه الدال للعلامة في استقلال عن المدلول الذي تحيل عليه العلامة حتى في الحالة التي نعرض فيها أن العلامة لا تشتمل على أي مدلول (مثلا تفكيك العلامة إلى وحدات صوتية دنيا).

- البعد التداولي: إن العلامة في هذه الحالة تتحدد من خلال وظيفتها الأصلية والآثار التي تحدثها عند المتلقين، أي الطريقة التي يستعمل من خلالها المتلقي هذه العلامة.

4.1. الوحدة السيميائية الدنيا

1.4.1. يبدو أنه من الصعب تحديد محتوى الوحدة الدنيا داخل العلامة، فنحن نقول إن ما نطلق عليه «كلمات» هي علامات، والحروف التي تتشكل منها الأبجدية هي أيضا علامات: وفي هذه الحالة هل يمكن أن نرى في الأصوات التي تحيل عليها الحروف علامات؟ فإذا كنا نعتبر نقطة أو خطا منحيا علامة، فهل تشكل لوحة التصوير (تشكل هذه اللوحة من منحنيات بنقطة مركزية واحدة) علامة واحدة أو تأليفا لعلامات متعددة؟ وماذا تعني الدوائر المتحدة إذا نظر إلي كل دائرة على حدة؟ وإذا كان اللفظ / علامة / هو علامة فماذا يمكن أن نقول عن العبارة التالية: / علامة الصليب /؟ وأبصا إذا كان

لتعبر التالي / هنا/ يعد علامة تدل تقريبا على ما يلي : «المكان الذي أوجد فيه»؟ إن الأمر يتعلق بحالة من يتكلم، أما عند الذي يستمع، فإن العبارة تحيل لديه على «المكان الذي يوجد فيه الذي يتكلم». ومن نفس المنظور سأفهمها أنا إذا تحركت قليلا لأنفذ أمرا. وفي النهاية ألا يمكن اعتبار هذه العبارة علامة وحيدة، بما أن العلامة هي لتعريف (3)، يمكن أن تترجم من خلال علامة واحدة في التعريف (4) أي من خلال إيماءة؟

1. 4. 2. لقد تنبه النحويون القدامى إلى هذا المشكل. فآرسطو

مثلا يميز بين :

onoma أي العلامة التي تدل حرفيا على شيء ما مثل / فيلون/

أو / باخرة/.

rema علامة تستدعي مرجعية زمنية مثل / هو (أو يكون) في

صححة جيدة / (فالخبير هو دائما onoma في حين أن onoma ليست بالضرورة rema).⁽⁴⁾

- اللوغوس أو العلامة المركبة التي تتخذ حجم خطاب بأكمله.

1. 4. 3. وقد سبق لآرسطو أن كشف، بالإضافة إلى هذا

التمييز (وهو تمييز نعثر عليه في كتبه: «في التأويل» و «فن الشعر» و

«البلاغة»)، عن وجود ما يسميه بالروابط التي تتطابق تقريبا مع الحرف

والجملية، ومجموعة من الأدوات والظروف، وكل علامة يكون فيها

المدلول غير مستقل ويتم الكشف عنه من خلال السياق (أنا لا أعرف

على ماذا تدل /à/ [أو الحرف «في»] ما عدا أنني أراها منضوية داخل

عبارات من قبيل /je vais à la maison/، / donne cette chose à /

untel/ أو /mettre à feu et à sang/. ولقد أشار الرواقيون أيضا

إلى هذه الملاحظات، كما أشار إليها من بعدهم نحويو القرون

الوسطى بشكل جلي، فهؤلاء ميزوا بين العلامات التابعة تركيبيا (categorématique) والعلامات الضوابط (syncatégorématique) :
 ففي هذا التصنيف تعد الكلمة / منزل / تابعا تركيبيا (كما هو الحال مع الفعل (/aller/) في حين أن /ة/ هي ضابط. وهذا التعريف لا ينطبق على العلامات اللسانية فحسب بل ينطبق أيضا على الأدوات المصطنعة/ الرياضية (من قبيل : + ، x).

4.4.1. ولا فائدة من إضافة أن المحوطين اليونان قد حددوا أيضا علامات دالة على الإعراب، فالإعراب يضيف دائما مدلولاً إلى الكلمة. ففي اللاتينية تعد الكلمة /lupus/ علامة عرفية أي onoma، إلا أن اللاحقتين /us/ و /i/ هي أيضا علامات. إنها تسمح لنا بتحديد ما إذا كنت أبا المنهمك في إنجاز فعل ما، أم اللبث هو الذي يقوم بذلك.

مرمر ب

4.4.2. إن هذه التقسيمات العرفية موجودة في التصنيفات التي قدمها موريس (انظر المقرة 2 . 9). وليكتف الآن بتسجيل أن القدماء أنفسهم سبق أن تحدثوا عن وضع الوحدة السيميائية الدنيا، وخلصوا إلى نفس النتائج معتبرين كل هذه العناصر علامات، بشكل من الأشكال.

ويمكن الموقف السليم تجاه هذه المشاكل في الاعتراف بوجود علامات بسيطة وأخرى مركبة. فالعلامات المركبة هي تلك التي تتكون من مجموعة من العلامات البسيطة، إلا أن القضية متظل مفتوحة حول ما إذا كان مدلول علامة مركبة هو مجرد تجميع لمدلولات العلامات التي تكونه.

مرمر ب

مرمر ب

مرمر ب

مرمر ب

ولقد حاول بيومنى التدقيق في هذه التميزات عندما تحدث عن علامات وعن وحدات. فالوحدة الحاملة لمدلول ما تعد معنما، أي

- التصديق أي قضية من نوع / مقراط فان.

- المحجة التي تشكل برهنة معقدة من نوع القياس المنطقي.

إنه لمن الجراءة بمكان أن نعتبر علامة ما خطابا في كليته كما هو الشأن مع القياس المنطقي، ولكن الأمر لن يكون كذلك، أو على الأقل في ظروف بعينها، إذا ما نظرنا إلى التصديق باعتباره علامة وحيدة: مثلا علامة بصرية كصورة فوتوغرافية لرجل لها وظيفة دلالية موحدة (إنها تمثل فلانا)، ويمكن أن تترجم في الوقت نفسه إلى العاط داخل جملة من نوع: «فلان له نظارات ومعطف أسود وهو الآن يتسّم» الخ. وفي مكان آخر اعتقد بيرس، وهو يعرف العلامة السببية من النوع الاعتيادي (التي يطلق عليها الرمز)، أن الرمز يمكن أن يكون كلمة أو كتابا بأكمله.

ولكي لا موسع من دائرة العلامة، فإننا ستميز في الصفحات الآتية (إلا إذا أشرنا إلى عكس ذلك صراحة) بين العلامات - البسيطة والمركبة - وبين الملفوظات. إن الكلمة: / فنجان/ علامة بسيطة، أما الجملة: / فنجان قهوة/، فإنها علامة مركبة. ويقول المناطقة إن العلامة الأولى هي اسم، أما الثانية فهي وصف، ولا يشكلان معا إثباتات لوقائع يمكن أن تكون صحيحة أو خاطئة، ولكنهما يعبران فقط شيئا ما. وبالمقابل فإن الجملة: / هذا الفنجان مكسور/ تشكل ملفوظ يتكون من عدة علامات، إنه ملفوظ يشير إلى شيء صحيح أو خاطئ. وفي هذا الاتجاه، فإن كتابا ما، يحتوي على إثباتات لا حصر لها، لا يمكن اعتباره رمزا (كما اعتقد ذلك بيرس) إلا تجاوزا. إنه يتشكل من تسلسل كبير من العلامات المؤلفة فيما بينها بطرق متعددة.

الهوامش

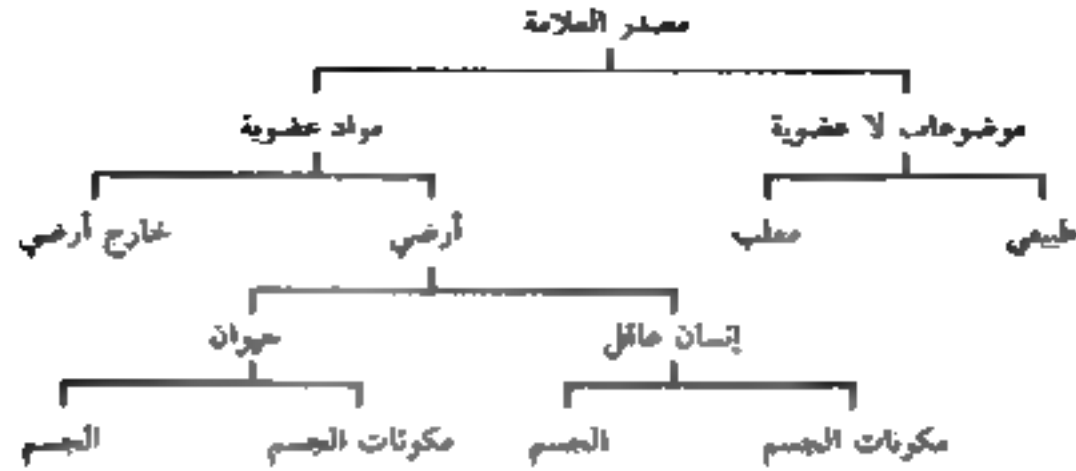
- (1) عرف هذا المثلث تقليدياً باسم مثلث أوغدن وريتشاردز. وفي كتاب (نظرية في السماء)، يقاربه ليكوه في سياق ما يسمّيه بالمخالطة المرجعية، بمثلثين آخرين لبيرس وفريضة. وسيعود هنا في الفقرة التالية إلى اعتباره موجوداً ضمناً في أية عملية تصنيف سيميائي يقوم بها باحث - (س.غ.)
- (2) الدال هنا هو علامة لعوية، أو صورة صوتية كما يعبر دي سوسير، أما المدلول، وتلك هي النقطة الجوهرية، فربما يشير إلى المرجع الخارجي. وهذه هي المخالطة المرجعية، أو يشير إلى التصور المكروي. ولذلك يعطيه ليكوه هنا القيمة الرمزية المجهولة «س». وقد اعتبر دي سوسير العلاقة بين الدال والمدلول اعتباطية، وأشار إليها أوغدن وريتشاردز في مثلثهما بصورة خط منقطع - (س.غ.).
- (3) وحتى لو لم توجد «العتقاء»، كطائر حرافي ومرجع، فإن الدال / العتقاء / موجود ومستعمل كدلالة لعوية - (س.غ.).
- (4) يتابع أرسطو أفلاطون، في محاولة «فراطيلوس»، في تمييزه بين الاسم، وهو القول الدال على شيء مجرداً عن الزمان، والفعل، وهو القول الدال على حدث في الزمان. ونقع الأفعال المساعدة وأعمال الكينونة تحت مقولة الفعل. ومعروف أن العربية لا توجد فيها أعمال كينونة ولذلك تقرر بصيغة (هو) أو (يكون) - (س.غ.).

الفصل الثاني

تصنيف العلامات

1.2. المعيار الأول في تصنيف العلامات: مصدر العلامة

حاولت التيارات الحديثة في السيميائيات أن تدرج ضمن موضوع دراستها كل أنواع الإشارات التواصلية التي يستقبلها الإنسان من الكائنات الأخرى، بل من المواد اللاعضوية أيضا: وهكذا سصنف ضمن العلامات كل شيء، بما في ذلك المعلومات التي تمنح للشفرة الجينية والتواصلات المحتملة بين الخلايا. وضمن هذا لنشاط تدخل سيميائية التواصل الحيواني (*zoosemiouque* سيبيوك 1968)، (حاول سيبيوك أن يرصد كل الأساط التي يقوم عليها هذا لتواصل بما فيها الكيميائي والشمي)، والسيميائيات الداخلية التي تدرس التواصل داخل الجسم الإنساني أو الحيواني. ولن ندرس كل هذه القضايا في الصفحات الآتية، بل سنكتفي بدراسة ما يتعلق بتصنيف العلامات التي يُنظر إليها باعتبارها تتمتع بهذا الوضع، وهي العلامات التي تلعب دورا في العلاقات الإنسابية ومع ذلك لا بأس أن نتعرف على التصنيف الذي يقترحه سيبيوك:



2.2. دلالة والاستفقاچ

2.2.1. هناك تمييز قديم يفصل العلامات الاصطناعية عن العلامات الطبيعية. الأولى ينتجها كائن ما (إنسان أو حيوان) بشكل واع استنادا إلى أعراف بعينها من أجل تبليغ شيء ما إلى شخص ما (وهو ما يصدق على الكلمات والرموز الطباعية والرسوم ونوتات الموسيقى الخ). ولهذا فإن هذه العلامات مرتبطة دائما بمصدر ما. في حين أن العلامات الثابتة ليست من إنتاج أحد، وهي غير قصدية ومصدرها الطبيعة، ونحن من يقوم بتأويلها كأعراض أو قرائن (مثل المراقع على جسم الإنسان التي تمكن الطبيب من تشخيص بعض الاضطرابات الكبدية، أو صوت أقدام متدرة بقدم شخص ما، أو الغيوم التي تعلن عن قرب هطول الأمطار الخ). ومع ذلك فإننا نطلق أيضا على العلامات الطبيعية صفة التعبيرية عندما تتحول إلى أعراض نحدثنا عن الاستعدادات النفسية، من قبيل العلامات اللاإرادية الدالة على الفرح: وعلى الرغم من ذلك فإن إمكانية التظاهر تشير بما فيه الكفاية إلى أن العلامات التعبيرية ذاتها هي عنصر داخل لعبة اتحدت طابعا اجتماعيا، وهي بذلك قابلة للتحليل والاستعمال بهذه الصفة

2.2.2 أما العلامات الطبيعية الأصلية فأمرها مختلف. فقد صممها باحثون كثيرون ضمن العلامات، إلا أن باحثين آخرين (بيوسر وسيغر 1970) رغم اعترافهما بوجودها، رفضا أن يمنحها وضع علامة. وهناك موقف مخالف عبر عنه غريماص (1968) من خلال حديثه عن سيميائيات للعالم الطبيعي. فقد ألح على أن كل حدث من طبيعة مادية - العلامة الطقسية، طريقة المشي الخ - هو ظاهرة دلالية نزول من خلالها الكون، استنادا إلى تجارب سابقة علمتا قراءة هذه الأحداث باعتبارها عناصر تكشف عن شيء ما.

3.2.2. فإذا قبلنا التعريف الذي يقدمه بيوسر للعلامة (والعلامة عنده أداة يستخدمها الإنسان من أجل تبليغ حالة وهي إلى كائن إنساني آخر)، فلن يكون من باب الاستعارة أن نطلق اسم علامة على أمانة تصدر عن إنسان بشكل لا إرادي، أو الأثر الذي تتركه لكأس على الطاولة. ولكن ليس من الصدفة أيضا أن نتحدث اللغة اليومية عن العلامة في الحالتين معا. ونحرم بفضل أن نقول، كما فعل ذلك موريس، إن «الشيء» لن يكون علامة إلا إذا تم تأويله باعتباره علامة عن شيء من لدن مؤول، وتبعا لذلك، «إن السيميائيات لا تهتم بدراسة نوع خاص من الموضوعات، بل تهتم بالموضوعات لعادية في حدود (وفي هذه الحدود فقط) اندراجها ضمن فعل تدللي» (1938 ترجمة فرنسية 1974: 17).

4.2.2. إن المعارض على هذه المواقف قد يأخذ علينا أننا نعتبر علامة كل ظاهرة نستنتج منها ظاهرة أخرى لا أقل ولا أكثر. والحال أن الاستنتاج سيروية منطقية-فكرية ولا يشكل بالضرورة ظاهرة بلاغية. فتأمل الأمثلة التالية:

«علي الذهاب إلى محطة القطار لانتظار صديقي»

الفرضية الأولى : أرى صديقا آخر ينزل من القطار، ويقول لي :
«فلان في العربة الموالية، وأعتقد أنه سينزل بعد لحظات». في هذه
الفرضية هاك علامات لسانية حقيقية تحل محل إدراكي الخاص.
الفرضية الثانية : لقد قال لي صديقي : «عند وصولي سألوح من
الساحة بجريدة لوموند». رأيت الجريدة وعلمت أن صديقي في القطار
إن الجريدة قد لا تكون سوى عرض، ولكن في حالتنا هاه، فإن
التلويح بها هو نتاج عرف صريح.

الفرضية الثالثة : رأيت حملا يخرج من القطار وفي يده حقيبة
جلدية روسية الصنع مغطاة بعلامات تعود إلى فنادق شرقية، ومن هذه
صديقي أن يحمل معه هذه الحقيبة في أسفاره. عندها سأؤكد من
حضور صديقي رغم أنه لم ينزل من القطار بعد. إن الحقيبة هي مؤشر،
أربط بينها وبين صديقي نتيجة تجربة سابقة، ذات بعد اجتماعي واسع
لدرجة أنها أصبحت مرحلة في الأوساط التي أعيش داخلها. «فلان هو
الشخص الوحيد الذي له الشعاعة في أن يسافر وفي يده حقيبة من هذا
النوع».

الفرضية الرابعة. رأيت زوجة صديقي تنزل من القطار. وبما
أنهما يسافران دائما معاً، استنتجت أن صديقي لا بد وأن يكون في
القطار هو أيضا.

إن الحالة الأخيرة حالة بالغة الإزعاج. وبكل تدقيق، فإن زوجة
صديقي لا يمكن أن تكون علامة. ومن الواضح أنني استعملتها كما لو
أنها «مؤشر» على سمة عرض، وبصفة عامة فهي شيء أدركه وأستنتج
من وجوده استنباطات وإشارات حول شيء غائب هي مرتبطه به» (إن
هذا التعريف يتطابق مع التصور رقم 1 من قاموسا المودجي). إلا أن
المشكل هو كالتالي : إذا دعنا بالتصور الذي يملكه عن «المؤشر» إلى

• ومثل المعجزة، رخصته، (مردمان) وجود سن.

حدوده القصوى، فهل سيكون من المعقول أن يعتبر هذه المؤشرات علامات؟

إن القضية لا تعود إلى طبيعة المؤشر (دخان، آثار، امرأة من لحم ودم) بل تعود إلى قوة العلاقة العرفية القائمة بين صديقي وروحه، كما هو الحال مع الحقيقة. وبعبارة أخرى، فإن وضع العلامة رهين بوجود سن.

2.2 5 ويمكن في جميع الحالات أن نقدم بعض التعاريف لني صاعها بعض المفكرين القداماء؛ وهذه التعاريف هي التي نتيح لنا إدراج طواهر الاستنتاج ذاتها ضمن الحقل السيميائي. ولناخذ كمثال على ذلك تصور هوبز الذي معاده. «إن العلامة هي السابق الصريح لللاحق، ولاحق السابق هو كذلك عندما تكون هناك نتائج مشابهة تمت ملاحظتها، وكلما قلت ملاحظة هذه النتائج تم التشكيك في وجود العلامة» (Leviathan, I,3) ولأحد تلك الجملة التي وردت عند وورف الذي يعتبر العلامة: «كانا نستنتج منه حضور أو وجود السالف والأنني لكائن ما (ontologie, 952) ولن نتحدث عن الروافيين الذين عرفوا العلامة بأعشارها: «قضية تتكون من رابط صحيح وكاشفة عن رابط سابق» (Sextus Empiricus, Adversus Mathematicos, VIII, 245)

ومن هذه الراوية، فإن تعريف العلامة الأكثر شيوعاً هو التعريف الذي يقدمه قاموس الفلسفة لـ أباعنانو (dictionnaire de philosophie d'Abbagnano)، حيث تُعرف العلامة بأنها: «كل شيء أو حدث، يحصل على شيء ما أو حدث ما». إن هذا التعريف وهو التعريف الذي تسته الفلسفات القديمة والحديثة على حد سواء- هو تعريف بالغ العمومية، ويسمح بتضمين مقولة العلامة كل إمكانات الإحالة، ما

يتعلق مثلا بالسبب والنتيجة (والعكس صحيح)، الشرط والنتيجة (والعكس صحيح)، المثير الذي يستثير ذكريات، للكلمة ومملولها، إيماءة، الإشارة والشيء المشار إليه. من الأمانة أو العرض إلى وضع هذا المقام.

2.2.6. ويمكن أن نلاحظ أن هناك فرقا بين الانتقال من حالة السبب والنتيجة إلى حالة كلمة / فرس / وإحالتها على الممدلول «فرس». إن الحركة الأولى تتكون فيما يبدو من عمل مركب للعقل، في حين أن الثانية تتوفر على كل مظاهر الفعل المنعكس الشرطي. هناك فرق بين الاستنتاج والتداعي، إلى درجة أن المستعمل العادي للغة قد لا يفكر أبدا أن هناك فرقا بين / فرس / والممدلول الذي يحيل عليه الدال (وهو ما يبرر ما قاله سوسير من أن العلامة كيان بوجهين). وسنجيب عن هذه التساؤلات من خلال مثالين. ولنتأمل أداة لعوية لا أحد يحرمها من وضع علامة، ونعني بذلك المقوم البلاغي الذي هو المجاز. فإذا كنت، من أجل الحديث عن أسطول كريستوف كولومب أقول: «أشركة مكتشف أمريكا»، فمن الواضح أن الشينين المعينين في هذه العبارة يشار إليهما بطريقة غير مباشرة. ف / شراع / هو نوع خاص من المجاز الذي يعين الكل من خلال جزء من أجزائه / مكتشف أمريكا / هي كناية تعين شخصا من خلال فعل من أفعاله / (وهذا المحسن بعد أيضا كناية يشار إلى كولومب باعتباره مكتشف أمريكا بامتياز).⁽¹⁾

إن هاتين الصورتين تتكاملان وتضمنان دلاليتهما من رابط يجعلنا، بأقل جهد من التفكير، نمر من كيان إلى آخر مجاور، ونتمك من فهم «سفينة» في مكان «شراع» و«كولومب» بدل «المكتشف». فهل هذه السيرة مختلفة عن تلك التي تجعلني أنتقل من السبب إلى النتيجة؟

يمكن القول إن الصور البلاغية هي علامات باللغة التركيب،
ونسدعي جهدا ثانيا على عكس العلامات العادية مثل / فرس / التي
لا تستدعي جهدا خاصا للاستنتاج.

ولأخذ معنى كلمة «فرس» (cheval) بالفرنسية في السياق
التالي⁽²⁾: / cet aviateur est très à cheval sur les règlements du club هذا الريان متشدد في تطبيق القوانين في النادي .

و(celà ne l'a pas empêché de faire un cheval de bois hier)
هذا لم يمنعه بالأمس من صنع فرس من خشب)

في المثالين معا لا تعين كلمة /cheval/ أو /فرس/ العرس
الذي نعرفه. ومع ذلك لا يتعلق الأمر بمجرد صورة جناسية، كما
يحدث عندما نستعمل /son/ بمعنى «إحساس سمعي»، أو بالمعنى
الذي سنعمل به «النخالة». علي أن أقارن هذه العلامة بالعلامات
المندرجة ضمن نفس السياق لأختار منهما المعنى الممكن (انظر مثلا
8.3)، وأكون بذلك قد قمت بعملية أولية. ربما يكون المثال مبالغا
فيه، ومع ذلك بالإمكان أن تأتي بأمثلة أكثر تركيبا، حيث تكون العبارة
بالغة، لتعقيد ومتعددة الدلالات (يمكن أن نستحضر الألعاب الذهنية
من نوع الألغاز أو لعبة أو مك بعض الأحاجي التقنية.
وفي حالات من هذا النوع، فإن السيورة الدلالية تكون قريبة
جدا من الاستنتاج الذي يطلق عليه ييرس الافتراض (abduction).

3.2. المعيار الثالث: درجة الخصوصية السيميائية (أو: علامات يستعمل دالها لغايات غير سيميائية)

3.2. 1. لقد شهدنا التمييز السابق على وجود علامات طبيعية
وأخرى اصطلاحية، الأولى يمكن اعتبارها علامات لأننا يمكن أن

مؤولها باعتبارها كذلك على أساس وجود نسق من الأعراف. ولكننا إذا سلمنا بأن كل الأحداث الطبيعية يمكن تأويلها كعلامات، فهل يمكن أن نؤول كل الموضوعات الاصطناعية باعتبارها علامات؟ يمكن الاتفاق على أن الغاية من بعض هذه الموضوعات الاصطناعية هي غاية دلالية (وهي حالة الكلام ولوحات الإشارات المرورية)، وهناك موضوعات أخرى (وإن كانت اصطناعية بشكل كبير) لا يبدو أنها وصفت في مكان ما من أجل الإبلاغ (سيارة، شوكة، لباس، صبة). فسوسير لم يكن يفكر، وهو يبلور مشروع علمه العام الذي سيأخذ على عاتقه دراسة «حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية»، في العلامات غير اللسانية المنظور إليها كعلامات، من قبيل المنبهات العسكرية وأشكال الآداب وأبجدية الصم والبكم.

2. 3. 2. ومع ذلك فإن التيارات الحديثة للسيمياءيات تدرج ضمن أقسام العلامات كل المظاهر الثقافية للحياة الاجتماعية، بما في ذلك الموضوعات. «الوظيفة يتحللها المعنى، وهذا التدليل بالغ القوة، فبمجرد ما يكون هناك مجتمع يتحول كل استعمال إلى علامة لهذا الاستعمال: إن استعمال المعطف الواقى من المطر هو من أجل اتقاء المطر، إلا أن هذا المعطف لا يمكن فصله عن وضعية مناخية ومجتمع لا يتبع سوى الموضوعات المنظمة، وهذه الموضوعات هي تحقيقات لمادج، إنها كلمات لسان، مواد لشكل دال (مارش، 1946: 39).

ولقد أصبحت الوظيفة - علامة إحدى الثيمات الرئيسية في السيمياءيات المعاصرة. فالإبلاغ الحيزي (la prolexique) هذا (1966) يفسر لنا كيف يدل الاختلاف بين شخصين - مسافة محسوسة بالأمنار والمستمرات على موقف اجتماعي. وعلى هذا الأساس، فإن

العلامات
الاصطناعية
التي
تدور
حول
العلامات

سواء أثاث مكتب يتضمن مسافات معلودة (مثلا من خلال إجبار محثي على الجلوس بعيدا عني بمتر إلى ثلاثة أمتار) يشكل فعلا دالة إن المكتب يقول لي هل أنا تحدث مع المدير العام أم مع موظف بسيط.

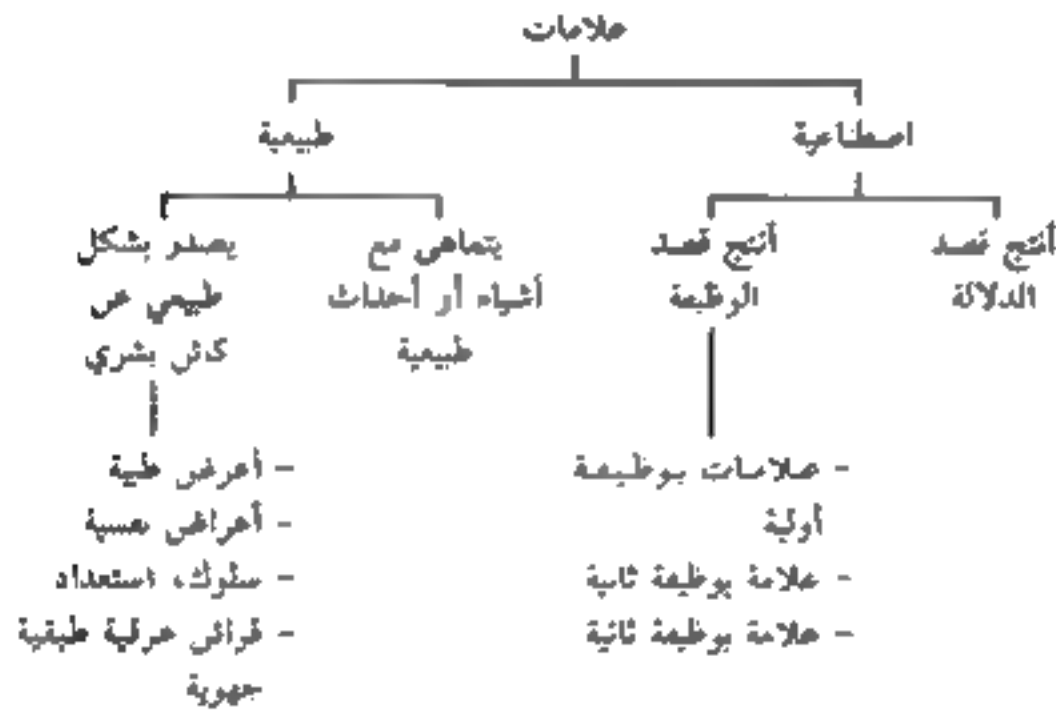
2.3.3. ولقد سلم الكثير من الباحثين بوجود سيميائيات موضوعات المجتمع الاستهلاكي (مولز 1969 - بودريار 1968). وتدرس الهندسة المعمارية حاليا باعتبارها نسقا تواصليا (إيكو 1968، دو فيسكو 1969، كويسغ 1970). فموضوع معروف (سلم أو باب) يدل عند البعض على الوظيفة التي سيقوم بها، ولكنه يحير في نفس الآن أن هذه الوظيفة لم تنجز بعد (إذا رأيت بابا مغلقا فإني، عوض أن اصطدم به، أقرر عدم الدخول).

وقد لوحظ في حالة الهندسة المعمارية، أن هذه الأخيرة يمكن أن تكون دالة من زاويتين (إيكو 1968): فالموضوع المعماري يحيل على وظيفة أولى (المرور، الجلوس الخروج، الدخول)، يمكن تأويلها باعتبارها دلالة غير قصدية بالمعنى الذي يعطى للعلامات الطبيعية، ذلك أن القصدية الأولى للذي يقوم بالتشيد هي إنجاز هذه الوظيفة، لا الدلالة عليها (ويمكن أن مشكك في هذا الرأي). وهي مرحلة ثانية، فإن الموضوع المعماري له دائما وظيفة ثانية. ومن هذه الرواية، فإن الخصائص السيميائية للموضوع شديدة الوضوح، كما هو الشأن مع السلم الذي يبنى باعتباره درابزين فخمة ومنحوتة، أو في حالة الكرسي الذي يرصع وتضخم بعض خصائصه كالمرصين والمند من أجل الإحالة على عظمة العرش (إلى درجة أن الكرسي يفقد وظيفته الأولى التي هي أداءه للجلوس). وفي بعض الحالات تأخذ الوظيفة الثانية أهمية تتجاوز تلك التي تقدمها الوظيفة الأولى وقد تلغيها.

ونفس الشيء يصدق على اللباس والسارات، وكل موضوعات

الاستعمال اليومي. فتوب الراهب له وظيفة أولية (إنه يعطي الحسم ويقيه من البرد)، إلا أن استعماله في المراسيم الدينية يمنحه وظائف ثانية: فهو يمكننا من التمييز بين راهب دومينيكي وآخر بسدكتي. ولباس راقصة البالي له وظائف أولية محدودة جدًا وربما سلبية (إنه يستخدم للإغواء كما للكشف)، إلا أنه يكشف عن وظائف ثانية مألوفة المعنى.

2. 3. 4. خلاصة الفقرتين السابقتين تقودنا إلى تصنيف جديد للعلامات.



١٧

4.2. المعيار الرابع: القصدية ودرجة وعي الباحث.

2. 4. 1. يمكن لشخص ما أن يكشف عن علامات دالة على محاولته الحربية (البزة العسكرية، السلاح، الفرس: فهذه العلامات هي وظائف وتستعمل كدلالة على وظائف ثانوية)، ولكن فانص الهرمونات الأنثوية عنه لا يكشف عنه بل يتم/ التعبير عنه أو تم خبائه/ ونفس الطريقة يمكن لشخص أن يدعي أنه سليل الباتاجيين، ويحكي لنا عن

حفلات العشاء التي حضرها في القصر البريطاني مستعملا في حديثه
11- رقيقة، مفيضة، الآخرة، لنا عن هذه العامة من خلال
نطق شعبي (انظر بيورنس 1943، 11-12). ولهذا السبب فإن هناك
من يميز بين علامات إبلاغية (منتجة قصديا قبل أن تكون أدوات
اصطناعية)، وعلامات تعبيرية (تنتج عفويا دون أن يكون هناك قصد
للإبلاغ)، ووحدهما العلامات الأولى تتمتع بتسعين (أي أن هناك قواعد
تقيم روابط عرفية بين الدال والمندلول). أما العلامات الثانية فلا يمكن
فهمها إلا من خلال الحلم، وهي بذلك بعيدة عن كل تسنين.

ومع ذلك يمكن أن نستحضر حالة الممثل الذي يقلد متخشا، أو
أرستقراطيا أو فصيحا أو رجل دين، لكي يتضح لنا أن هذه العلامات
مستنة بشكل من الأشكال: فبالإمكان إنتاجها قصديا كما لو كانت
أدوات اصطناعية العناية منها نقل معلومات، أي توصيل شيء ما. ومع
ذلك، فإن أشخاصا كثيرين في الحياة اليومية يتجون إشارات من هذا
النوع دون وعي منهم ليؤولها الآخرون بصفتها الإشارية تلك. وهذا ما
يسمح لنا بتصنيف الحوادث التي يظر إليها كعلامات ضمن حانة
الإشارات، من قبيل الأعراض الطيبة، حتى وإن كانت الوظيفة
الإبلاغية لهذه الأعراض قابلة للتزييف. وهذا ما يعرفه الشبان الذين
يبحثون عن إعاقة تعفيهم من التجنيد الإجباري.

ومع ذلك هناك واقعة مثيرة: عندما ينفذ صبري وتصدر عي
حركة مشبة، هناك من سبقراً هذه الحركة على أنها علامة على نفاد
الصبر.

2.4.2. إذا اعتبرنا أن العلامات تصدر عن اليات (أ) أو
المرسل إليه (ب) بشكل إرادي (+) أو لاإرادي (-)، وإذا اعتبرنا أن
لمتلقي يمكن أن يسند لليات قصدية ما (أب) بشكل إرادي أو

لاإرادي، فإننا سنحصل على سلسلة من التآليفات كما يبدو في
الخطاظة التالية-

أ	ب	أب
+	+	+
+	+	-
+	-	(+)
+	-	(-)
-	+	+
-	+	-
-	-	(+)
-	-	(-)

ورغم الوصف المجرد لهذه المصفوفة، فإن كل حالة من هذه
الحالات تتطابق مع مقام دلالي أو إبلاغي ممكن:

1 - ممثل يفقد مريضاً يشكو من التهاب المفاصل، ويعلم
المتخرج جيداً أن هناك تمثيلاً إرادياً لشخص مريض بالمفاصل.
2 - متظاهر يفقد شخصاً يشكو من ألم المفاصل، الضحية
يعتقد أنه مريض فعلاً بالتهاب المفاصل وهو يخون مرضه بشكل
لاإرادي.

3 - من أجل التخلص من شخص غير مرغوب فيه، أنقر
بأصابعي بشكل عصبي على الطاولة، وهذا الشخص لا يدرك فحوى
العلامة (ولذلك فإنه لا يدري هل أنني أقوم بهذا العمل بشكل إرادي
أم لا) ولكنه يحس بضيق ويعرف أن الوقت متأخر. هي الحالة التي
يتم فيها تأويل العلامات بشكل إرادي، يصعب فيها حسم ما إذا كان

فهمها بحسب أن يكون «لا إراديا» أو «يتم في مستوى لاشعوري». ولا تختلف هذه الحالة عن تلك التي أسمع فيها كلمة، دون أن أصغي إليها ولكنني لا أتجنب المثير الدلالي، والحال أنني لا أنأكد من معواها إلا بشكل متأخر. وهذه الحالة معروفة في التحليل النفسي. وبما عليه يمكن القول إن الطابع الإرادي للتلقي، وهو أمر بالغ الأهمية في علم النفس، لا تأثير له على تعريف العلامة بصفتها تلك ما دامت العلامة هنا من أجل الدلالة على شيء بعينه. وهذا التصور لا يستبعد أن يكون الشخص غير المرغوب فيه الذي تحدثنا عنه سابقا سيدرك لاحقا أنه تلقى إرسالية وسيؤول ذلك باعتباره أمرا إراديا.

4- إن هذه الحالة شبيهة بالحالة السابقة، إذا أخذنا بعين الاعتبار ما يلي: بما أن المرسل إليه لا يتلقى بشكل إرادي الإرسالية، فإنه لن يتساءل عن قصديتي (إلا إذا صدرت عني لاحقا بشكل لا إرادي بعض الأعراض الخاصة بنفاذ الصبر).

5- وأنا أتحدث إلى هذا الشخص عبر المرغوب فيه، لا أعني أبي أخون صبري وأنا أنقر على الطاولة بأصابعي. ومع ذلك، فإن هذا لشخص سيدرك إرسالتي، وسيعرف أن الأمر مقصود ويصرف بعد ذلك. إما في وضعية عرضية (مدلول يربط بحدث). هذا إذا استثنينا أن المحاطب قد يتعرف على قصدي لا وجود لها.

6- تصدر عن المريض الممدد على سرير المحلل النفسي فكرة ما، يقوم المحلل بتأويل هذه الفكرة باعتبارها علامة لها مدلول (التجربة هي التي تسمح للمحلل النفسي السنن: يمكن لهذا السنن أن يسمح بمدلولات عديدة لدال واحد، إلا أن المحلل سيفك تسيته امتثادا إلى مرجعية سياقية)، مع علمه أن المريض لم يكن يود التعبير عن هذه دلالة وهناك حالة أخرى خاصة بالتحليل النفسي أيضا، وهي حالة

تحص المريض الذي يحكي حلمًا، وهو يعتقد أن هذا الحلم له دلالة ما، في حين يؤوله المحلل باعتباره علامة على وضعية أخرى فإذا استعدنا خطأ اليات، فإن هذه الوضعية شبيهة بالوضعية السابقة، فالعلامة في هذه الحالة أيضا يمكن أن تكون متعددة المعاني وتأويلها مرتبط بالسياق، بحيث إن المحلل يقوم بنفس العمل الذي يقوم به الهرمسي. وفي حقيقة الأمر فإن تخصصه يسمح سُنًا قادرة على ترفع مختلف الحالات الغامضة، وتكون هذه السُن دقيقة لتمككه من استيعابها جميعا. فقد يحدث أن يستعمل شخص ما رمزا ومع ذلك لا يعي مدلوله. فإذا تركنا جانبا الحالات التي لا يشتغل فيها شيء ما كعلامة ضد الشخص الذي ينتج هذا الشيء، بل يكون علامة تعبيرية عند شخص آخر لا يقوم سوى بتأويله، فقد يحدث أن الشخص الذي يشتغل عنده الشيء كعلامة فلا يعي أن الأمر يتعلق بعلامة، ولا يدل على أنه علامة، وليس مقدوره أن يقدم أية دلالة تخص هذه العلامة. ومن المقبول في حالات مثل هاته القول إن للعلامة مدلولًا، ولكن «الشخص لا يعرف» ذلك، وأن تعابير من قبيل «علامة لاواعية»، أو «مدلول لا شعوري» أو «سيرورة ذهنية لاواعية» يمكن تأويلها بشكل فضفاض. إن ما قامت به الفرويدية بكس في اقتراح نظرية حول الأسباب التي تجعل شخصا ما عاجزا عن صياغة دلالات لبعض العلامات الصادرة عنه هو نفسه، ويرفض في الآن نفسه أن يكون هو صاحب هذه الصياغات أو شخص آخر. فالرموز الفرويدية هي بالأساس أيقونات وهي قادرة بذلك على تعيين موضوعات تشبهها من بعض الجوانب فقط (إن حلم المرء بأنه يحلق في السماء يرمز إلى القصيب المتعصب، أما حلم شخص وهو مستلق على كتب مفضولة ويرمر إلى الأعضاء الجنسية النوية)، وتقدم لنا هذه الأيقونات حالة

٢٠٠٩

خاصة بالعلامات الاستعارية التي تتحقق كلما كانت هناك سيرورات نعوق تحرر الفرد، أو تجعل التعرف صعبا على أن ما تقدمه الدلالة الاستعارية للذات هو إشباع جرتي لرغبة لم تتحقق.

7 - هناك حالة شبيهة بالحالة التي قدمناها في 3. ففي حديثي مع شخص مرعج، يفقد صبري وأنقر على الطاولة، ليدرك الآخر الإشارة و يعادر المكان. بعد ذلك، سيدرك، وهو يستعيد أطوار الحوار، أنه فهم الإرسالية وأنها كانت قصصية. في الحالة 3 كان على حق، أما في هذه فهو محطئ.

8- حالة شبيهة بالحالة 4، أو بالحالة السابقة، مع اختلاف واحد هو أن الشخص المزعج وهو يفكر في الحوار سيعتقد أنني فقدت السيطرة على أعصابي بشكل لاإرادي ويؤول سلوكي باعتباره عرصا. في الحالة 4 يكون محطئا، أما هنا فهو على حق. ومع ذلك، فإن هذه النقطة يمكن أن تؤول تأويلا معبرا: أفقد أعصابي، يشعر الشخص المزعج بالضيق ويعادر المكان، ولن أدرك أي شيء الآن وبعده. إن وضعية من هذا النوع، وهي وضعية شائعة في العلاقات السيكلوجية اليومية، لا علاقة لها بخطاب حول العلامة، لأننا لا نعرف هل الأمر يتعلق بوضعية سببائية أم لا؟ وهل يتعلق الأمر فقط برابط بسيط بين مثير وجواب، أو حدث شيء ما يمكن للسيكلوجيا أن تهتم به ولا علاقة له بالسيميانيات.

إن العلاقات البينشخصية تنعدي باستمرار من هذا النوع من انتبادل الدلالي. ودليل جدوى هذه المصنوفة هو إمكانية استعمالها عن وعي من أجل ابتكار وضعيات درامية باللغة التنوع مبنية على المتعدد واللاهم. إنها وضعيات يمكن أن تدخل في هذا التأليف أو ذاك أو في كل التأليفات. وإذا قارنا بين هذه المصنوفة وبين كل مجموع

الكوميديات الملثيصة، فسنرى أنها توفر لنا جرذا شاملا لمختلف الوضعيات الدرامية -الكوميديّة، وهي تعبر بطريقة تحريده عن التوقعات الأساس التي تشيرها هذه الوضعيات في العلاقات الشخصية، سواء كان الفصل في ذلك يعود إلى طوبير أو أنطونيوي ويمكن الاطلاع في هذا الشأن على دراسات إرفين غوفمان (غوفمان 1963 - 1967) وهي دراسات تقع بين السيميائيات والسيكولوجية وعلم الاجتماع.

2.4.3. إذا تأملنا من جديد الحالة 2، اتضح لنا أن المتظاهر يوهما بوجود وضعية ما وأن الضحية تعتقد أن هذا المتظاهر يعاني بالفعل من النهايات المفاصل، من خلال منحه سلوكا لإراديا. ويمكن أيضا أن يقوم الممثل بتقليد هذا العرض لدفع المتفرج إلى تأويل هذا السلوك باعتباره محاولة إيهام، مع العلم أن هذا المتفرج يعتقد أن الممثل يعاني فعلا من النهايات المفاصل. ويمكن استخلاص أنه في مقابل القصدية التي يسمحها المرسل إليه إلى الباث، يجب إيجاد موقع للقصدية التي يريد الباث أن يسمحها بإيهام المرسل إليه (ق ب م). وستعقد المصنوفة وتأخذ الشكل التالي:

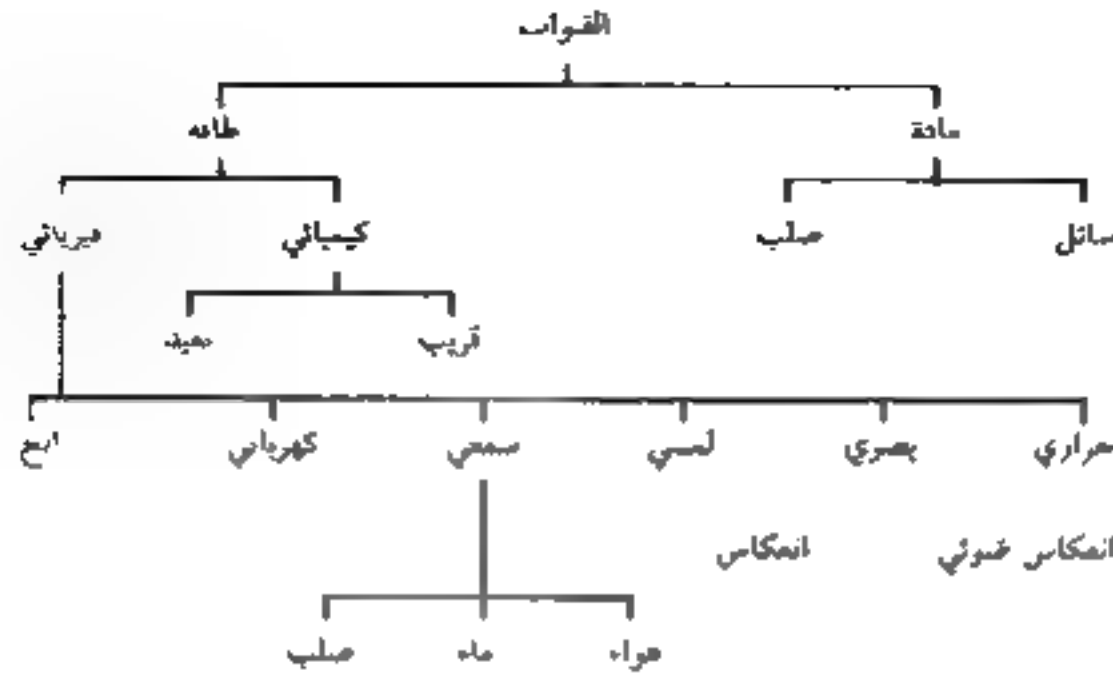
ق ب م	ب	م	ق ب
+	+	+	+
+	+	+	-

وهكذا دواليك. ويمكن أن نتصور تأليفات أخرى ممكنة مثلا +++ ستكون هي الخطاطة الخاصة بالمتظاهر الذي افتضح أمره، - ++ هي خطاطة المتظاهر الذي نجح في مهمته. ولكن حسنا من هذا النوع لا علاقة له بالقصدية الخاصة بالطابع الإرادي أو للإرادي

للمعلومات، فهو مشكل من طبيعة تداولية، أو مشكل يعود إلى سيميائيات التطاهر. بالفعل فنحن هنا في مواجهة القصدية التي يريد لنا أن يصدقها المرسل إليه، وهذا أمر يتعلق بالواقع العملي للمعلومات وطريقة استخدامها من لدن الباحث من أجل غايات إقناعية. إن الأمر إذن من طبيعة بلاغية، والبلاغة لا موقع لها في سيميائيات العلامة، بل تعود إلى سيميائيات الخطاب. ولهذا السبب يمكن القول إن هذا النوع من الروابط لا يغير من طبيعة العلامة، بل يخلص دائرة البحث ويجعله مفصلاً على العلامات الإرادية والاصطناعية: وفي هذه الحالة، فإن كل التأليعات من نوع ++-+ (تلك التي تحتوي على واحد - في موقع ثانوي) لا معنى لها، ذلك أنه إذا كان الباحث ينتج عرضاً لا إرادياً، فإنه لم يرغب في أن يبادر المتلقي ويمنح هذا العرض قصدية ما. وبطبيعة الحال، إذا كان هذا المشكل غير ملائم من أجل منح العلامة تعريفاً، فإنه كذلك في تعريف الخطاب الإقاعي كما هو الشأن مع الخطاب السياسي والديني والبلاغي في الصحافة والتلفزيون، أو التشكيك العاشق الخ. مثال ذلك الوضعية المعروفة تحت صيغة «الفائز في الحب هو الذي يهرب»، فهذه الصيغة تبنى وفق النموذج ++-+، وتحيل على التطاهر الناجح.

5.2. المعيار الخامس: القناة الطبيعية وجهاز الالتقاط الإنساني

5.2.1. لقد ركز سيوك، أكثر من أي شخص آخر، على تساق الإشارة الأكثر هامشية، ويطور في هذا المجال تصنيفاً موكباً مميز بين العلامات وفق العناية العادية التي تستخدم في بث هذه العلامات:



2.5.2. هناك مؤلفون آخرون يفضلون التمييز بين وسائل الإيصال والاكتمال بالقنوات الحسية، أي الطريقة التي يلتقط من خلالها الإنسان المعلومات. وفي هذه الحالة سنحصل على تصنيف يرتكز على الجهاز الفسيولوجي الذي يستخدمه المرسل الإنساني من أجل استقبال الإشارات الصادرة عن القنوات المحددة أعلاه ونحويلها إلى إرساليات:

- الشم: تعود إلى هذه الفئة مختلف الأعراض والأمراض (رائحة الطعام، كدليل على وجود الطعام) بعض المعلومات المصطنعة والفصدية (المطور التي تستعمل من أجل الإشارة إلى النقاء الجسدي والوضع الاجتماعي والامتداد الجنسي)، وكذلك الروائح التي تستخدمها الحيوانات من أجل الجذب أو الإقصاء (إنها المقابل للإيماءات الأمرية من نوع «عال هنا» أو «ابتعد من هنا»).
- اللمس: علامات أبجدية براي، تعود إيماءات الأصابع التي

يستعملها العميان والصم البكم من أجل التواصل إلى هذه الفئة من
العلامات.

- **الذوق:** كثيرا ما يشار إلى أن المطبخ هو وسيلة من وسائل
التواصل (ليفى شترواس 1964). فتكهة نوعية من الأطعمة يمكن أن
تكون أمانة على الهوية الوطنية للوجبة. بل أكثر هناك ما هو أكثر من
ذلك، لا شيء يمنع أن نستعمل في بعض المقامات المخصصة طعاما
حلوا أو مالحا، عذبا أو مرا من أجل توصيل إرسالية ما بشكل
قصدي.

- **البصر:** وتدخل ضمن هذه الفئة أنواع كثيرة من العلامات،
من الصور إلى حروف الأبجدية، ومن الرموز العلمية إلى البيانات.
- **السمع:** وتدخل ضمنها العلامات السمعية من جميع الأنواع
وأهمها على الإطلاق ما يعود إلى اللغة اللفظية.

2. 5. 3. ولقد لاحظ إريك بيومنس، الذي درس العلامات
وأطلق عليها اسم الوحدات، أن العلامات السمعية لها امتياز واضح،
لأنها لا تستدعي القرب من المصدر (كما هو الحال مع العلامات
اللمسية والذوقية)، ولا تشترط النور (كما هو الشأن مع العلامات
البصرية) وتتمتع بقدر كبير من الانفصال (على خلاف العلامات
الشمعية). وفي مرحلة ثانية تأتي العلامات البصرية، التي تمتلك القدرة
على الاستمرار في الوجود. فليس صدفة إذن إذا كانت الحضارة
تطورت باستعمالها أولا العلامات السمعية وبعد ذلك العلامات
البصرية. ولقد عرف السكولائيون السمع والبصر باعتبارهما أرقى
الحواس إطلاقا، وكان من الممكن أن يضيفوا الحواس الأكثر قدرة
على التواصل. ولقد لاحظ بعض المؤلفين (هال 1966) أن حياتنا
الاجتماعية قائمة في عصرنا الراهن على كمية كبيرة من العلامات لا

يعترف بوضعها كعلامات مثل العلامات الحرارية (نتعرف على الاستعدادات الانفعالية للشخص الذي يراقبه من خلال تعبيرات حرارة جسده)، والعلامات الشمية (ما يميز سلوك المواطن المتوسطي عن المواطن الأمريكي هو التوجه بالنفس أولاً نحو محاطه، الكشف عن الرائحة أو إخفاؤها أمر يتوقف عليه الانضمام إلى جماعه لهيبي أو إلى نادي خاص برجال الأعمال). وهناك العديد من المجتمعات السرية التي ابتكرت علامات للتعرف قد تكون لمسية أو بصرية. ومن جهة ثانية، هناك في الوحدات البصرية والسمعية مناطق لم تغم السيميائيات باستكشافها إلا في الفترة الأخيرة: لقد نظر القدماء إلى الإشارات المرسومة بقلم الرصاص والكلمات المنفصلة باعتبارها علامات، ولكنهم رفضوا أن تكون الإيماءات أو برة الصوت علامة.

أما في العصر الراهن فهناك تخصص علمي جديد هو الكنيريك (سيبيوك، باتسون، هابار 1964) وهو علم يصنف ويحلل عدد هائل من اللغات الإيمائية، البعض منها مسنن عرقياً إلى حد كبير (كما هو الشأن مع اللغة الإيمائية التي استعملها الكهنة الترابيون)، وهناك علامات أخرى عفوية. وضمن هذه الفئة الأخيرة نصنف الإيمائية المتوسطية. ولنتذكر الدقة المتناهية التي يمكن أن يميز بها نابوليتاني، من خلال الإيماءات، عن حيرته، وعن غضبه الشديد، وعن رغبته الجنسية، وكيف يميز عن ازدهائه وعن الاستفهام والاضيقاع، ولنتذكر أيضاً كم هي مختلفة اللغة الإيمائية من سويدي إلى هندي.

ومن جهة ثانية تقوم بعض التخصصات القريبة من اللسانيات (تراعر 1964) بتصنيف الشرات الصوتية والمتغيرات اللمسية والبصرية. فهذه الأدوات لا تمتلك قيمة حاسمة في تأويل الملاحظات محسب (السيرة وحدها هي التي تحدد لملفوظ مثل / تعال هنا / أهى أمر أم

توصل)، بل قد تكون سمات مستقلة تستخدم من أجل تمييز بث لفظي. ما نعتقد أنه صوت منطوق من خلال مستويات متعددة، يمثل في بعض اللغات الشرقية «كلمتين» مختلفتين.

2.5.4. وفي الأخير يمكن أن نضيف أنه داخل نفس الحامل لحسي يمكن أن تنعاش وحدات مختلفة: الإيماءات والحروف المكتوبة، وفي مستوى الحروف ذاتها يمكن أن ننظر إلى /a/ أحيانا كمعادل لبث صوتي⁽³⁾ (يشغل مثلا في تمفصل الكلمة /ane/) وأحيانا كرمز جبري (مثلا في العبارة المكتوبة: /a=b/ التي تدل على كيان رياضي). ويمكن حينها القول إن /a/ تنتمي من زوايا مختلفة إلى وحدتين أو إلى سنتين متمايزين.

2.6. المعيار السادس: العلاقة مع المدلول.

2.6.1. لقد تنبه القدماء إلى أن مدلول علامة قد يكون واحدا أو متعددا، أي أن الكلمة الواحدة قد تدل على أشياء مختلفة. ووصلوا إلى التصنيف التالي:

- علامات وحيدة المعنى، وهي علامات لا يمكن أن تحيل إلا على مدلول واحد ووحيد، كما هو الحال مع العلامات الجبرية. إن درجة الأحادية تنتهي إلى الترادف الذي يقع عندما تحيل علامتان على لمدلول نفسه.

- علامات ملثثة، وهي علامات يمكن أن تكون لها مدلولات متعددة، وهي كلها مدلولات أساسية، نموذج ذلك هو الجناس، حيث إن العلامة الواحدة تشتمل على مدلولات مختلفة.

- علامات متعددة المعنى وهي علامات تستمد تعددها من الإيحاءات (مدلول ثان يستند إلى وجود مدلول أول) أو من المفومات

البلاغية كما هو الحال في الاستعارات، وخاصة المحسنات والمعاني
المزدوجة.

- علامات فضفاضة، ويطلق عليها أيضا علامات رمزية ترتبط
ارتباطا عامضا مع سلسلة غير محددة من المدلولات.

2.6.2. وهذه التمييزات نبحث عليها في بعض النصيحات
الدلالية (مثال ذلك ما تقدمه القواميس): فالقول إن «grenade»⁽⁴⁾ قد
تدل على نوعية معينة من الفواكه أو على أداة عسكرية هجومية (رمانة
أو قبلة)، معناه الإحالة على حالة من حالات الجناس. ومع ذلك،
فإننا في حالة كهذه لا نكون أمام علامة بمدلولين، بل أمام مدلولين
يعبر عنهما من خلال نفس الشكل الدال. وإذا عرفنا العلامة بأنها ما
يجمع دالا بمدلول، فإننا سيكون أمام علامتين متمايزتين يشتركان في
خاصة واحدة. إن الجناس هو أكبر من مجرد اختلاف في التصور،
مثال ذلك كلمة / علامة/ التي تتوفر على عدة معاني ممكنة. ومع
ذلك، علينا أن نتساءل هل كل علامة يمكن أن يكون لها معان متعددة.
وفي هذه الحالة لن تكون هناك علامات أحادية المعنى.

2.6.3. يمكن القول لا وجود لمرادفات، فعندما يُعبر عن
نفس المدلول من خلال دالين مختلفين تكون هناك في الواقع تمييزات
دقيقة بين هذين المدلولين: revolver ليس مرادفا لـ pistolet، ولا
يمكن أن يستعمل الكلمتين للإحالة على نفس المعنى و /Aeroplane/
ليست مرادفا لـ /avion/ إلا عند من لا يميز اهتماما للإيحاءات
الأسلوبية الصمنية في اللفظ الأول (الذي مارايل يوحى سمرو
الغشاء).⁽⁵⁾

2.6.4. هناك علامات تيلو وكأنها أحادية المعنى، كما هو
الحال مع بعض الأدوات الرياضية أو الأعداد والرموز الجبرية. وفي

الواقع، فإن هذه الرموز ليست أحادية إلا من الناحية التركيبية وضمن عرف معينه (عمليات بين جزئيات أو أعداد تامة). أما من الناحية الدلالية فهي مفتوحة على جميع الدلالات الممكنة، وتعد في المنطق الرمزي متغيرات حرة. وتتطابق أقصى درجات الأحادية مع أقصى درجات الانفتاح. وينفس الطريقة يجب التعامل مع أسماء الأعلام، فهي بالغة الأحادية، في مقابل عمومية الأسماء المشتركة. إلا أن اسم «جاءك» يمكن أن يطلق (وهو كذلك فعلاً) على أشخاص لا حصر لهم، وهو ما يمثل حالة من حالات الجنس، ويصبح بذلك علامة ملتزمة.

2. 6. 5. أما العلامات المفضضة أو الرمزية (بالمعنى الشعري) فقد حددت طوال مسيرة تاريخ الفكر بطريقة غامضة وغير قارة، الشيء الذي جعل التعرف عليها بدقة أمراً مستحيلاً.

ويقول جون: (Sprucche in prosa : 742) «إن الرمزية تحول التجربة إلى فكرة، وتحول الفكرة إلى صورة، بحيث إن الفكرة التي تحتويها الصورة تنظر حية ويصعب الوصول إليها، وحتى إذا عُبر عنها من خلال كل اللغات، فإنها تنظر مستعمية على التعبير». إن هذا التعريف يفترض بكل صراحة أن ما يطلق عليه الرموز لا يشكل علامات حقيقية بل مميزات تدعو إلى مشاركة خلاقة من لدن المتلقي.

وفي الواقع، فإن الرمز، أو على الأقل الرمز الشعري، لا يشكل علامة من نوع خاص: إن الأمر يتعلق بوقع ناتج عن استراتيجية نصية: فمن الممكن أن يكون لكل علامة - كلمة، جملة، لوحة مرور، صورة - وقع رمزي في نص ما، وبناء عليه، فإن الرمز الشعري يجب أن يدرس ضمن نظرية للفن، وهو أمر يصدق أيضاً على كل الصور البلاغية كالاستعارة والمجاز.... وهذا أمر يتجاوز حدود هذا الكتاب (انظر الفقرة الخاصة بالرمز في إنكو 1984).

أما إذا كنا معني بالرمز بعض الشعارات كزهرة الموتى أو الصليب، أو الماندالا⁽⁶⁾ فإن الأمر يتعلق بإيقونوغرامات تكون أحياء باللغة التستين، وأحيانا تكون متعددة المعاني لوجودها ضمن سُنن متعددة. ويتعلق الأمر أحيانا أخرى بالعلامات الطبيعية التي يحاول المنكلم الاستعانة بها ضمن سُنن دون أن يعني ذلك أنها ستحول إلى علامة قارة.

6.6.2. يجب أن نحدد، ضمن هذه التصنيف، موقعا للعلامات التي تحيل على علامات أخرى، وفي هذه الحالة نبحث عن وحدات استبدالية.

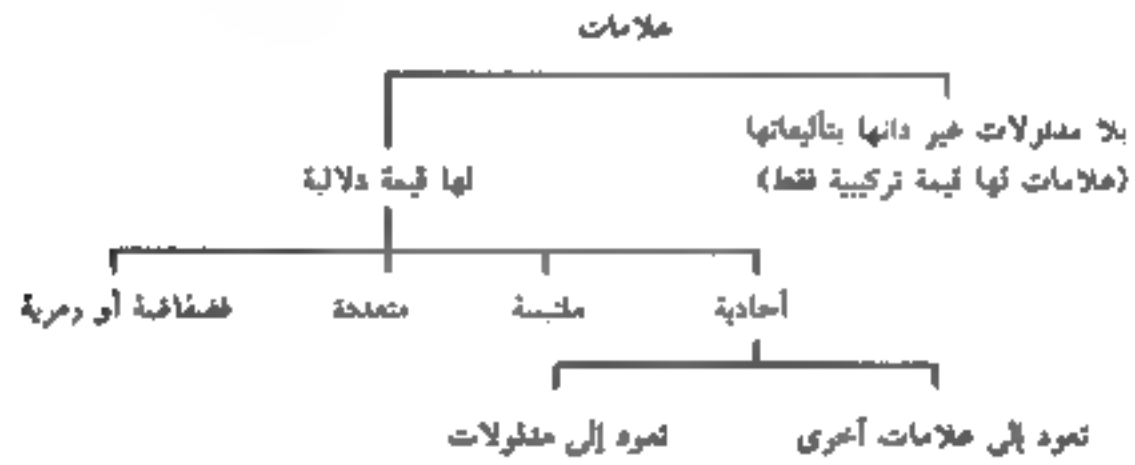
إن الحسن السليم يدرك أن هناك فرقا بين اللفظي / فرس/ وبين الكلمة المكتوبة / فرس/ وبين الإشارة التي تعين في لغة المورس / فرس/. والكلام الشفهي وحده هو الذي يحيل على مدلول «ذهبي» أو على «شيء»، فالكلمة المكتوبة تحيل على كلمة فرس، أما حالة الإشارة في المورس، فإنها لا تحيل بشكل مباشر على الكلمة المكتوبة. ففي هذه الحالة، العلامات المعزولة (الخطوط والنقاط) هي التي تدل على حروف الأبعدية المكتوبة، وهذه الحروف تألف فيما بينها لاحقا وفق قوانين سنن اللغة المكتوبة. إلا أن السنن البصري المكتوب يتوقع قواعد التأليف بين الحروف التي ليست جميعها من نفس طبيعة قواعد التأليف بين أصوات الكلمة المكتوبة. مثال ذلك أنه بإمكان اللغة المكتوبة التمثيل لصوت واحد /e/ من حرفين أو ثلاثة أحرف من الأبجدية (cin, aun, in الخ) أو تمثيل صوتين مختلفين من خلال نفس الحرف. وهكذا، فإن الصوت /z/ يمكن كتابته صوتيا أحيانا /S/ وأحيانا أخرى (Case) /z/ و /Zut/ أما الحرف /C/ وله قيمة في /cent/ وله قيمة أخرى في /racke/.⁽⁷⁾

وهذا ما يسمح لنا بالقول إن الموردس نسق طفيلي في علاقته باللغة المكتوبة، وهذا النسق الأخير هو أبصا طفيلي، وإن من زاوية أخرى، هي علاقته باللغة المطبوعة (لترك جانباً حالة الخطاب الذي يحوي على قوة إيحائية، حيث إن اختيار النمط الكتابي عوض الشفهي يحرص اختيارات خاصة).

ونعد لعبة التوطات الموسيقية طفيلية في علاقتها بالموسيقى. ولا يجب خلط ما يسميه بيوسنس بالوحدات الاستبدالية باللغة الواصفة التي لا نستعمل من أجل الدلالة على عناصر لعبة أخرى، بل من أجل تحليل القوانين المكونة للعبة/موضوع.

2.6.7. ويمكن اختصار كل التصنيفات السابقة في الحطاطة

التالية:



(من أجل حل آخر انظر الفصل الرابع)

7.2. المعيار السابع إنتاجية الدوال

2.7.1. سنحاول في التصنيف الآتي التعرف على العلامات

الجوهرية التي تستعمل جزءاً من مرجعها بصفته دالاً. ومن الممكن عرب علامات لا تكون دوالها مرجعاً (جزءاً من المرجع)، بل على

العكس من ذلك، تكون الدوال هي المشكلة للمرجع - مثال ذلك قطعة نقدية من ذهب تدل على مس غرام من الذهب. إننا لا نعي أن هذه القطعة هي علامة لأن قيمتها هي مجموع المنتوجات التي يمكن الحصول عليها في مقابل قطعة النقد هاته. إلا أن قيمتها هي قيمة المادة التي صنعت منها. وفي المقابل هناك الكلمة، التي تستعمل بشكل غير محدود دون التساؤل عن كمية الكلمات المتوفرة.

2.7.2. إن هذا التمييز يطرح مشكلا من نوع آخر: هناك علامات تميز داخلها بين نوع مجرد، لم يسبق لأحد أن رآه، وبين النسخ المادية، وهي وحدها القابلة للاستعمال (وهي حالة العلامات اللغوية). فهذه النسخ لا قيمة تبادلية لها. وهناك بالإضافة إلى ذلك علامات تكون فيها للنسخة قيمة تبادلية (وهي حالة القطع النقدية)، والعلامات التي يتطابق فيها النوع المجرد الأصلي مع النسخة (رواج العذراء لرافائيل هو بدون شك علامات مركبة، فهي من جهة تُبلغ شيئا ما، ومن جهة ثانية لا وجود سوى لنسخة واحدة).

3.7.2. وهذا التمييز الأخير يقودنا إلى قضايا العلامات الجمالية التي تندرج (وفق تصنيف جاكوبسون، انظر 2.10.3) ضمن العلامات المنعكسة ذاتيا، أي أنها تدل أساسا (أو أيضا، أو بالإضافة إلى ذلك) على تنظيمها المادي الخاص: إذا كان من المستحيل استنساخ لوحة رافائيل لأنها لا تدل فقط على «حفل زفاف مجري يتم أمام معبد يقوم أثناءه بعض الدين أصابتهم خيبة أمل بتكسیر قضبان على ركبهم»، بل لأنها تشد انتباه المتفرج إلى المادة الخاصة بالصبغة، وعلى التدرجات الأولية للألوان (تدرجات تم استنساخها بشكل سيئ من لندن بعض التجار)، وعلى حضور اللوحة بنسجها الخاص الح. إن الأثر الفني هو علامة تُبلغ أيضا الطريقة التي بنيت بها.

2. 7. 4 . هناك تمييزان موازيان اقترحهما بيرس (2) .
244245 - و 4 . 537) يمكن أن يعينانا على الخروج من هذه
الورطة :

- العلامة النوعية qualisigne أو ton والأمر يتعلق بـ «نوعية
تشغل كعلامة»، طابع دال مثل تبرة الصوت، لون لباس وقماشه الخ.
- العلامة المفردة sinsigne أو token حيث إن sin تمثل smel
في اللاتينية : «شيء» أو حدث يتمتع بوجود حقيقي، ويشغل كعلامة».
إنها نسخة داخل نموذج مجرد أو علامة معيارية legisigne التي من
الممكن أن تستدعي علامة نوعية. إن الأمر يتعلق بتحقيق ملموس، وهي
حالة الكلمات المطبوعة على هذه الصفحة، وهي كلمات يمكن
استنساخها إلى ما لا نهاية شريطة أن تتوفر على الحبر الكافي. إن
وجود هذا الحبر يشكل التبرة، ولكن هذه التبرة لا علاقة لها بالتحقق،
ذلك أن الكلمات يمكن كتابتها بالحبر الأحمر دون أن يؤثر ذلك على
دالاتها، ومع ذلك، فإن الأمر في الملصق الإشهاري الذي يطمح إلى
أن يمثل بعدا جماليا، فإن شكل هذه الكلمات ولونها يمكن أن يكون
لهما أهمية خاصة. والعلامة المفردة تشغل أيضا كعلامة نوعية.

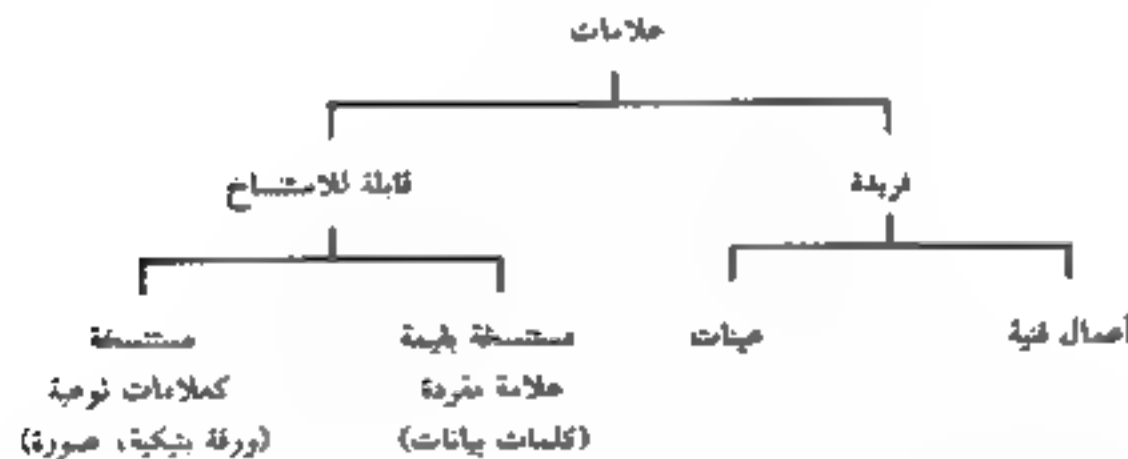
- العلامة المعيارية (أو النوع) إنه النموذج المجرد للعلامة
النوعية، «قانون هو علامة» الكلمة كما يتم تعريفها بقيمتها الدلالية في
القواميس. إننا نتعرف على الأنواع من خلال النسخ، «إلا أن النسخة
لا يمكن أن تكون دالة دون قانون يستلزم دالاتها» (بيرس 1978 .
139).

2. 7. 5 . إلى هذا الحد، يمكن أن نعرف العلامة الفنية بأنها
علامة مفردة تشغل أيضا كعلامة نوعية، وباعتبارها كذلك، فهي تتمتع
بدلالة حتى وإن كانت تستعمل علامات معيارية مادة لها.

- قطعة نقدية هي علامة مفردة مبنية على عرف معياري، ولكنها تتمتع بقيمة باعتبارها علامة نوعية (فالعلامة المعيارية تجعل من مدلول العلامة المفردة علامة نوعية لها).

- ورقة بنكية هي علامة مفردة تقيم داخلها العلامة المعيارية معادلة بين كمية ما من الذهب، ولكن بمجرد ما يستحضر هذا الاستنساخ بخصائصه النوعية (علامات مائية، الرقم التتبعي)، فإنها تتحول هي ذاتها إلى علامة نوعية لتصبح بهذه الصفة غير قابلة للاستنساخ. ويمكن أن نقول إن الذهب هو علامة نوعية بسبب ندرته، هي حين أن الورقة البنكية لا قيمة لها إلا من خلال علامة معيارية اعتباطية؛ ولكن هذه الورقة البنكية هي أيضا علامة نوعية بفضل ندرتها، والذهب ذاته احتير عرفيا باعتباره معيارا على هذه القيمة (يمكن استبداله بالأورانيوم).

2 . 7 . 6 . ويمكن أن نختصر هذه التمييزات التي أشرنا إليها أعلاه في الخطاطة التالية:



8.2. المعيار الثامن نوعية العلاقة للمفترضة مع المرجع

2 . 8 . 1 . للعلامة عند بيرس روابط هشة مع الموضوع الذي

نحسب عليه، ولهذا فهو يميز بين مؤشر index وأيقونة icon ورمز symbol⁽⁸⁾؛

- المؤشر علامة لها رابط فيزيقي مع الموضوع الذي تحيل عنه، وهي حالة الأصبع الذي يشير إلى موضوع ما، وحالة دوائر الهواء المحددة لاتجاه الريح، أو الدخان كدليل على وجود النار. ويمكن أن نذهب إلى حد تصنيف أسماء الإشارة مثل /هذا/ ضمن المؤشرات، وأيضا أسماء الأعلام والأسماء المشتركة، إذا كانت تستعمل من أجل الإشارة إلى شيء محدد.

- الأيقونة هي علامة تحيل على موضوعها وفق تشابه يستند إلى تطابق خصائصها الجوهرية مع بعض خصائص هذا الموضوع، إن لعلامة تمتلك خاصيتها الأيقونية، كما يقول ذلك موريس لاحقا (1946 - 362) من كونها تمتلك بعض خصائص المعين (Denotatum). وهكذا فإن الصورة الفوتوغرافية هي علامة أيقونية، وكذلك الرسم والرسم البياني، وكذلك الأمر مع الصيغة المنطقية وخاصة الصورة الذهنية.

- الرمز علامة اعتباطية، تستند في ارتباطها مع موضوعها إلى عرف؛ أبرز مثال على ذلك هو العلامة اللسانية.

ولقد استعمل هذا التمييز الثلاثي في أعمال كثيرة أفقدته المعنى الذي يعطيه إياه بيرس. ويعود انتشار هذا التوزيع إلى كونه يستجيب لمتطلبات الحس السليم. إلا أننا إذا أخضعناه للتحليل، سنكتشف أنه قابل لنقد لأنه يطرح مشاكل من الصعب تجاوزها.

2.8.2. فمافا يعني المؤشر إذن؟ هل هو علامة لها رابط من طبيعة تحاورية مع موضوعها (الأصبع الموجه) أم يرتبط معه سببيا (الدخان الذي تبعثه النار)؟ وهذا الرابط السببي هل هو رابط مباشر

(دخان نار) أم يتطلب زمنا (آثار - مرور شخص ما)؟ فلندقق النظر في
الفرضية التي تقول إن العرص يختلف عن العلامات الأخرى، لأن
العلامة اللفظية مثلا تساوي الشيء الذي تمثله، في حين أن الدخان لا
يساوي النار، ولكنه يولد منها (لأنه - قاموس الفلسفة). ويمكن أن
نرد على هذه الفرضية أن الدخان لا يمكن أن يكون علامة إلا إذا
كانت النار غير مرئية (إذا كانت النار أمامنا فلنستنتج
وجودها انطلاقا من الدخان)، وحينها فإن الدخان/علامة لا وجود له
إلا في غياب النار؛ وينفس الطريقة، فإن آثار الأقدام لا تساوي القدم
إلا إذا غابت هذه القدم. إن الاستثناء الوحيد لقاعدة غياب الشيء هو
العلامات الموجهة بالمعنى الحصري للكلمة (ما نسميه الموجهات)
كالأصبع الممدود: إن هذه الموجهات لا ترتبط مع موضوعها ارتباطا
سببيا بل تشتغل فقط في حضور الموضوع المشار إليه.

إن الأساس في العلامات التي يطلق عليها بيرس العلامات
المفردة الأمارية العبرية (فئة تصنف ضمنها أسماء الإشارة) لا تحيل
إلا نادرا على الظروف الملموسة التي تعد الأصبع الممدودة مؤدولها.
إنها تشكل بالأحرى مؤشرات سياقية (ما يسميه بيرس المؤشر المنحل)
التي يشتمل مؤدولها كترريف: «اللفظ الذي تم تعيينه فيما قبل والمرتبط
بهذه العلامة من خلال رابط دلالي صحيح». وهكذا فإن المكون
الواصف / هذا / في الملفوظ التالي / أنت تأكل كثيرا، وهذا أمر لا
يخجلني /، لا يشير إلى شيء محسوس، بل يحيل على / تأكل كثيرا /.

هناك حالة واحدة شبيهة بالإصبع الممدودة. وهي تلك الخاصة
بأسماء الضمائر التصريفية. فالعبارة التي تدخل ضمنها أسماء الإشارة
لها إحالة ضمنية تكوينية. ولقد أطلق اللسانيون على هذه الضمائر
التصريفية الواصلات (les schifers)، ومُدلولها يتغير كلما عبرت

الذات أو ظروف المقام التلفظي. ف / أنا/ هي ضمير يشتغل كفاعل ويحيل على ذات ملموسة وخاصة لمفوض ما. أما التعبير / أنا أرغب في نقاحة/ فلها مدلول يدل داخله / أنا/ على «الذات الخاصة بهذا للمفوض»، ويدل في مرحلة ثانية، على ذات التلفظ. إن / أنا/ لها مرجعية هي ذات التلفظ التي تتغير وفق تغير الذات التي أنتجت هذه الجملة. إن الضمير التصريفي ليس له نفس الوضع السيميائي كما هو الشأن مع إصبع ممدودة، ذلك أن هذه الإصبع قد لا تحيل على موضوع (يمكن أن أمد إصبعي في الفراغ)، في حين أن / أنا/ تحيل دائما على الشخص الذي ينطق بالجملة. وهذا لن يطله مثال الرواية التي تتحدث داخلها الشخصية المحرومة من أي وجود واقعي وتقول / أنا/: ففي حالة مثل هذه نكون أمام مؤشر سياقي يحيل على اسم تعرفنا عليه في سياق سابق.

هناك اختلاف آخر: إن الضمير التصريفي يتمتع بمدلول، حتى في حالة المرجعيات الضمنية التكوينية، (مثلا / أنا/ تدل على «ذات المفوض هي ذات التلفظ»). إن الأصبع الممدودة من جهتها لها مدلول هو «موضوع المرجعية الذي يشكل الامتداد الخ». وهو ما يجعل منه علامة، ولكن كوننا نستعمله من أجل تعيين موضوع مرجعية ضمنية يشكل من جهته فعلا مرجعيا نتمتع السميوز (أو عملية التوليد السيميائي) داخله بوظيفة توجد خارج مدار هذه السميوز.

مطلق على الموجّهات الانتباهية (vecteurs d'attention) إشارات مثل السابة الموجهة، أو / أنا/ و/ أنت/ و/ هذا/، التي يتم استعظ بها في ظروف محددة حيث تلعب نفس الأدوار التي تقوم بها الإصبع الممدودة. إنها علامات ميتالغوية تحدد الاستعمال الصحيح للعلامات الأخرى التي يتم التلفظ بها فعليا. إن الموجّه الانتباهي له

دائما مدلول (بحيث يمكن استعماله في سياقات تكون فيها المرجعية وهمية)، ولكنه يلعب دورا أساسيا في فعل المرجعية، الضمنية أو الصريحة. وهذا الدور يكمن في الإعلان أن انتباه المتلقي يجب أن يكون مركزا على موضوع أو مقام خاصين. إن الفعل المعني، الذي يفود إلى مرجعية ما مصدره وقائع الانتباه والإرادة التي تقوم ببلورة إدراك ما. والحال أن الإدراك هو في ذاته خارجي بياني (إلا إذا كان لا يحتاج، من أجل بلورته، إلى الاستعانة بالسيرورة الموصوفة في 4.3.5). وفي جميع الحالات، فإن الموجهات، وفي استقلال عن فعل المرجعية تظل دائما علامات: إنها تتوفر على مدلول، وهذا المدلول هو الذي يبلور القواعد التي تسمح باستعماله في فعل المرجعية.

وبهذا، فإن الموجهات هي مُعرفات إشارية بالمعنى الذي يعطيه موريس لهذه العلامات (انظر 3.9.2)، فهو يصنف الأصبع الموجهة نحو موضوع ما ضمن هذه الفئة. وينتج عن هذا أن المعرف «ليس مجرد وسيلة لتركيز اهتمام شخص ما على شيء ما، كما يتم ذلك من خلال توجيه الإصبع في اتجاه بعينه، بل له وضع علامة، إنه علامة أصيلة وإن كانت ضعيفة» (1946: 110). والموجه ليس علامة إذا «كان مجرد مؤشر نمهيدي»: ففي تصورنا، إن توجيه الرأس هو سلوك حالي، أما الإشارة إلى شيء ما فإنها تشكل أداة ميتالغوية⁽⁹⁾.

أما فيما يتعلق بالأعراض مثل الدخان أو القدم، فإنها لا تساوي موضوع النار أو موضوع القدم، بل تساوي المدلولات «نار» و«قدم» التي تتطابق معها. وهذا ما دفع بيرس إلى حد اعتبار الأثر رمزا اعتباريا لأنه يساوي «الكائن الإنساني».

وفي الختام، فإن بيرس يصنف ضمن المؤشرات تلك الصور

الفونوغرافية التي يضعها الحرس السليم ضمن الأيقونات. وفي الواقع
فإن الصورة لا تكفي بتمثيل موضوع ما كما يمكن أن يقوم بذلك رسم
م، بل تشكل ضميا أثرا وتشتغل إذن كسمة «لفاع كأس» ظلت آثارها
باقية فوق الطاولة شاهدة على الحضور الماضي لهذه الكأس (حول
القيمة المؤشّرية للصور السيمائية نجب العودة مثلا إلى بيتيتي
Bettetini (1971)

إن هذه الملاحظة الخاصة بالمؤشرات ستساعدنا على فهم
مشكلة خاصة بكل العلامات التي نتحدث عنها في هذه الفقرة، وهي
أن هذه العلامات يمكن النظر إليها أحيانا باعتبارها مؤشرات، وأحيانا
أخرى باعتبارها أيقونات، وأحيانا رموزا، وذلك وفق الظروف التي
تتبدى فيها، وكذا الاستعمال الذي تسمح به إياه الدلالة. وهكذا بإمكاننا
أن نستعمل الصورة التاريخية التي تمثل لرجال الكومونة الذين تم
إعدامهم إما باعتبارها تمثل رمزا اعتباطيا «للشهداء الثوريين»، أو
باعتبارها أيقونة، أو باعتبارها مؤشرا، بمعنى الأثر، الشاهد على
صدقية حدث تاريخي.

ومن جهة ثانية، فإن وضع الشاهد بطرح مشكلا : فهو، بكل
تأكيد، قابل للتزييف بوسائل تقنية مختلفة، وهذا يشير إلى أن ارتباط
الأماره بموضوعها ليس بسيطا كما يبدو لأول وهلة.

2. 3. 8. إن تعريف الأيقونة أكثر غموضا مما سبق. أولا وقبل
كل شيء لأن العلامة الأيقونية لا تملك خصائص الشيء الذي تحيل
عليه، وإلا كان هناك تداخل بين الأيقونة وموضوعها. علينا إذن أن
نستحدث عن درجات للأيقونية (مولز 1972) فنطلق من الطابع
لحطاطي لحريطة إلى الحركات التقليدية التامة لقناع جنائزي. ويمير
بيرس في قسم الأيقونات بين الصور التي تشبه الموضوع من بعض

الجوانب، وبين الرسوم البيانية التي تعيد إنتاج بعض العلاقات بين
أجراء الموضوع، وبين الاستعارات التي لا ندرك داخلها سوى توار
عام. أما ما يطلق عليه الصور، فيمكننا التمييز بين الأيقونية الصعبة،
استنساخ خطي لهرم خوفو (pyramide de Chéops) وبين «الواقعية»
المحاكاة لفتان موغل في الواقعية. أما فيما يتعلق بالتوازي الخاص
بالاستعارات، فإنه يؤدي إلى أيقونية ملتبسة للرموز الصوفية حيث
يصبح الجمع داخلها أيقونة للمسيح، لأن هذا الطائر يعطي أطعاه من
لحمه. ولكن يمكن أن نتفق بسهولة على أن الأمر يتعلق بتعريف خاص
للمسيح المضحي وبين تعريف آخر، خرافي، للجمع.

والغريب أن التعريف الأكثر مقبولة للأيقونة هو ذلك الذي ينفي
عنها صمة العلامة: فالأيقونية عند موريس هي تامة عندما تتطابق
العلامة مع موضوعها (أما أملك كل خصائصي، أكثر ما تتوفر عليه
صورتني). إن الحجة ليست معارفة كما يبدو في الظاهر، ذلك أنه علينا
أن نقبل، ويمكن أن نفعل ذلك، أن كل الموضوعات التي نحيل عليها
من خلال الدلالة تتحول إلى علامات. وبهذا نصل إلى سمية⁽¹⁰⁾
للمرجع.

4.8.2. هناك حالة مثالية في هذا المجال وهي ما تقدمه
العلامات المادية: من أجل طلب علبة سجائر (أو من أجل الرد على
سؤال يستدعي جواباً من نوع / علبة سجائر /) ألوح بعلبة السجائر. لقد
تم في هذه الحالة اختيار الموضوع عرفياً باعتباره دالاً على قسم يمد
هذا الموضوع عنصراً داخله. فإذا تركنا جانباً كون العلامة، في هذه
الحالة، ليست أيقونية بشكل كلي - فقد يحدث فعلاً ألا أحتار سوى
بعض المظاهر لتصبح العلامة ممثلة للمدلول الذي أحيل عليه. فعندما
ألوح بعلبة السجائر من نوع «غولواز»، فإنني لا أريد التذليل على نوعية

السجائر غولوار بل لكي أحيل على السجائر بصفة عامة، إنني أقصي من حظيرة الملاءمة السيميائية بعض خصائص الموضوع التي لا تتطابق مع تلك التي هي غاية ملول هذا الموضوع

5.8.2. وفي هذه الحالة يمكن القول إن جل العلامات الأيقونية، إن لم تكن كلها، هي علامات جوهريّة أو تجاورية (انظر إكمان وهريرن، 1969؛ وفيرون، 1970؛ وإيكو، 1971). إن الأمر يتعلق بعلامات تحيل على موضوع من خلال الكشف عن جزء من أجزائه. ولأخذ حالة الطفل الذي يلهو بمسدس وهمي. يمكنه أن يوجه سببته مع إبهامه ويستجمع الأصابع الأخرى. نكون حينها أمام علامة أيقونية مفكرة تقلد السبابة داخلها فوهة المسدس ويمثل الإبهام قاعدته والأصابع الأخرى تمثل لمقبضه. ويمكن لنفس الطفل أن يجمع أصابع اليد ويضمها إلى راحة الكف كما لو أن ييده مسدسا، ويحرك السبابة كما لو أنه يضغط على الزناد. في هذه الحالة لا يقلد الطفل المسدس، ولكنه يقلد هذا تحمل مسدسا ونصعط على الزناد. فلا وجود لمسدس ولكن هناك يد فعلية تقوم بحركات هي نفسها التي ستقوم بها لو كان بها مسدس. وينفس الطريقة إذا هددت شخصا ولوحت بقبضة يدي، فإن القبضة ستكون أيقونية أو رمزا. أما إذا أوهنت أسي أعطيت لكلمات وأوقف القبضة على بعد سنترات من وجه محاطبي، فإنني أبلغه أن الأمر يتعلق بـ «الكلمة» (أو بتعبير دقيق. «سأعطيك كلمة») وذلك باستعمالي كعلامة جزءا من سلوكي الذي تعبته هذه العلامة. ولقد قدم كل من لفديس أوغسطين (de magistro) وفتغشتاين (1953) وصفا لهذا النوع من العلامات.

6.8.2. إن العلامات الجوهريّة مثلها مثل العلامات المادية لا تحتاج إلى معايير المرجع لكي تتحدد. فالأمر يتعلق بعلامات عرفية

يشكل الدال، ظرفيا، من مادة، هي ذاتها الموضوع الذي قد يستعان به إذا ما استعملت هذه العلامات في فعل مرجعي ملموس (5.3.5). إنها علامات عرفية* إذا لوحنت للنادل في مطعم ما بـ «زجاجة خمر، سيفهم أنني أطلب زجاجة أخرى (كما لو أنني قلت له «أريد حمرا»)، وقد يمثل هذه الحركة، في ثقافة أخرى، دعوة لتناول الخمر. إن الأمر يتعلق بعلامات تتكون لتستجيب لمناسبة من نفس مادة المرجح الممكن، ذلك أنني يمكن أن أدل على «السجائر» بالتلويح بعلة سحائر من البلاستيك أو برسم يمثل للسجائر.

ومع الرسم نكون أمام نوع من العلامات يمكن تحديدتها كعلامات أيقونية. ولكن إلى هذا الحد، يبدو واضحاً أن بلورة علامة أيقونية يحتاج إلى بعض الشروط:

أ- على الثقافة أن تحدد الموضوعات التي يمكن التعرف عليها استناداً إلى خصائص أو سمات للتعرف. لا يمكننا خلق علامة أيقونية من موضوع غير معروف. يجب أولاً أن تحدد الثقافة الحمار الوحشي باعتباره رباعي الأقدام وشبهاً بحمار، شعره أبيض مخطط بالأسود، لكي يتم بعد ذلك إنجاز رسم نتعرف من خلاله على هذا الحيوان.

ب- يجب أن يكون هناك حرف ثان (من نوع طباعي) يقيم تطابقاً بين بعض الأدوات الطباعية وبين بعض الخصائص، وبعض خصائص التعرف على الموضوع يجب أن يتم استنساخها بالضرورة لكي يصبح الموضوع قابلاً للتعرف (بإمكانني ألا أستسخ الدليل أو سائبك الحمار الوحشي، ولكن لكي يتم التعرف عليه لا بد من استنساخ المخطوط السوداء).

ج- ويجب أن يقوم هذا التعرف أيضاً بإقامة هيكل لاستنساخ التطابقات المدركة بين سمات التعرف والسمات الطباعية. عندما أرسم

مرهبره وفق قوايين المنظور، فإنني أعود إلى بعض القواعد التي أرسها عصر النهضة (la portula optica) للدورير، ونموذج الغرفة المظلمة (دالا بورما) من أجل إسقاط بعض السمات الملائمة للهيكل العام للموضوع في بعض الأماكن من الصفحة. فالعرف يقول إن متغيرات المسافة الثلاثية الأبعاد تستعاد من خلال متغيرات المسافة الثنائية (الأبعاد، ومتغيرات الحجم والكثافة لكل نقطة أو سمة طباعية. هذا قرر طمأن أن يمثل لفرس من خلال امتطائه لمكنسة، فإنه يقرر ألا يعيد استنتاج سوى سمتين من سمات التعرف على الفرس، سمة من طبيعة لصائية (البعدية) والثانية من طبيعة وظيفية (العروسية). فإن يستعمل جسد الطفل للتعبير عن العروسية، فهذا يدفعنا إلى تصنيف هذه العلامة ضمن العلامات الجوهرية (كومبرش 1963). وإذا قررت أن أمثل لعلم أحمر من خلال وضع قطعة صغيرة من القماش التي صنع منها العلم ضمن "كولاج"، فإنني أقوم في هذه الحالة بنقل مادة مركبة من خلال عملية إسقاط (الأسى اختصر أبعاد الموضوع مع المحافظة على شكله في الوقت نفسه).

وبالإمكان أن تأتي في هذا المجال بأمثلة لا حصر لها ولا حد. إن مقولة العلامة الأيقونية تعطي عمليات متنوعة للاستنتاج القائمة على أعراف وعمليات بعضها؛ وتصنيف وتحليل هذه العمليات هي مهمة نظرية تكون أكثر تطوراً من تلك المتوفرة حالياً.

2. 8. 7. استناداً إلى الملاحظات السابقة يمكن أن مقدم الخلاصة التالية: لا يمكن التمييز بين علامات معللة (كالمؤشرات والأيقونات التي لها علاقة تشابه أو تحاور مع المرجع) والعلامات لعرية أو الرمزية. إن الأيقونات فإنها وكذا المؤشرات تشعل وفق عرف محكم صيغ إنتاجها. فالأيقونة ليست علامة شبيهة بالموضوع

الذي نعينه لأنها تعيد إنتاجه، إنها كذلك لأنها قائمة على صيغ خاصة لإسقاط انطباعات إدراكية (برور، استعمال لجوء من الموضوع، نقل الخ) من خلال التذكير بتجربة (لمسية وسمعية الخ)، أو من خلال لغة سيرورة حسية مركبة هي التي تفرض النظر إليها باعتبارها شبيهة بتلك التي أحس بها في حضور الموضوع. وفي هذه الحالة، فإن مقولات التشابه والتماثل والتناسب ليست تفسيراً لخصوصية العلامات الأيقونية، بل تشكل مرادفات للأيقونية، وهذه المرادفات لا يمكن تمييزها إلا من خلال تحليل مختلف الصيغ المنتجة للعلامات (انظر الفصل الرابع).

وفي الواقع، فإن بيرس لم يقرر أبداً ما إذا كانت العلامة يمكن أن تكون أيقونة أو مؤشراً أو رمزا. وكما سرى ذلك في 2 . 11، فإن تصنيفه أعقد مما يبدو ويبرهن على أن العلامات التي نمسك بها باعتبارها تعابير ملموسة هي في واقع الأمر ناليغات «لأنواع عامة ومجردة». فالمؤشر والأيقونة والرمز ليست أنواعاً من العلامات، بل مقولات سيميائية. وعندما يعالج بيرس الصور التي نطلق عليها «علامات أيقونية» فإنه يسميها «أيقونات عليا» أو «أيقونات تمثيلية».

والرسم البياني يمكن أن يكون ضد بيرس أيقونة (لأنه يمثل مظاهر أيقونية ملحوظة) ولكنه يشير أيضاً إلى مظاهر رمزية ومؤشورية هامة. إن خريطة ميترو لندن تشكل أداة أيقونية تحاكي نظام الخطوط وترابطاتها، ولكنها أيضاً تاج عرف رمزي يحول الخطوط الفعلية - حتى عندما تكون متعرجة ومهشمة - إلى خطوط مستقيمة، ويسمى الطريقة يترجم متاهة السرايت في كل محطة من خلال فرص مدون مبسط.

9.2. المعيار التاسع: السلوك الذي تغيره العلامة عند المتلقي.

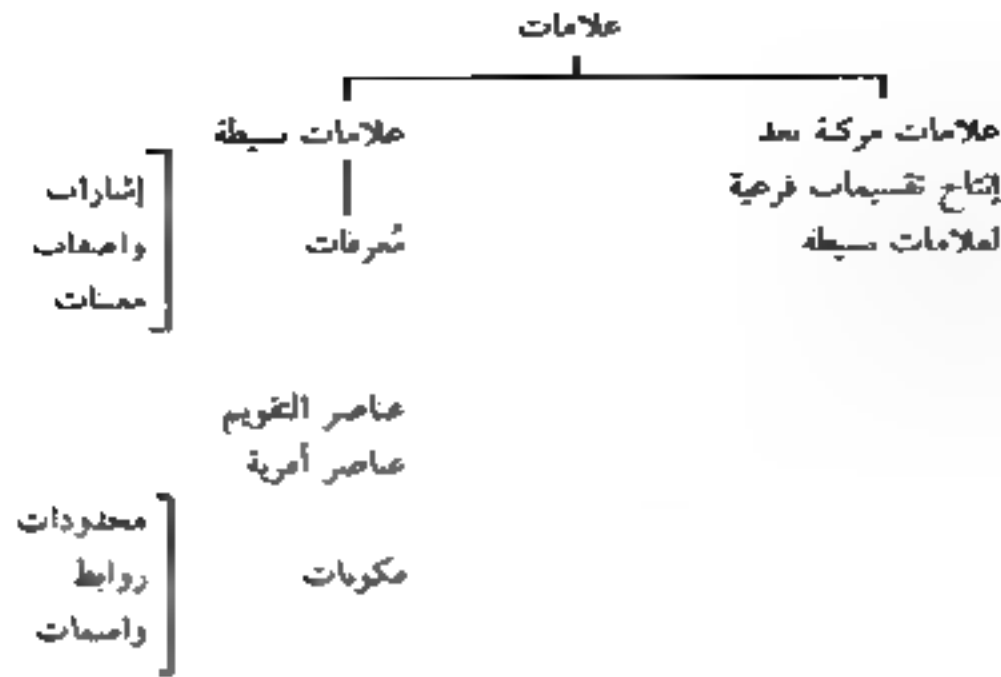
9.2.1. لقد حاول موريس (1946 ص 89) إقامة تصنيف

اعتمادا على معايير سلوكية معرّفا العلامة بأنها «شيء يثير سلوكا خاصا، موصوع لا يشكل في هذه اللحظة مشيرا، وبالتحديد، إذا كان «أ» هو مشير تمهيدي يحدث- في غياب الموضوع المسؤول عن إثارة جواب/ مقطع يعود إلى قسم من السلوكات في جهاز ما استعدادا من خلال أحوبة -مقاطع من هذه الفصيلة من السلوكات، في هذه الحالة فإن أ- يعتبر علامة».

إن الاشتعالات السلوكية عند موريس ورغبته في عدم تعريف العلامة استنادا إلى مدلول استيهامي أو مفهوم (فالمفهوم له حياة ذهنية وهو بذلك غير قابل للمعابة)، قاده إلى الخلط الخطير بين العلامة والمثير. فالقول بأن العلامة هي مثير تمهيدي يشتعل في غياب مشير فعلي، معناه أن العلامة هي مثير يحل محل مثير آخر، محدثا نفس الأثر. وهكذا، إذا أصبت، لأسباب غريبة، بعثيان حاد كلما رأيت فتاة جميلة، فإن شراء مثير للقيء سيكون هو علامة على الفتاة. بالتأكيد لم يكن موريس يقصد هذا، إلا أن التعريف الصيق للعلامة قد يحيل على هذا المعنى.

9.2.2. ومع ذلك، فإن التصنيف الذي قدمه لنا، رغم اعتماده

على الجواب السلوكي باعتباره المعيار الأساس، يمتلك قيمة حقيقية ويعد من أكثر التصنيفات قيمة.



تحاول هذه الخطاطة الصغيرة توحيد المميزات الحاضرة في الخطاب التحليلي الواسع لموريس وهو ما سنحاول تجميعه هنا من خلال خانات واسعة.

2. 9. 3. إن أدوات التعرف (identificateurs) شبيهة بمؤشرات موريس، فهي تستخدم من أجل توجيه جواب المؤول نحو منطقة زمكانية معينة، إنها محددات مرتبطة بثلاثة أنواع من العلامات من أجل ضبط الشيء المعبر أو تقويمه أو الهيئته. إنها علامات في حالتها الدنيا أي مشيرات تمهيدية: الموجهات (indicateurs) هي أدوات عبر لفظية للتعرف مثل الإصبع الذي يشير إلى شيء ما. أما الواصفات (descripteurs) فهي أدوات لانية للتعرف (موريس يقدم المثال التالي / هذا المساء على الساعة العاشرة/، ويمكن أن ندخل أيضا /هناك/). وهناك المعينات (nominateurs)، وهي أدوات للتعرف من طبيعة لانية تحل محل العلامات اللسانية الأخرى التي ترتبط معها من خلال علاقات مرادفية: نستج من المثال الذي يقدمه موريس، أن الأمر

تتعلق بالصماتر الإشارية مثل / هذا / (يتحد مع وجه)، أسماء الأعلام (الاسم / جوزيف/ يحيل على مقام زمكابي يتم التركيب عليه). إن مدلول المعرف هو تحديد وضع ما.

2.9.4. إن المعينات هي علامات تحيل على خصائص رمكاسة. إن مدلول معين ما هو مدلول إقصائي: إنا نعين وصية ما من خلال التركيب على بعض الخصائص الأساس التي تفيدنا في التعرف. / أسود/، / فوق/، / أكثر/ هي معينات. ويمكن تصنيف المعينات وفق عدد أدوات التعرف التي تشترطها عملية بناء العلامة المركبة التي نتجلى من خلالها: / أسود/ أحادي (يكفي أن نقول «س أسود»، أما «إنه يصرب» فهي ثنائية (س يصرب ح)، / أعطى/ ثلاثية (س أعطى ب ل ك). إن المعينات لا تحيل بالضرورة على موضوع ما (يمكن أن تحيل على موضوع لا وجود له). إنها تحيل على ما يتبع الدلالة.

2.9.5. عناصر التقويم، وهي عناصر تقدم لنا شيئاً يتمنع بوضع مرجعي خاص بسلوك يجب بلورته. إن مدلول هذه المقومات هو تحديد قيمة ما، ويمكن أن تكون هذه العناصر إيجابية (/ نزيه/)، أو سلبية (/ ندل/)، أو تكون كائنات أدوات أو خاصة بالاستعمال، (عندما نقود إلى استعمال وسيلة ما)، أو متجز أو مستهدف (عندما يقود إلى إنجاز هدف).

إن الأمثلة الأكثر إقناعاً التي يقدمها موريس هي تلك الخاصة بالعلامات المركبة أو الواصفات من نوع / «أ» أفضل من «ب»/، ويشير موريس إلى أن التعريف / «أ» جيد/ التي تتم صياغته ضمن مقام م حيث لا وجود لأي اختيار، يجعل من / جيد/ معينا. أما إذا قما بالاختيار بين «أ» و «ب» فإنه يصبح مقوما.

2.9.6. العناصر الأمرية، وهذه العناصر لا تكتفي بالإشارة

إلى سلوك ما، بل تجعل من هذا السلوك أمراً إجبارياً، أما مدلولها فهو الإجبارية، وقد تكون شرطية (/ إذا دعوتك، عليك أن تأتي)، أو قطعية (/ نعال هنا/)، أو تمهيدية (تعال هنا، سأعطيك الحريضة/).

2.9.7. المكوّنات (formateurs)، وهي علامات صعبه التحديد، ويحصها موريس بعصل كامل (1946- VI)، والسبب في ذلك واضح. فهي علامات تستعمل كروابط تغير من نية العلامات المركبة أو الواصفة رغم أنها محرومة من أي مدلول. ولقد أطلق عليها القدماء «علامات الضبط». وباختصار، إذا قلت / فدا ستمطر السماء، أو سيكون الجو جميلاً/، ففدا ستمطر السماء/ و / هذا سيكون الجو جميلاً/ تعد واصفات معينة، ومدلولها هو التمييز بين وصفيين. وبالمقابل فإن العبارة /أو/ لا يبدو أن لها مدلولاً، ولكنها مع ذلك تتحكم بالكامل في فهم الجملة، إنها تضع الإثبات بين احتمالين. ويصنف موريس ضمن هذه المكوّنات ما يطلق عليه عادة بـ «العلامات المنطقية «أو» العلامات الشكلية «أو» علامات الضبط»، وهي حدود يطبقها كتاب كثيرون على ظواهر لسانية من قبيل /و/، /لا/ /بعض/ /كان/ /+ / /ك/، ونظام الكلمات والمواحق، وأجزاء الخطاب والبنية النحوية، وأدوات الصط. إن هذا التصنيف بالغ الأهمية، لأنه يمكننا أن ندرج ضمن هذه الحانة.

أ- بعض الأدوات التي كان القدماء يطلقون عليها «أجراء الخطاب»، وهو مفهوم وصل إلينا عبر النحو التقليدي، ويتعلق الأمر مثلاً بالظروف والصائغ (ويطلق عليها موريس المحددات).

ب: الإعراب، مثل الحركات التي ندرسها في الصرف الإعرابي اللاتيني مثل: /ibus/ تشير إلى مفعول عنه أو إلى إضافه، و /um/ تشير إلى المفعولية (وهنا أيضاً يتعلق الأمر بالمحددات).

ج- كل الأدوات المنطقية والحبرية (وهي روابط كما هو الشأن مع الروابط، الفواصل، والقوسين).

د- الأصوات التي تتردد في البداية في اعتبارها علامات، مثل السر الاستفهامي. وسوق موريس حالة الصوت الروسي الذي ينتهي، في ارتباطه بعلامات أخرى، إلى مسح الواصف قيمة استفهامية. ولا تنوّر نحن على علامة نوعية، ولكننا نستعمل الوحدات البيرية، التي تتحدد وظيفتها في الرفع تدريجياً من البيرة التي يعبر عنها من خلال علامة الاستفهام / ؟ / في اللغة المكتوبة. ولقد درست اللسانيات هذه الأشكال وأصبحت عليها العلامات فوق المقطعية. ويطلق عليها موريس لمصوغات.

هـ - نسق ترتيب الكلمات والبيرة السحوية. هناك فرق في المدلولات بين / حكيم هذا العالم النفسي /، وبين / هذا العالم النفسي حكيم /، فما الذي يجعل كلمة / حكيم / في الحالة الأولى «سما»، وفي الحالة الثانية صمة؟ إن هذه الدلالة وليدة موقع الكلمة داخل الخطاب، وهو موقع ينظر إليه باعتبار علامة. وهناك لغات تتحدد المواقع داخلها بشكل دقيق ونشتمل بطريقة أحادية، وهناك لغات (كالاتينية مثلاً)⁽¹¹⁾ تتميز فيها المواقع مما يطرح الكثير من مشاكل التأويل التركيبي، والسبب في ذلك يعود إلى التباس المكونات لموقعية، فالموقع على هذا الأساس هو مكون محدد.

2.9.8. معبر ما يتطابق مع لفظ من نوع / أسود / فإن الواصف يتطابق مع ملموظ من نوع / هذا الكلب أسود /. ويمكن أن تكون الراصدات معيّنات أو مقومات أو أمرات أو مكونات، لأنها تستعيد بشكل مفصل خصائص العلامات البسيطة. إن الأهمية التي يولها موريس لهذه الواصفات اتية من كونه يعتقد، شأنه في ذلك شأن باحثين

آخرين، أن الملفوظات سابقة في الوجود على العلامات البسيطة التي تمسحها مدلولات (رغم أنها تمنح لهذه العلامات البسيطة مدلولاً وتوفر - كما رأينا ذلك سابقاً - أمثلة متعددة من أجل تأكيد أطروحتي).

ولتوضيح الواصفات يقدم ما يلي:
/ إنه أيل / واصف معين.
/ إنه رجل جميل / واصف تقويمي.
/ أغلق النافذة / واصف أمر.
/ سادس إلى باريس / أو لن أذهب / واصف مكون.

10.2. وظائف الخطاب

10.2.1. لقد أكدنا أن ما ندرسه في هذا الكتاب هو العلامة لا الخطاب الذي تندرج ضمنه العلامة. ومع ذلك هناك تميزات خاصة بالخطاب (موريس يميز بين الواصفات) تساعدنا على فهم مختلف الاستعمالات والوظائف الإلغوية للعلامة. وفي هذا المجال يميز بيومنس (1943-74-82) بين ثلاث صيغ خطافية.

1- خطاب العمل الذي يعبر عن بنية في التأثير على المحاطب أو على وقائع بطريقة أمرية (أمر) أو اختيارية (أه لو يكون الجو جميلاً) أو من خلال نصائح أو اقتراحات.

2- الخطاب الإثباتي (/ سيأتي /)

3- الخطاب الاستفهامي (/ هل جاء /؟)

إن الخطابين الإثباتي والاستفهامي يتدرجان ضمن الخطاب الإخباري الذي يتناقص مع خطاب الفعل.

10.2.2. أما عند كتاب آخرين فإن الخطاب الاستفهامي

يمكن دمجه في الخطابات الإثباتي وذلك لأن الجملة / هل جاء / ؟
ترجم إلى / أرعب في مجيئه. / إن هذا التحويل يوحي بوجود نوع آخر
من الخطابات، أي الخطاب الإنجازي (أوسن 1958) الذي يقوم
داخله المتحدث بإنجاز فعل ما.

وصمن هذا الخطاب تصنف ملفوظات من قبيل / أستمع / ،
أسميك.... / أو / أصحك بالقيام بكذا. / وتتقابل الخطابات
إلحاحية مع الخطابات التقريرية (أو الإثباتية) وذلك، لأنها لا يمكن
أن تكون، في تصور البعض، موضوعا للصدق أو الكذب.

2. 10. 3. ويميز جاكسون (1963) من زاوية لسانية بين ست
وظائف لغوية:

1- وظيفة مرجعية: العلامة تحيل على شيء ما (/ فرس / أو
/ القطار ينطلق في السادسة /).

2- وظيفة انفعالية. العلامة تثير رد فعل انفعالي (/ حذار / أو
/ يا حبيب / أو / وقع /).

3- وظيفة لغوية: لا غاية إعلامية للعلامة، بل فقط تؤكد أننا في
حالة تواصل (لنتذكر / نعم / / تماما / ، التي نطق بها ونحن نستمع إلى
شخص في الهاتف. فهذه / معم / لا تعبر عن إجماع بل إفهام
المتحدث أننا نتبع كلامه).

4- وظيفة أمرية: العلامة تحير عن أمر (/ اخرج من هنا / أحضر
الكتاب /) والعاية هي إثارة سلوك ما.

5- وظيفة منا لغوية. العلامة نستخدم من أجل تعيين علامات
أخرى، والأمر لا يتعلق هنا بوحدين استثنائيين كما هو الحال مع
العلاقة بين المورس واللغة المنطوقة، بل يتعلق بلغة حقيقية تستعمل
من أجل تحديد خصائص لغات أخرى (كما هو الشأن في المنطق)،

أو استعمال نفس اللمعة ضمن لغة واحدة حيث تصف اللمعة ذاتها والكتاب الذي بين يدي القارئ مثال على خطاب ميتالغوي.

6- الوظيفة الشعرية: تستعمل العلامات من أجل إثارة الانتباه إلى الطريقة التي تستعمل بها هذه العلامات بعيدا عن قواعد اللمعة المشتركة.

وبطبيعة الحال، فإن هذه الوظائف متشابكة وتتداخل ضمن السبرورة الإبداعية. وهكذا فإن علامة مرورية من قبيل /قف/ لها وظيفة مرجعية لأنها تعلق عن وجود مفترق طرق، ووظيفة أمرية لأنها تدفع أمرا، وهي انفعالية لأنها تشد انتباه المستعمل. ولا يمكن القول إن لها وظيفة لغوية، هذا إذا استثنينا كونها تذكرا أما ما زلنا في المنطقة المنظمة بهذه الإشارات، وليس لها وظيفة شعرية، إلا إذا كانت مرسومة بطريقة أصيلة وشكلها الغريب يشير الإعجاب (ولكن في هذه الحالة قد تحول بين المستعمل وبين الوظيفة الأمرية الأولى للإشارة).

11.2. من أجل تصنيف عام للعلامات

11.2.1 نعود كل التصنيفات التي قدمناها إلى جهات نظر خاصة، بما هي ذلك تصنيف بيرس الذي يقدمه لنا باعتباره تصنيف شاملا، ولعل بيرس هو المفكر الوحيد الذي حاول تقديم تصنيف عام أخذنا بعين الاعتبار كل جهات النظر ومع ذلك ظل تصنيفه ناقصا.

لقد ميز بيرس بين ثلاثة تقسيمات فرعية ثلاثية، وثلاثيات وشولد عن تأليفات هذه التقسيمات عشرة أقسام للعلامات. ويهذا سيكون هناك (344.8) عشرة توزيعات ثلاثية (أي ثلاثون فئة). ويتحدث بيرس في موضع آخر عن إمكانية نظرية لتوليد 59049 تأليفا منها ستون يمكن أن تكون ذات قيمة.

ويمكن القول إن فهم هذه التصنيفات يتطلب معرفة صلبة بالأسس الفلسفية التي يستند إليها في رؤيته للعلامة، وبدون ذلك لن نفهم مثلاً لماذا سيكون الأيقونة صورة فوتوغرافية وصورة ذهنية وصيغة حرة. وبدون هذه الأسس الفلسفية أيضاً لن نفهم لماذا يكون اسم ما مؤشر ورمزاً في الوقت ذاته. وسنحاول توضيح بعض هذه القضايا في الفقرة 5-3-4. ومع ذلك سندرج هنا التصنيف العام للعلامات. وللملاحظ أن هذه التمييزات تستعمل حالياً على نطاق واسع في انفصال عن أسسها الفلسفية وهو ما يثير بعض المشاكل. استناداً إلى هذا، وفي الوقت الذي تستعصي فيه على الفهم العادي، فإنها تُقدم لنا باعتبارها نوعاً من التصنيفات المحسوسة للعلامات المستندة في تكوينها على الاستعمال العادي لها.

2. 11. 2. إن العلامات عند بيرس (243.2) تنوزع على تسع فئات، هي نتائج توزيع ثلاثي ينطلق من ثلاث زوايا نظر. العلامة هي ذاتها، العلامة في علاقتها بموضوعها، والعلامة هي علاقتها بالمؤول، وإليكُم الفئات التسع:

- لعلامة في ذاتها: علامة نوعية، علامة مفردة، علامة معيارية (نوع) انظر الفقرة 2-7-4

- العلامة في علاقتها بموضوعها: أيقونة، مؤشر، رمز، انظر الفقرة 2-#

- العلامة في علاقتها بالمؤول⁽¹²⁾: خبر، تصديق، حجة، انظر الفقرة 1-4-5

2. 11. 3. وتنولد عن تأليفات الفئات التسع عشرة أقسام من اعلامات (وهي لا تستند بشكل كلي كل ممكنات التأليف).

- علامة نوعية أيقونية خيرية: إدراك لون أحمر باعتباره علامة

على الجوهر التوليدي لـ «الأحمر» . إن هذه العلامة تشتغل بصفه
أيقونية ولها أبعاد العلامة الخبرية (خاصة في الحالة التي تسعمل فيها
درجة من درجات الأحمر من أجل الإحالة على مفهوم «أصلي»
علامة مفردة أيقونية خبرية: استنساخ تخططي لعلامة تحيل
على جوهر (حالة مثلث منظور) إليه باعتباره تمثيلا لكيان هندسي
مثلث).

- علامة مفردة مؤشّرية خبرية: صرخة عهوية تشير الاشتباه إلى
موضوع هو السبب في الصرخة، وتشتغل باعتبارها خبرا (حالة
صرخة/إنها سيارة/ تستعمل للتنبيه على وصول سيارة لحظة اجتياز
الطريق).

- علامة مؤشّرية تصديقية: علم يرفرف فوق برج تفيد «إن
الريح تهب من الشمال» وذلك بعمل وجود رابط شبيه مع انظرهرة
الفيزيقية.

- علامة معيارية أيقونية خبرية: حرف إشارة من فيل / هذا ،
وتشتغل علامة من هذا النوع وحوود الشيء قريبا من الموضوع مما
يمنع الشيء وجودا معياريا للموضوع المجرد الذي هو الخبر. ومن هـ
جاء استعمال / هذا / مع اسم، وهو ربط يتتبع ملفوظات من نوع / هذا
الحظ. / إن إعادة إنتاج علامة من هذا النوع يدخل ضمن العلامة
المفردة الأمارية الخبرية.

- علامة معيارية مؤشّرية تصديقية: وفي هذه الحالة يعطي بيرس
أمثلة تختلف عن بعضها البعض: صراح بائع، أو البراح، النداء يا
هذا / (باعتباره نوعا مجردا) «الرد» / إنه الكسندر / على سؤال، من
يمثل هذا اليورترية؟ . إن الأمر يتعلق بنموذج مجرد لعلامة وظيفتها
تمييز الحضور الفعلي لموضوع يشار إليه عادة وبشكل مجرد، من

حلال خبر. ومن هنا تأتي الصرخة التي تعلن عن «إنه الملك».

- الرمز الخبري المعياري: اسم مشترك، لفظ عام ينظر إليه باعتباره نوعا. والعريب ألا تكون نسخة علامة من هذا النوع علامة مفردة رمزية خبرية، وتصنف ضمن علامة مفردة مؤشورية خبرية (يريد بيرس بالقول إن نسخة لفظ مجرد /كلب/ هي دائما /هذا الكلب/ الذي كما نتحدث عنه في هذه اللحظة بالذات). إلا أن هناك علامة مؤشورية خبرية تعد استنساخا للعلامات المعيارية المؤشورية الخبرية، مثل السحرة المجسدة /eb la/ بمعنى / أنت الذي أنادي عليه.

- الرمز التصديقي المعياري: قضية عادية لها وجود مجرد مثل /القط أسود/ الذي يفترض وجود رمز خبري تصديقي هو علامة معيارية مؤشورية خبرية. إن سحته هي علامة مفردة رمزية تصديقية (وهو ما لم يشر إليه بيرس بشكل صريح في تصنيفه)، إلا أنها تستدعي علامة معيارية مؤشورية خبرية (/ إن هذا القط أسود/).

- الحجة الرمية المعيارية: إنها الشكل المجرد للقياس وتشكل نسخته، وفق بيرس، من علامة مفردة تصديقية رمزية، ولكن علينا، استنادا إلى قواعد التأليف، أن نعرض لها باعتبارها علامة مفردة رمزية حجاجية.

2.11.4. والواقع، كما يقول بيرس، «إن الأمر يتعلق بمشكل يتطلب شيئا أكبر من مجرد تحديد إلى أي صنف تنتمي هذه العلامة أوتلك» (265.2؛ 185-1978). وهذا معناه أن العلامات يمكن أن تمثل أمما من خلال خصائص مختلفة وذلك وفق الحالات والظروف التي تستعمل داخلها، وهذا يعود بالتأكيد إلى أنها تمتلك طابعا أساسيا مشتركا وهو ما يشكل موضوع نظرية موحدة للعلامة تتجاوز كل هذه التصنيفات.

الهوامش:

- (1) يطلق على استبدال اسم شيء بشيء آخر لعلاقة مشابهة بين الاثنين مصطلح «الاستعارة»، ولعلاقة مجاورة بينهما مصطلح «الكتابة»، ويطلق على استبدال اسم الكل ببعض أو البعض بالكل مصطلح «المجاز المرسل». وفي عبارة (أشريعة مكتشف أمريكا)، حل المجاز المرسل (أشريعة) محلّ السمع، لأن الأشرطة جزء من السفن، وحل (مكتشف أمريكا) محل (كولومبس) - (س.ع.).
- (2) إن هذا الطيار حريص على تطبيق القوانين، لكن هذا لم يمنعه بالأمس من صنع فرس من خشب، فالعبارة العربية تتعمل كلمة فرس لكي تجعل على التشدد وتتعامل كلمة فرس الثانية لتدل على العرس (المرجع العربي).
- (3) يصحّ هذا أيضاً على حرف الجر العربي (في)، الذي يمكن استخدامه كدال مستقل، أو كجزء من حال مثل (ينفي) أو (يستوفي) - (س.ع.).
- (4) تعني كلمة (grenade) - رمانة، كما تعني قبلة يدوية، ولذلك فالاستعمال الإنجليزي للكلمة مشابه تماماً للاستعمال العربي لها، حيث تشير إلى ذكوة الرمان أو القبلة اليدوية - (س.ع.).
- (5) تعني كلمة (revolver) المسدس ذا البكرة من الطراز القديم، وكلمة (pistolet) البندقية الصغيرة. أما كلمة (aeroplane) فهي الطائرة، و (avion) الطائرة الشراعية والمقصود من أمثلة المؤلف نفي وجود الترادف في اللغة، حيث تختلف المفردات المتماثلة من ناحية المعنى في امتداد دلالاتها الإيحائية - (س.ع.).
- (6) mandala وهي تمثيل رمزي عند البراهمية والبودية.
- (7) لا توجد فوائس دقيقة لتمثيل الأصوات، بل كثيراً ما يكون المضاوت كبيراً بين ما يُكتب وما يُطلق. على سبيل المثال، يُكتب حرف الون دائماً في العربية بصورة واحدة، لكنه قد يُقرأ بأكثر من (س يقول) أو ميماً من الأسنان كما في (بسمي) أو قريباً من الشين كما في (إن شاء الله) أو ميماً شعوية كما في (يسوع) - إلخ. وبالرغم من أن هذه الألفوفونات هي مجموعات لغوية الون في العربية، فإنها يمكن أن تكون فويسات أو أصواتاً مستقلة فيها أيضاً - (س.ع.).
- (8) مصطلحات بيرس الأساسية في الإنجليزية هي: المؤشر (index)، والأيقونة

(icon) والرمز (symbol).

(9) قطعة متألّفة: يستخدمها البعض كالتالي - وظيفة لغوية شارحة، ولكن فصلًا تركها ميتالغوية لأنها هكذا أدق، وسبق تكريس هذا الاستخدام بالمربية (ميتافيزيقي مثلاً).

(10) مسمّاة للمرجع: أي «عملية صياغة مسمّاة للمرجع»، وكان يمكن استخدام هذه الجملة، ولكن فصلًا استخدام «مسمّاة» لتكريس مصطلح مؤلف من كلمة واحدة ومعبّر حتى أكثر من جملة. وهذه الاستخدامات تكون لها أهمية في فتح النقاش حول أي مصطلح جديد بحيث نصل إلى تكريس هذا ومحو أبعاده المطلوبة لجهة المعنى والاستخدام. (الناشر)

(11) يصح القول نفسه على اللغة العربية، لأنها لغة إعرابية كاللاتينية - (مر غ)

(12) إن التعبير *signe doct* ينظر إليه عادة باعتباره مرادف لـ *disigne*. يستعمل إذن الـ *doct* لترجمة التعت الذي يتطابق حرفياً مع المقابل الفرنسي (*disigne* ملاحظة من المترجم الفرنسي).

الفصل الثالث

المقاربة البنوية

1.3. اللسان باعتباره سفناً وبنية

لقد ولدت النظريات الخاصة بالعلامة ضمن سياقات فلسفية وعقدية بالغة التنوع والاختلاف، وهذا ما سنوضحه أكثر في الفصل الخامس. وبناء عليه سيكون من الخطأ خلق تطابق بين السيميائيات والبنوية كما حدث ذلك من قبل. فبيرس وموريس يصفان باعتبارهما من أهم السيميائيين، ولكنهما ليسا بسويين على الإطلاق، وعلى العكس من ذلك، هناك الكثير من اللابيين السويين الذين لم يهتموا أبداً بالسيميائيات باعتبارها علماً.

ولكننا لا يمكن أن نكر أن التيار البنيوي هو الذي وفر في القرن العشرين الشروط الأساسية لدراسة العلامات. ولقد كان لهذا التأثير نتائج هامة: فبما أن المبهجية البنيوية تطورت أساساً في الميدان اللساني، فقد ساد الاعتقاد أنه من الضروري تطبيق النموذج اللساني على كل أنواع العلامات. ومسبب خطر هذا النقل الذي لم يته عند حد بعينه في العترة 4.

على أن هذا لن يمنعنا من تدقيق بعض المفاهيم التي رأت النور في ميدان النسائيات وتم توسيعها لكي تشمل كل أنواع العلامات،

ويتعلق الأمر بمفاهيم من قبيل: بنية، إندال، مركب، تقابل الح. ولن نقف، ونحن نحاول تحديد هذه المفاهيم، عند أبعادها اللسانية الحالية، بل منتظر إليها باعتبارها نماذج (محتملة) قابلة للامتداد لكي تشمل كل الظواهر السيميائية. وسنرى ما هي الطريقة التي يجب اتباعها من أجل تحديد عملية نقلها وتكييفها مع الظواهر الجديدة.

إن المفهوم الأساس في البنيوية هو بطبيعة الحال البنية. وهو مفهوم ولد مع تعريف اللسان عند سوسير (1916): لقد مير سوسير بين اللسان، الذي يعتبره سجلا من القواعد التي تستند إليها أدات المتكلمة، وبين الكلام، وهو الفعل الفردي الذي تستعمل من خلاله هذه الذات اللسان من أجل التواصل مع الآخرين. إن الزوج لسان/كلام، شأنه في ذلك شأن الروح/سنن/إرسالية، يحدد نوعا من التقابل بين النسق النظري (ليس للسان وجود فيزيقي، إنه تجريدي، أي نموذج يخلقه اللساني) وبين الظاهرة المحسوسة (الإرسالية التي أصوغها الآن، وتلك التي تصوغها أنت كجواب الح). واللسان هو «في ذات الوقت متزوج اجتماعي للملكة اللغوية وسلسلة من الأعراف الضرورية التي يبنّاها الجسم الاجتماعي من أجل ممارسة هذه الملكة من لدن الأفراد» (سوسير، 1916، ص 25). اللسان نسق - أي بنية - قابل للوصف التجريدي، وتحكمه مجموعة من العلاقات.

لقد كان النظر إلى اللسان باعتباره بنية تصورا معروفا في أوساط اللسانيين قبل سوسير. فلقد كان هملوت يؤكد قبل ذلك أننا «لا يمكن أن نقبل بالنصور الذي يرى أصل اللسان مرتبطا بتعيين الأشياء من خلال كلمات، ولا ذاك الذي يرى فيه سلسلة من الكلمات. وفي الواقع، فإن الخطاب ليس مصنوعا من الكلمات السابقة عليه. إن أصل الكلمات موجود في الخطاب ذاته» (Gesammelte Werke, VII, 1).

ومن زاوية نظر سوسير، فإن «اللسان هو نسق من العلامات، ويحب النظر إلى أجزائه باعتبارها متضافرة تزامنياً. إن التغيرات التي تلحقه لا تتم أبداً على مستوى النسق، بل تلحق بهذا العنصر أو ذاك، فهذه التغيرات لا يمكن دراستها إلا خارج هذا النسق. وسيكون لهذه التغيرات، دود شك، تأثيرات على النسق، إلا أن الواقعة البدئية لا تتعلق سوى بعنصر واحد فقط، ولا علاقة داخلية لها مع النتائج الخاصة بالمجموع. إن هذا الاختلاف الأساس بين الحدود التتابعية وبين الحدود التي تعايش فيما بينها، بين الوقائع الجزئية والوقائع التي تمس النسق، تمنعنا من جعل هذين البعدين مادة واحدة للعلم» (سوسير، 1916، ص 124).

إن المثال النموذجي الذي يقدمه سوسير في هذا المجال هو لعبة الشطرنج. ونسق العلامات الحاص بالقطع يتغير في كل عملية. فكل مس بالنسق ينتج عنه تغيير في قيمة القطع الأخرى. فكل تغيير تعاقبي ينتج عنه ميلاد علاقة تزامنية جديدة بين العناصر. وما نعنيه بالدراسة التزامنية لنسق ما هو تحليل عناصر هذا النسق من زاوية غير تطويرية؛ أما الدراسة التعاقبية، فتأخذ في الحسبان تطور النسق ونموه، وبطبيعة الحال، فإن التقابل بين الدراستين ليس مطلقاً، فالمستويان متكاملان. إلا أن وصف بنية - سن - يقنضي، وهمياً، تجسيد لعبة التقابلات بين الدال والمدلول، ويقنضي أيضاً تجسيد قواعد تأليفاتهما، كما لو أن هذه العلاقات ثابتة إلى الأبد. فعندما يتم تحديد النسق، تصبح معايير التحولات أمراً ممكناً، من قبيل تحديد أسباب ونتائج هذه التحولات. إن التحولات التعاقبية لنسق / سنن تتحقق، كما سنرى ذلك لاحقاً، من خلال أفعال الكلام التي تؤزم اللسان. (رغم أن سوسير يصرح بأن لدات المتكلمة لا تستطيع وحدها التأثير في النسق والحفاظ على

توازنه). وفي نهاية الأمر، فإن النسق هو الذي يحدد الذات المتكلمة إنه يفرض عليها قواعد التأليفات التي يجب اتباعها.

إن السنن في حالة اللسان يعرف اتساعا نتيجة التثبيت الاجتماعي. ويتعلق الأمر بمعدل الاستعمال. فبمجرد ما يستقيم هذا السنن، يتحتم على كل الذوات المتكلمة استعمال نفس العلامات للإحالة على نفس المفاهيم، والتأليف بينها وفق نفس القواعد. ويمكن فرض السنن على مجموعة من الذوات لتستعملها بشكل واسع بعد ذلك والاعتراف بها كسنن وشفرات (حالة المورس مثلا)، إن سببا أخرى، ومن بينها اللسان، تستعملها الذوات بشكل لا شعوري، رغم طابعها القسري. وهذه الذوات تحضض لها دون أن تدري أنها تحضض لنسق علائقي مفروض.

ولقد وقفت تيارات اللسانيات الحديثة طويلا عند قضية السنن: هل يجب وصف السن باعتباره نسقا مغلقا أم باعتباره نسقا مفتوحا؟ وبعبارة أخرى، هل يقتصر المستعملون على نسق من العلامات المثبتة بشكل نهائي ومودع فيهم، أم أنهم يستندون إلى أهلية طبيعية، أهلية تمكنهم من توليد مقاطع لسانية (تمديد إرسالية) متكونة من تأليفات بسيطة وأساسية، وقابلة للتركيب لكي تصل إلى أكثر العلاقات تعقيدا؟ إن هذا التصور الأخير هو التصور الذي قال به نشومسكي. ومن زاوية النظر هذه، فإن وضع النسق والسنن - واللسان واحد من هذه الأسنن - سيكون حاسما بالسيات السطحية، المتولدة عن بنيات عميقة (وتشكل هذه الأخيرة نسقا من القواعد قد لا تكون قابلة للتمفصل في تقابلات كما هو الشأن مع البنيات الأخرى).

2.3. الإبدال والمركب: التفصيلات⁽¹⁾

نستند فكرة السنن إلى كون الشخص الذي يتواصل يمتلك سجلا من الرموز، يختار من بينها تلك التي سيؤلف بينها وفق قواعد معينة. وبهذا يمكن أن يرسم هيكل كل سنن، من خلال التمثيل له بالامتداد بين محورين أحدهما عمودي والثاني أفقي: إن الأمر يتعلق بمحور لاستندان ومحور المركب. إن المحور الاستبدالي يقوم بتنظيم سجل لرموز والقواعد، ويطلق عليه أيضا محور الاختيار. أما المحور مركبي فهو محور تأليف الرموز التي تقودنا، من خلال تنظيمها في مقاطع مركبة، إلى تشكيل خطاب قائم الذات. وسنرى فيما بعد كيف يمكن لهذا التنظيم أن يكشف عن قوانين خاصة بتمحصل السنن غير اللفظية. ونكتفي الآن بتقديم مثال لساني. فمن أجل تشكيل الجملة التالية: «الفرس يعدو»، علي أن أنتقل من الإبدال إلى المركب استنادا إلى المستويين التاليين:

- أختار في إبدال الفوييم بعض الموبيمات التي أدرجها في المحور المركبي الذي سيقود إلى تحقيق المونيم «le cheval court» . .
- أما في إبدال الموبيمات فلأبني أختار أربع وحدات دلالية وأقوم بالتأليف بينها داخل مركب جملي وفق: le chev-al court.
إن اضطرابات الكلام تكشف، من خلال نوعي الحيسة، عن المحورين الموصوفين أعلاه (جاكسون، 1963). إن المصاب بالحيسة يشكو من اضطرابات على مستوى الاختيار ويفشل في عزل الألفاظ الصحيحة لخطاب ما: فإذا وضعنا أمامه سكبنا، فإنه لا يجد الاسم، ولكنه يستطيع استعمال المركب البديل «يستعمل للأكل». وعلى العكس من ذلك، فإن الذي يشكو من اضطرابات في التأليف، لا يقوم إلا بتصنيف كلمات دون أن يتمكن من الربط بينها داخل جملة

تتمتع بمعنى كامل.

إن مقولتي الاستبدال والمركب يمكن توسيع مجالهما لكي تشكلا كيانات من أحجام كبيرة. ونحن نقصد مثلا خطأنا تحليله جمل مسكوكة من نوع:

إذا كان هناك شيء لا أستطيع تحمله، فهو الجمل المسكوكة.
- أنتظر منذ زمن طويل.

- إن الأنواق والألوان لا تناقش.

يمكن اعتبار كل جملة من هذه الجمل وحدة تم استخراجها من سجل معروف، وإمكاناتها الانصواء داخل تاليفات أكثر اتساعا. ويمكن بنفس الطريقة وصف بعض التاليفات الأسلوبية (أو بعض المصنفات البصرية التي تتألف، مثلا، مع عناصر تم استخراجها من صور إخبارية). وهناك، في مستوى سيميائي أعلى، وحدات لا يمكن النظر إليها باعتبارها علامات، بل تشغل كوظائف سردية (بروب، 1928، غريصاص 1966، الحج) من نوع المنع، حرق المنع، الإغراء، الضرر، وهي وحدات قابلة للتأليف فيما بينها لكي نتج الجزء الأول من قصة «ذات القبة الحمراء» (إذا استمعلنا مثلا الوظائف الأربع المشار إليها).

إن التأليف هو الربط بين عناصر الإبدال من أجل إنتاج مركب. وهناك تيارات لسانية كثيرة تعترف بوجود تمفصل مزدوج للغة:

- يتعلق التمفصل الأول بالوحدات التي تتمتع بمذلول. ويطلق عليها في بعض المدارس «المونيمات»، أما المدرسة الأمريكية فتسميها «المورفييمات»⁽²⁾ (وللاختصار يمكن القول إن «الكدمات المليئة» تشكل عادة هذه الوحدات). وتتألف هذه الوحدات فيما بينها من أجل إنتاج وحدات أكبر: المركبات.

- إن وحدات التفصيل الأول، (وهي بأعداد كثيرة في لغة ما، و نعطينا القواميس فكرة عن هذه الوحدات)، تبنى استنادا إلى تألفات الوحدات التي تنتمي إلى التفصيل الثاني: ويتعلق الأمر بالقونيمات. إنها تمتلك قيمة تميزها عن بعضها البعض، ولكنها بلا مدلول. هكذا، استنادا إلى عدد محدود من القونيمات (أربعون كحد أقصى)، يمكن للسان ما أن يشكل عددا لا محدودا من المونيمات.

إن المونيم هو وحدة صغرى، تتميز بخصائص صوتية مميزة، وتستمد قيمتها من موقعها واختلافها عن العناصر الأخرى. وقد نعرف هذه التبدلات الفونولوجية صيغا حرة أو اختيارية تتغير بتغير اللغات المتكلمة، إلا أنها لا تلغي الاختلاف الأساس الذي يسمح بالتعرف على المدلول.

إن القونيمات تشكل نسقا من الاختلافات، أو خطاطة مجردة يمكن العثور عليها في السنة متعددة، رغم أن القيم الصوتية- الطبيعية الفيزيائية للأصوات- مختلفة.

3.3. التقابل والاختلاف

علينا أن نبحث عن مثال يمكن أن يجمع بين المستويات الاستبدالية الثلاثة وبين المستويات المركبة المتطابقة معها. (ليبرز 1968 و 3.3.6 وبعدها). فلنعتبر في اللغة الإنجليزية مجموعة من الكيانات التي تشتمل على مدلولات (مونيمات) مثل (pet, bet, pit, pot, pen, peck) التي تكتب صوتيا pek، ذلك أن صوتا واحدا في هذا مثال يتم تمثيله من خلال حرفين).

يمكن لهذه العلامات السبع أن تتألف في مركب من حجم أعلى (من نظام الجملة) مثلا⁽³⁾: I bet you let your pet out the pot التي

تعني: «أراهن على أنك نسيت دويشك تخرج من الإناء» (ولا نعرف هل يتعلق الأمر في هذا الملفوظ بسمكة صغيرة أو يكلب صيد، وهذا يدل على أن السياق له تأثير كبير في منح مدلول ما إلى العلامة عدم تكون هذه الأخيرة مرتبطة بدلالات متعلقة، كما هو الحال مع pet وهو لفظ مولد). إن هذا المركب يعود إلى التفصيل الأول .
ولكن كان علينا من أجل تشكيل هذه الكلمات السبع الاستعانة بسجل من الفونيمات وهي:

p e t

B i n

I o k

ويبدو أننا إذا قصا بالتأليف بين هذه الفونيمات التسعة مع فونيمات أخرى، فإننا نحصل على الكلمات التي نريدها: وسنظل هناك تأليفات أخرى لم تستعمل (مثلا كان بإمكاننا إنتاج تأليفات من نوع: bin; bit, li(i)k; lo(c)k، وبالإمكان أيضا إنتاج: bik وlong التي لا وجود لها في اللغة الإنجليزية).

وسنلاحظ أيضا أن العلامة /pet/ والعلامة /bet/ لا تختلفان سوى من خلال الصوت الأول. إن غنى وتمفصل الاستبدال آتيا من كوننا نحصل على تعبير المعنى من خلال استبدال صوت واحد.

إن حصولنا على تغيير في المعنى من خلال الانتقال من /b/ إلى /p/ هو الذي يدفعنا إلى القول إن الفونيمات تشكل، داخل الإبدال، نسقا من التقابلات. إن كل تواصل (وتبعا لذلك كل دلالة) يستند إلى تقابلات منظمة في أنساق. فإذا قررت أن أبلغ إلى ملاحظ حارحي وجود شخص في منزلي من خلال وضع مصباح في نافذتي، فإن مصباح مضيء/ سيبصيح عنصرا دالا، لأنه يتقابل مع / عياب مصباح

وإذا قررت أن أبعث بإرساليين (مثلاً «شخص مقبل» و«شخص يصادر») بواسطة إشارتين يمكن أن تكونا مصاحبا أحمر وآخر أخضر، فإن التقابل يصح بين الأحمر والأخضر. وعليه، فإننا في كل سيرة إبلاعية، وفي كل لحظة، حتى في حالات الاستبدالات الأكثر تعقيدا، سنختار بين حضور وغياب، وبين نعم أو لا، بين + و-.

إن مقولة التقابل مقولة أساس في اللسانيات البسيطة (ترويتسكوي، 1939، جاكسون 1956)، ولقد تم تطبيقها على أنساق أخرى غير اللغة.

مع ذلك علينا أن نتوقف قليلا للتساؤل لماذا تقابل /p/ مع /b/؟ إن هذين الصوتين يتقابلان صوتياً أو فونيمياً من زاوية خصائصهما التفاضلية (d) هي الطريقة التي تنتج بها هذه الحروف من خلال لساننا، أو شفاهنا أو اللثة) مع بعضها البعض من حيث إن الأول مهموس والثاني مجهور وكلاهما شفويان⁽⁴⁾.

ولنأخذ كمثال على ذلك مجموعة أخرى من الأصوات استنادا إلى خمس خصائص تفاضلية (اللهوية والشفوية والأسنانية والجهرية والغنية):

	g	k	m	n	b	p	
- اللهوية	+	+	-	-	-	-	
- الشفاهية	-	-	+	-	+	+	
- الأسنانية	-	-	-	+	-	-	
- الجهرية	-	-	+	+	+	-	
- لغوية	-	-	+	+	.	.	

إن هذه الخصائص التفاضلية هي خصائص نطقية في المقام

الأول. إلا أن بعض هذه الخصائص التفصيلية لا تعتبر، من زاوية استبدالية (إبداع مجرد ينظم اشتغال اللسان)، ملائمة في تمثيل هذا الموييم عن ذاك. ولا يجب، من نفس الزاوية، أن تأخذ بعين الاعتبار التآليعات: /bik/ و /lon/، في دراسة معجمية للإنجليزية، لأنها لا تشكل وحدات معجمية لها معنى (فعلى الرغم من أنها وحدات تم الحصول عليها من خلال تآليعات مركبية لعناصر تنتمي إلى التمعصل الثاني، فإنها لا تدخل في نطاق الاستبدال الخاص بالتمعصل الأول). هناك في جوهر الخصائص التفصيلية سمات غير وظيفية: والتقابل /مجهور/ (م) / مهموس/ تقابل مميز في الانجليزية، لأنه يسمح بما بمقابلة /pet/ ب /bet/. أما القول بأن n هو حرف أنفي أو أسناني أو مجهور، فإنه يقدم لنا معلومة إضافية. وبالفعل فإن /m/، مثله مثل /n/، هو أنفي ومجهور (وهو غير أسناني)⁽⁵⁾، ولكن لا وجود لأية كلمة إنجليزية تتميز عن أخرى من خلال التقابل /أنفي لا مجهور/ (م) / أنفي مجهور/. ومن هنا بالإمكان ألا تأخذ بعين الاعتبار السمة مجهور ل /n/ و /m/ في دراسة اقتصاد السمات المميزة. وهذا ما يجعلنا نعتقد أن السمات المميزة هي شيء آخر غير الخصائص التفصيلية: فالسمات المميزة تستعيد من هذه الخصائص تلك التي تدخل ضمن نسق من التقابلات التي تشتغل في إبدال لغة ما من أجل إنتاج تآليعات مركبية للوحدات الدالة. وبإمكان عالم الصوت أن يدرس مجهورية /n/، لأن الأمر يتعلق بواقعة فيزيقية قابلة للمعاجة من خلال أدوات. إلا أن الفونولوجي الذي لا يدرس قوانين الأصوات، بل قوانين اللسان باعتبارها نفا من القواعد، لن يهتم بهذه الخاصية الفيزيكية. وذلك لأنها لا تشكل سمة مميزة. وقد اتفق اللسانيون على إطلاق اسم «الحاف» (emique) على كل القوينات المدروسة (أو المية) بصفتها

عنصرًا مجردًا لنموذج نسقي، وتمت صياغة اللفظ قياسًا على اللفظ فونيميث، المرادف لفونولوجيا، وأطلقوا اسم «مستل» étique على كل الفونيمات التي ينظر إليها باعتبارها حوادث مادية مخصوصة، كما هو لشأن مع النطق بصوت ما (وقد صيغ هذا اللفظ استنادًا إلى فونيثيك، وهي التخصص الذي يدرس الفونيمات المفصلة الملموسة).

إن الوحدات التي تشكل هذا النسق المجرد من التقابلات الصوتية هي أصوات اللسان. مثال ذلك أن علم الأصوات يعترف بوجود صوتين نكتبهما عادة: /i/ و /i:/ . الأول هو ذاك الذي نعثر عليه في الكلمة الانجليزية /ship/ (الباحرة)، والثاني هو الذي نعثر عليه في الكلمة /sheep/ (الخروف)^{٦٠}. ففي الإنجليزية يشكل هذان الصوتان فونيمين (يمكن كتابتهما بطرق متعددة). ولكن بإمكان الفرونكوفوني أن ينطق الحرف «i» في كلمة livre باعتباره /i/ أو باعتباره /i:/، فالمعنى لن يلحق به أي تغيير. إن النظام الفونولوجي (أو الفونوثيكي) الفرنسي هو نظام مجرد من التقابلات الذي لا يميز بين هذين الفونيمين الفونوثيكيين.

الشيء

إن البنية، من الناحية المبدئية، هي نسق متكون من تقابلات واختلافات، فهناك ما هو ملائم ولكنه لا يعود إلى طبيعة المنصر، بل يتعلق بغيابه أو حضوره، إن الأمر يتعلق بنسق الغياب والحضور اللذين ينظر إليهما باعتبارهما قيمة مستكة أو فارغة، ولا تأخذ بعين الاعتبار الطبيعة المادية للعناصر المسؤولة عن ميلاد هذه القيم. وهذا ما يفسر إمكانية تطبيق بنية نسقية على فونيمات تواصلية غير لسانية. وإذا أخذنا بعين الاعتبار المصفوفة الأولية التالية:

+	-
-	+

أمكن القول مثلاً إنها تشير إلى علاقات نسقية موجودة بين وحدتين غير خاليتين مثل /n/ و /p/ :

p	n	
+	-	- لهوية
-	+	- جهوية

ولكنها قد تشير إلى الاختلافات بين إشارتين، مثل «قرص أحمر» - الذي يشير إلى منع المرور- وبين «راية خضراء» التي تسمح بالمرور:

أحمر	أخضر	
+	-	قرص
-	+	راية

إلا أن هذه المصنوفة لا تعود إلا إلى العناصر الشككية للثال. فهل بإمكانها أن تحدد خصائص الرابط بين الثال والمدلول؟ إن هذا الأمر ينبغي:

لا مرور	مرور	
+	-	قرص أحمر
-	+	علم أخضر

وما يمكن تأكيده هو أن هذه المصنوفة لا تمكننا من تحديد المدلولات المرتبطة بهذا الثال فحسب، بل تمكننا أيضاً من بنية المدلولات داخل نسق من التقابلات (مرور (م) لا مرور) ونجعل من تقابلات المدلولات شبيهة بتقابلات الثال.

إن هذا المثال سيسمح لنا بالتشديد على الاختلاف بين النسق والسنن. فهناك من يسمي خطأ النسق الفونولوجي «مسا فونولوجيا» ولكن سيكون ينبغي عند شخص يتعامل مع المصنوفة الساعية أن يظر

إليها باعتبارها تحتوي على نسقين: النسق الذي يقابل بين الأحمر والأخضر، وذلك الذي يقابل بين المرور وعدم المرور، وسيبدو له أيضا أن هذين النسقين مستقلان عن بعضهما البعض. ومع ذلك، هناك سر وظيفته هي الربط، دلالية، بين قيم النسق الأول وقيم النسق الثاني، بحيث يمكن أن / حضور القرص الأحمر / أن يدل على «لا مرور».

ولكن لماذا يتم باستمرار الخلط بين النسق والسق؟ إن الأمر يعود إلى أسباب كنائية: فالنسق، كذلك الذي تشتمل عليه اللغة، ينتظم من أجل الحصول على الدلالة، ولهذا فإنه لا يمكن أن يوجد إلا في علاقته بسنن. ولكن هنا السبب هو سبب تجريبي خالص.

يمكن، نظريا، انطلاقا من المثال السابق، ملاحظة أن النسق لدل (أحمر / أخضر) منفصل عن النسق المبدولي (أو النسق لدالي). إن الأمر كذلك بحيث ستطبع ألا نمر النسق الدلالي لكي نربعه بنسق دلالي آخر (مثلا مرور (م) المودة إلى الحلف، أو مرور سهل (م) مرور صعب كما هو الحال في المباريات التنافسية التي يتبارى فيها الأغنياء مع الجمال من أجل الدخول إلى مملكة السماء عبر المرور من عبر الإبرة حيث يدل الأحمر على «مرور صعب» والأخضر على مرور سهل).

وهذا يعني أن النسق ينتظم وفق أسباب موضوعية (التقابل بين /p/ و /b/ تستند إلى أسباب نطقية، والتقابل بين /مرور/ و /لا مرور/ يمكن أن يحكمه مقام ملموس يشتمل على اختيار الفئات هذا الحل دون ذلك، كما وقع لموسى عندما وصل إلى ساحل البحر الأحمر). وبالمقابل، فإن السق يتأسس بشكل اعتباطي (حتى وإن كان هناك من يقول بأن هناك أسبابا موضوعية تعود إلى الإدراك أو إلى قاطبة رد

الفعل، تدفعنا إلى الربط بين الأحمر وبين المنع، وهي أسباب سنهار إذا نحن وضعنا علما أحمر يرفرف على واجهة حزب يساري).

استنادا إلى هذا، يمكن القول إن السنن يقيم معادلات دلالية بين عناصر تنتمي إلى نسق الدوال وبين عناصر تنتمي إلى نسق المدلولات. إلا أن هذا التعريف يطرح مشكلة: لماذا تنتظم المدلولات دائما انطلاقا من النموذج الذي تقلعه الدوال؟ وبالفعل، فإن الكلمة، في إطار سنن ما، يتحدد مدلولها بفعل غياب كلمة أخرى تحتل مدلولاً مشابها ولكنه مختلف. ففي الفرنسية بدل الدال / تلح / على مدلولات متعددة (تلح نقي، تلح رخو، التلح المتساقط، والتلح الذي يكون طبقة على الأرض، والتلح المتجمد، والتلح في حالة الذوبان). والحال أن الصيانة على وجود هذه المعاني المتعددة عند الإسكيمو هي وجود كلمات مختلفة. وما عليه، فإن النسق هو الذي يؤسس بنية علائقية بين الألفاظ، وهي التي تميز بين قيمها الدالة. ومن هنا تأتي الحاجة إلى دراسة دقيقة ومهجية تقوم بتصنيف المدلولات دون الاستعانة بالرباط بين الدال والمدلول.

إن تطبيق الإجراء البنيوي على المستوى الدلالي، معناه عند هلسليغ (1957)، دراسة القيم الموقعية للملامة، لا المدلول في ذاته. فالمدلول يتجلى بفضل صيغ الاستبدال (تغيير الدال يؤدي إلى تغيير المدلول) والاستماضة (تغيير الدال لا يؤدي إلى تغيير المدلول). إن النوع الأول من التحكم يكشف عن ثوابت النسق، أما الثاني فيكشف عن المتغيرات السياقية.

وسنرى في الخطاطة الآتية كيف أن الكلمة الفرنسية /arbre/ تعطي نفس الحقل الذي نعطيه الكلمة الألمانية /baum/. إن الكلمة الفرنسية /bois/ تتطابق أحيانا مع الإيطالية (/legno/ الحطب كمادة)،

وأحيانا مع (/bosco/ الحطب باعتباره مجموعة من الأشجار)، في حين نستخدم /foret/ من أجل تمييز مجموعة من الأشجار أكثر شجاعة وكثافة ومن جهة أخرى، فإن الكلمة الألمانية /holz/ تتطابق مع /lengo/ ولا تتطابق مع /bosco/، والكلمة /wald/ هي التي تحيل في الوقت نفسه على المفهوم وعلى ما هو معين من خلال الكلمة.

الفرنسية	الألمانية	الدنماركية	الإيطالية	الإنجليزية
arbre	Baum	træ	albero	tree
bois	Holz		legno	timber
	Wald	skov	bosco	wood
forêt			foresta	forest

إن هذه الخطاطة لا تضعنا أمام «أفكار»، بل أمام قيم مشتقة عن سبق، وتتطابق هذه القيم مع ما يمكن أن يطلق عليه مفاهيم، وهي مفاهيم لا تولد ولا يمكن الإمساك بها إلا باعتبارها اختلافات، إنها لا تتحدد من خلال مضاميتها، بل من خلال الطريقة التي تتقابل بها مع العناصر الأخرى المكونة للنسق.

وهي أيضا تنور على اختيارات اختلافية متعددة يمكن أن نصفها اعتمادا على النمط البيوي. فليس من الضروري معرفة فحوى المدلول (سواء بطرما إلى الأمر من زاوية فيزيقية أو مظهرنا إليه من زاوية وجودية) يكفي أن تكون لنا القدرة على التأكيد أن المدلولات مرتبطة، داخل سن معين، بدوال بعينها. فإن تكون هذه المدلولات

محددة عادة باعتبارها «مفاهيم» أو باعتبارها «أفكارا»، فإن ذلك ليس من الطبيعي في شيء؛ أو أن الحصول عليها يتم من خلال استعمال وسائل، فإن ذلك أمر مشروع. ولكن بمجرد ما نقيم السبعيات سنا ما، فإن المدلول يكشف عن أن يكون كيانا نفسيا أو وجوديا أو سوسولوجيا: إنه ظاهرة ثقافية قابلة للوصف بفضل نسق من العلاقات يكشف عنها السنن باعتبارها ما تتلقاه مجموعة معينة في لحظة ما.

4.3. البنية بصفتها نموذجا

بحيل كلود ليفي شتراوس أيضا على التصور السوسيري للبيئة صدمنا يتناول بالدراسة الظواهر الاجتماعية باعتبارها تواصلات، إنه يحدد البنية باعتبارها تشاكلا يجيب عن شرطين:

- الشرط الأول: أن تشكل نسقا خاصعا لمبدأ التماسك الداخلي.

- الشرط الثاني: أن يظل هذا التماسك غير مرئي عند داك الذي يتأمل نسقا معزولا، لكي لا يظهر إلا لحظة حدوث التحولات التي تمكن بعض الخصائص المتماثلة من الانشاء إلى أنساق مختلفة ظاهريا. (لوفي شتراوس، 1960).

وإذا دققنا النظر في هذا الأمر، فإن هذا التأكيد يستدعي مقولتين متساويتين في الأهمية:

- 1- إن البنية نسق يحكمه تماسك داخلي.
 - 2- إن البنية وليدة المقارنة بين ظواهر متعددة من أجل ردها إلى نفس النسق العلاقي.
- وعلى أن يلق النظر في هاتين النقطتين، لأن ذلك سيمك من تحديد مقولة البنية التي سماها، كما سنرى، مع مقولة السنن.

نفسه في هذه الحالة، فلهذا نرى أن دراسة الإنسان في علم النفس
 لا يمكن أن تكون دراسة بسيطة، بل هي دراسة معقدة، لأنها
 وتتطلب من مثال بسيط، يمكننا من التعرف على العمليات التي
 تقوم بها عندما نتعرف على البنيات في صادين أكثر بلورة.

ولنأخذ الكائنات البشرية. فمن أجل تحديد الخصائص المشتركة
 فيما بينها (وهو ما يسمح لي بالتعاطي مع ظواهر مختلفة من خلال
 استعمال أدوات منسجمة)، علي أن أقوم بعمليات تبسيطية. بإمكانني أن
 أختصر جسم الإنسان في خطاطة مستماهي مع الهيكل العام وأعطي
 بعد ذلك لهذا الهيكل تمثيلا مبسطا. وهكذا أكون قد تعرفت على بنية
 مشتركة لمجموعة من الكائنات البشرية، أي على نسق من العلاقات
 والمواقع والاختلافات بين عناصر منفصلة، قابلة للتمثيل من خلال
 خطوط ومواقع طولية محددة. ومن الواضح أن هذه البنية تشكل أيضا
 سننا أي سقا من القواعد التي يجب أن يخضع لها الجسم، كيفما
 كانت خصائصه الفردية، لكي نتعرف عليه باعتباره جسما إنسانيا.

ومن الواضح أيضا أن هذه البنية ليست فقط تبسيطاً، أي إفقاراً
 للواقع. إن هذا التبسيط ينظر إليه باعتباره بشكل جهة نظر بعينها. إنني
 أختصر الجسم الإنساني في بنية هيكلية، لآسي أروم دراسة الجسم
 الإنساني من زاوية نظر هذه البنية، أو من خلال تلك التي تجعله
 «حيوان واقفا» أو ذا قائمتين ويمتلك رجلين إحداهما فوقية والأخرى
 سفلية. أما إذا قررت دراسة الجسم الإنساني من زاوية نظر تكون
 الخللايا، فلأنني سأستند إلى نماذج من طبيعة أخرى. وعلى هذا
 الأساس فإن البنية هي نموذج تمت بلورته استناداً إلى قواعد تبسيطية
 تسمح لنا باستيعاب مجموعة من الظواهر من جهة نظر معينة.

وبهذه الطريقة يستطيع مثلاً سنن صوتي استيعاب الاختلافات
 المصريقية للتحليلات الصوتية (phonématique)، من زاوية نظر سنن
 مجموعة من الأنساق الخاصة بالمدلول. فمن أجل إقامة هذا السنن،

أقوم ببلورة مجموعة من العلاقات ذات الطبيعة الفونمية، وأعثر المتغيرات البيرية متغيرات حرة (والحال أن الأمر مختلف في سنن آخر، في اللغة الصينية مثلا، فهذه المتغيرات ستكون لها قيمة اختلافية وستتطابق حينها مع اختلافات المدلول).

فإذا أردت أن أتحدث عن الإنسان وعن الشجرة استبد، إلى نفس الراوية (لأنني أريد مثلا مقارنة وضعية كل منهما بالنسبة إلى الآخر ضمن دراسة لأطرافهما وحجمهما في منطقة بعينها) فعلي أن أقوم بتبسيطات بيوية إضافية. سيكون بإمكانني مثلا احتصار الهيكل الإنساني في بنية أكثر بساطة يمكن التمثيل لها من خلال العلامة التالية:

وبإمكانني أن أواجه هذا الرسم بسدجة حاصة بالشجرة، التي يتم تمثيلها من خلال العلامة التالية:

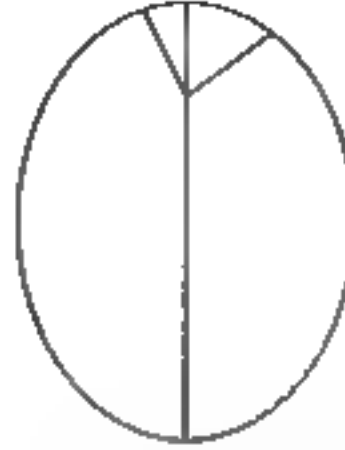


وبإمكانني مواجهة هذا الرسم بآخر للشجرة



«الشيء» نموذج ذو «بنية» مشتركة مع «الشيء» من نوع
«رسم» مختلف «فرقة» «جيرة».

وستقوم باختصارهما في نموذج مشترك يمكن التمثيل له على
الشكل التالي:



وبهذا نكون قد تعرفنا، اعتماداً على سلسلة من التجريدات
وانتمدجات المتتالية، على معنى مشترك بين الشجرة والإنسان، أي
على بنية تناظرية، مشتركة بينهما.

إن ما اقترحتهُ هو نموذج نطلق عليه «نموذجاً تناظرياً». ومع
ذلك، فإن موضوع الرهان داخل هذا النموذج هو مواقع، وتقابلات
واختلافات: مثلاً التقابلات: عمودي (م) مائل، يمين (م) يسار،
أعلى (م) أسفل، إن الذي سبق له أن استعمل حاسوباً يعرف أن بإمكانه
لحصول على معلومات يمكن صياغتها على الشكل التالي: + و 0 و -،
أو 1 (م) 0، أو نعم ولا، لتختصر هذه الصيغ في ميات تناظرية.

وهنا نكون أمام موضوع فلسفي بالغ الأهمية: هل البنية شيء
(مثل ذلك الذي يقدمه النموذج التناظري الذي أشرنا إليه)؟ هل هي
موجودة في استقلال عن ملاحظتنا؟ من الواضح أن البنية كما تم
الكشف عنها لا وجود لها في ذاتها: إنها حاصل العمليات التي قمنا
أو نتوحيها، إن البنية هي نموذج قمت ببلورته لكي أتمكن من تعيين
لأشياء المختلفة بطريقة منسجمة. ومع ذلك ألا نقوم، من أجل بلورة

هذه السيات، بعمليات ذهنية تتميز بكونها متناظرة مع العلاقات التي تسجها الأشياء فيما بينها في الواقع. وها سيلوح التقابل بين سيونة وحادية ونيوية منهجية.

لقد رأينا كيف أننا انتقلنا من بنية-سن صالحة لعدد من الكائنات الشرية إلى بنية-سن صالحة لعدد من الكائنات الشرية وعدد من الأشجار. وفي الحاليتين معا، يتعلق الأمر ببنيات، إلا أن البنية الثانية ناتجة عن تبسيط للأولى. وهكذا، علي، كلما تعرفت على بنية لتناظر داخل حفل معين من الظواهر، أن أتساءل ألا توجد بنية لهذه البنية، سن لهذا السنن يسمح لي بتطبيق سلطته المحموية على حفل أوسع من الظواهر؟

وهذا ما قام به الفونولوجيون واللسانيون، فبعدما عزلوا نسق العلاقات الموجودة في لسان معين، تساءلوا ألا يمكن مقارنة هذا النسق بنسق العلاقات الموجودة في لسان آخر، بواسطة سنن يأخذ في الحسبان، في الوقت نفسه، السبق معا. وتبعاً لذلك ألا يوجد سنن يسمح لنا بمقارنة العلاقات الداخلية للسان ما مع تلك التي تحكم نسق القرابة، ومقارنة هذا النسق الأخير بالنسق الذي يحكم بنية أكواح القرية موضوع الدرس. وهي العمليات التي قامت بها بنجاح الأنثروبولوجيا البيوية.

من تبسيط إلى تبسيط هاك هو حلم البيوي، إنها الرغبة في الوصول في الحدود القصوى، إلى سنن السنن، سنن يمكننا من الوصول إلى نفس الإيقاعات ونفس الروابط (نفس العمليات ونفس العلاقات الأولية) داخل كل سلوك إنساني، سواء كان ثقافياً أو بيولوجياً. إن هذا النسق الأصلي يكمن في أليات الفكر الإنساني نفسه الذي يشابه مع الآلية الضمنية للسيرورات العضوية. ويتعلق الأمر، في

لعمق، باحتصار كل السلوكات الإنسانية، وكل الأحداث العضوية في التواصل، واحتصار كل السيرورات التواصلية في نفس النموذج استوي.

ومع ذلك، فإن هذا الأمر لا يعني أننا نصل إلى كشف هذه سمادج البيوية من خلال تبسيط متال للشيء الذي نعرفه. إن الأمر أبعد من ذلك، والمنهجية البيوية لا تكمن عادة في الحصول على بية (لأن هذا يعني دورانا بلا نهاية) - إنما على العكس من ذلك نقوم بتصورها، ونختارها من خلال منحها وضع فرضيات، أو نماذج نظرية تقودنا إلى التسليم بأن الظواهر المدروسة تخضع للبية كما تمت بدورتها. ونأتي بعد ذلك عملية المراقبة. ولا تكمن مهمة الباحث في وضع كل الظواهر على سرير بروكوست، بل عليه أن يفتح على كل العناصر التي لا تستقيم داخل النموذج، والاستعداد لتصحيحه. ولقد أثبت هذا الإجراء خصوصيته في ميادين متعددة، مما سمح بعدم تكرار البحوث التجريبية التي قد تكون لامنتهية، من خلال طرح فرضيات بيوية تكون قابلة للمراقبة المباشرة وتحديد فقط ضعفها.

إن التعرف على سنن ما يقتضي، كما رأينا ذلك، اتخاذ موقف نظري، وهو موقف شبيه بصياغة فرضية. وبالتأكيد، على اللساني قبل أن يتعرف على قوانين اللعبة، أن يأخذ في الحسبان مجموعة من السلوكات اللسانية الصحيحة. ولكنه لن يكون بمقدوره الإمساك بشكل شمولي بكل مساح هذا السلوك، وبكل أفعال الكلام الممكنة، وبكل الإرساليات التي تبتها الدات المتكلمة. عليه في لحظة ما أن يقوم، من خلال قفزة موعية، بالخروج من حقل تراكم الوقائع لكي يلح عالما آخر: عالم بناء النسق اللغوي.

وتلك هي الطريقة التي ستعملها كلما كنا أمام سنن محدد.

فالمستن هو نموذج لسلسلة من الأعراف التواصلية، هو نموذج يمنع بوحود نظري، ونحن نقرصه للكشف عن إمكانية بث إرساليات.

5.3. الوظيفة السيميائية

لقد كان هلمسليف أول من اقترح أكثر التحليلات دقة حول سبه العلامة أو الرابط الدلالي، (1943). فله يرجع المصل في صياغة العبارة: «الوظيفة السيميائية». فهو يعرف طبيعة وبية العلامة، وفي الآن نفسه يقدم لنا تعريفا للطبيعة التنظيمية للسُنس التي تتحكم في استعمال العلامات على الشكل التالي:

مضمون	مادة
	شكل
تعبير	شكل
	مادة

فداخل كل سيرورة سيميائية، نكون أمام عنصر يعود إلى التعبير (نسقي دائما دالا) وهو كيان حامل لعنصر ينتمي إلى المضمون (المدلول). فعندما نتكلم، فإننا نتج مجموعة من الفونيمات الصوتية، ولكننا عندما نقوم بتقطيع الأصوات المتصلة، فإن النسق التركيبي للتعبير لا يحتفظ سوى ببعض ما تم التلفظ به (وهكذا فإن ما تستعمله اللغات من فونيمات لا يتجاوز الأربعين، وعالبا ما يكون أقل من ذلك). فإمكانني أن أنطق في اللغة الفرنسية /fi/ الواردة في كلمة fire. على هيئة النمط المختصر أو النمط الطويل: هي الحالتين معا، فإن المستمع سيتعرف على نفس الكلمة. ويعبارة أخرى، أنا حر في أن

أطلق /i/ أو /ɪ/ وعلى التقبض من ذلك، فإن الأمر مختلف في اللغة الإنجليزية. فلقد رأينا أن هذه اللغة تقيم تقابلا بين /ʃɪp/ و /ʃi:p/ (وهما نكتان * /ship/ الباحرة و * sheep الخروف). وبناء عليه، فإن التقابل بين i و /i/ لا يشكل في الفرنسية جزءا من شكل التعبير (حتى وإن كان يشكل بلا ريب جزءا من المادة الصوتية)⁽⁷⁾.

إن هذا التعريف يحتاج، بالتأكيد، إلى تعميق، لا لأنه يلقي الكثير من الأصواء على كون العلامة كيانا بوجهين (كما يقول سوسير)، بل لأنه يشدد على الاستقلال المتبادل بين التعبير والمضمون.

فالعلامة عند هلمسليف ليست شيئا يحل محل شيء آخر كما كانت تقول بذلك التصورات التقليدية، (1943، الفصل 13). إن العلامة هي وظيفة ناتجة عن العلاقة المتبادلة بين موظفين، التعبير والمضمون. فكوني أستطيع استعمال الصوت /س/ لتعيين القمر لا تجعل من الصوت /س/ علامة على القمر. فلا يمكن الحديث عن وظيفة سيميائية إلا عندما تكون هناك قاعدة نصع موظما الذي هو لتعير /س/ في علاقة مع الموظف الذي هو المضمون «كوكب أرضي»، ولكن بإمكانني، استنادا إلى قاعدة أخرى، أن أضع الصوت /س/ في علاقة مع مضمون آخر. «الكوكب الثاني في المشتري»، حينها أكون أمام وظيفة سيميائية جديدة، حتى وإن ظل الصوت /س/ وحده، في جوهره. إن التعبير والمضمون هما موظمان داخل وظيفة سيميائية، وبذلك فهما يفترضان بعضهما البعض. «فإذا فكرت دون أن أتكلم، فإن الفكر ليس مضمونا لسانيا (...) وإذا تكلمنا دون أن نفكر مولدين أصواتا بدون معنى، فإننا لن نحصل لا على تعبير لسانى ولا على وظيفة سيميائية للوظيفة/علامة»⁽⁸⁾.

ولقد كان لمقولة الوظيفة السيميائية تأثير كبير على مجموعة من

النظريات الخاصة بالعلامة، فقد عرفت طريقها إلى مبادئ متعددة خارج الميدان اللساني. وإذا صح مقترح شارل موريس القائل بأن كل شيء يمكن أن يصبح علامة شريطة أن يؤول باعتباره كذلك من لدن مؤول، فإن كل موضوع يمكن اعتباره تعبيراً في حدود اشتغاله كموظف داخل وظيفة سيميائية. إن مقولة الوظيفة هاته لا تقف عند حدود تعريف علامات، كما هو الشأن مع كلمات اللسان، أو علم السن البحري، بل يمكن توسيعها لتشمل مبادئ أكثر تعقيداً: فالعلاقة الربطة بين مجموع واسع من النصوص (مثلاً كتاب، أو لوحة) وبين مضمونه تشكل وظيفة من هذا النوع.

6.3. التقرير والإيهاء

يحيل التعبير عند هلسليف على مضمون خاص به. وهذا معناه أن هلسليف (واللسانيين السيويين) يستخدم مفهوم التقرير بمعنى مختلف عن المعنى الذي يعطيه له فلاسفة اللغة ومناطقية التقليد الانجلوساكسوني. ومن المفيد شرح ما تحيل عليه مقولتنا التقرير والإيهاء.

إن تقرير لفظ ما في فلسفة اللغة يعين عادة مجموع الموضوعات التي يحيل عليها هذا اللفظ، وهكذا فإن «تقرير» جملة ما أو ملفوظ هو حالة من حالات الأشياء التي تتطابق مع هذا الملفوظ. وبهذا المعنى، يمكن اعتبار التقرير ترجمة (إن تقرير تعبير ما هو ترجمته). وهناك من الكتاب من تبنى التمييز الذي اقترحه ج. س. ميل (1843، 125): «كلمة» أبيض «تعين هذه كل الأشياء البيضاء، مثل الثلج والورق، وورد الأمواج، وتستدعي، أو توحى، حسب الحدود السكولانية، بالخاصية بياض».

إن تعبيراً ما «يقرر» إذن فسمّا من الأشياء، وتعد هذه العبارة اسماً له، وتوحي بالخاصية أو الخصائص التي يعتمد عليها أفراد مجموعة لغوية ما في التعرف عليها باعتبارها تنتمي إلى هذا القسم. فإذا كان الإيحاء والتقريب مرتطبين فيما بينهما بنفس الرابط الذي يجمع بين الماصدق والمفهومية (كما يؤكد ذلك مجموعة من المؤلفين)، فإن التقرير سيكون هو وظيفة للإيحاء. وبعبارة أخرى، إن الإيحاء يحدد الاستعمال التقريبي أو المرجعي الممكن لتعبير ما (انظر كارناب 1955). ويمكن أن نمثل لائحة الأرواح المترادفة: التقرير / المدلول عند روسل (1905)، مرجع / مرجعية عند ريتشارد و أوغلدن (1923) الماصدق / المفهومية في مطلق بور رويال. هذا مع العلم أن بعض المؤلفين يستعملون لمط تقرير من أجل التعبير عن الإحالة على كيانات، ويستعملون الماصدق من أجل الإحالة على أقسام. إن التقابل بين التقرير والإيحاء يتطابق في النهاية مع الزوج: *bedeutung/sinn* فريجه (المعنى والمرجعية)، حتى وإن كان الحد الأول، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً، قد ترجم خطأ إلى المرتسبة بالمدلول. إن نظرية هلمسليف تبتعد عن هذه المواقف: فيما أنها تهتم ببنية الأنساق السميولوجية، فإن قضية المرجعية ليست ملائمة.

إن اللساني لا يهتم، في الواقع، بالروابط بين العلامة ومرجعها لموضوعي المحتمل، بل يهتم بالتكرين الداخلي للعلامة، ويقدرتها على خلق دلالات، كما يهتم بالروابط بين الدال والمدلول. فعندما يجد اللساني نفسه أمام كلمة / أم /، فإنه لا يضع على عاتقه مهمة معرفة كيف تحيل هذه الكلمة على موضوع محدد، إن هذا الأمر يعود إلى الاستعمالات العملية الخاصة باللسان. إلا أنه لا يمكن أن يتجاهل أن كلمة / أم / قد تحيل على مصدر مولد مؤنث، بالمعنى البيولوجي

الصرف للكلمة، كما قد تحيل على سلسلة من الكيانات المختلفة لي
 نستعمل استعاريا (أما المقدسة الكنيسة، المنزل الأم، الوطن الأم
 الخ)، بل قد تحيل على سلسلة أخرى من الكيانات التي توحي بها
 الكلمة من قبيل «الحب»، «الحماية» «التغذية» الخ. انطلاقا من كون
 هذه القصيدة تعود إلى التداوليات (انظر 3.1) والتداوليات كما هو
 معروف هي الاستعمال الفعلي للسان من لدن مستعمليه - فرد
 اللسانيات النفسية تهتم حاليا بالإمكانات التي تثيرها كلمة ما، وتبني
 على ذلك الروائز (tests) من أجل تحديد لائحة التفاعلات الانفعالية
 التي تثيرها كلمة ما (انظر أوزغود، سوسي، تامابوم 1957).

ومع ذلك، إذا كان هناك الكثير من الدوات المتكلمة (الأغلبية
 بتعبير إحصائي) نستجيب بشكل ما للمثيرات الانفعالية التي تحيل عليها
 كلمة ما، أفلا يكون ذلك منصمنا في مستوى قواعد اللسان التي تقول
 بأن التعبير هو حرفي يتأثر بالمداولات المرتبطة به ؟

يعطي هلمسليف لمفهومي التقرير والإيهاء تعريفا شكيب. إنه
 يميز بين السيميائيات التقريرية وبين السيميائيات الإيهائية. في الأولى
 لا يشكل أي مستوى من المستويين - مستوى الدال ومستوى
 المدلول - سقا سبائيا. ويقدم بارث بعد ذلك بزمان طويل خطاطة
 للتعبير عن هذا التميز:

السيميائيات التقريرية	تعبير	مضمون
-----------------------	-------	-------

السيميائيات الإيهائية	تعبير		مضمون
	تعبير	مضمون	

إن التعبير في السيميائيات التقريرية يحيل على المضمون، أما

في السيميائيات الإيحائية، فإن مستويي التعبير والمضمون اللذين يشكلان السيميائيات التقريرية، يتحولان إلى مستوى للتعبير يحيل على مضمون جديد. إن الإيحاء يتحول، إن جار التعبير، إلى أثر دلالي. ويمكن أن يختصر هذا الأثر في رد فعل انفعالي عقوي لشخص معرول. فهو محكوم بالبنية العامة لتسق دلالي ما. ويبدو أن هلمسليف قد قصص من حفل الظواهر الإيحائية - فهو لم يتصور إلا بعض الحالات مثل البر الجهوي أو بعض الخصائص الأسلوبية (طريقة معينة للكلام قد تملأنا بمعلومات عن الأصول أو الوسط الاجتماعي للمتكلم). إلا أن الأمر عند بارث (1964، 1967) ومؤلفين آخرين، سيتعد بعدا آخر. فمفهوم الإيحاء سيتسع مداه، وسيصبح أكثر سلفية وأكثر دقة. وهكذا، فإن الكلب يعين «تدبيبات كلبية» (أو ما شابه ذلك)، ولكنه يوحي بـ: «الوفاء»، أو على العكس من ذلك يوحي بـ «احتقار» أو «بخل» (في الجملة: أن يكون المرء كلبا، «شفاء» حياة كلب، جو كلب، مرض كلب). إن الإيحاء في هذه النظريات مرتبط بسنن لسانية واجتماعية محددة، أي بأعراف بلاعية أو أعراف يدهولوجية: فلنتذكر الإيحاءات المختلفة التي يمنحها المجتمع الأمريكي لتعابير مثل «أسود»، «رنجي». وعندما نتناول الاختلافات بين الدلالة كقاموس والدلالة كموسوعة، علينا مع ذلك أن نحسم في الأمر التالي: هل الإيحاء مرتبط بالسياق، أي بالأنساق الفرعية بدلالات الضيغة أو «المحلية» (وذلك لأنها لا تشغل إلا في حقول بعض الأكوان الخطائية)؟

قد يكون للإيحاء في هذه الأكوان الخطائية أهمية كبيرة. فعندما أقف أمام ملتقى طرق تنظم حركة السير فيه بواسطة الأضواء، فإنني أعرف أن /أحمر/ يدل على «وقوف»، ويدل /أخضر/ على «مرور».

ولكنني أعرف أيضا أن الأمر «قف» يعني أمرا مفروضا، في حين أن حوار «المرور» يعني «اختيار حر» (فبإمكانني أن أمر أو لا أمر). وبالإضافة إلى ذلك أعرف أن /أمر مفروض/ تدل على «عرامة مقدية»، في حين أن «الاختيار الحر» يدل على شيء من هيل «قرار يجب اتخاذه بسرعة».

وعلى هذا الأساس، فإن هذه الآلية السيميائية مستفودنا إلى القول بأن هناك علامات صوتية تشكل مدلولها من تقابلات ذات طبيعة دائرية، ولكن العلامة في كليتها (الإشارة الصوتية والموقع النصي) تتحول بدورها إلى دال لحالة قانونية، ويتحول المجموع المركب للعلامة بدوره إلى دال لدافع انفعالي (ستدفع غرامة، أو أسرع بالمرور) وذلك حسب الخطاطة التالية:

عقاب →		دال ← قرار	
اضطرار	→	دال	دال ← اختيار حر
		وقف أحمر	أخضر مرور
مدلول →		دال	دال ← مدلول

إن المستوى الأول الرابط بين الدال والمدلول يشكل سيميائيات تقريرية. أما المستوى الثاني فيشكل سيميائيات إيحائية، حيث تتحول الدوال إلى علامات (دال + مدلول) لسيميائيات تقريرية. في حين أن المستوى الثالث يشكل سيميائيات إيحائية من درجة ثانية، تشغل داخلها الدوال باعتبارها علامات لسيميائيات هي تقريرية في علاقتها بهذا المستوى، ولكنها إيحائية في علاقتها بالمستوى الأول.

إننا نستعمل العلامات لأنها مخصصة لترايطات عرفية من قبيل تلك التي ناقشناها. وهذا ما يفسر أن الذي يكتب / فف/ على إشارة مرورية يكون على علم بأنه يشير لإحياءات المنع والخوف من الغرامة. وليس السب، فإن الكاتب يعرف أنه إذا استعمل كلمة / ماما/ في نص ما، فسيعيب على القارئ أن يحذف الإحياءات المرتبطة بالتعبير لأولي للكلمة. صحيح، أنه إذا حدث وربطنا مشاعر الثقة والحنان بالأم (نتذكر حالة ميدي)، فإن التوترات الدرامية ستولد بالتأكيد من حضور هذه الإحياءات، حيث تأتي مظاهر أخرى للنص من أجل مخالفتها دون أن تحذفها كلياً. إن الاستعمال الإيحائي للعلامة أمر أساسي، إلى الحد الذي يجعلنا نسأل هل توجد علامات غير إيحائية أي تقريرية صرف، فعلاية من نوع + التي تبدو أنها تقريرية بشكل خالص ووحيدة المعنى، يمكن أن تحتوي على قيم إيحائية، مثل حالة التقويم، حيث تدل على «الريح» إذا كانت في حانة المداويل، وعلى الخسارة إذا كانت في حانة المصارف.

7.3. الشكل والعادة والمتصل

لا تبدو مقولة الوظيفة السيمائية، للوهلة الأولى، وكأنها مختلفة عن العلامة كما تصورنا مؤسراً، ولكن إذا كان مؤسراً يتحدث عن مادة صوتية وعن فكر تقوم اللغة بتنظيمه في أشكال (دال / مدلول)، فإنه لم يحدد بدقة وضع المدلول. وعلى العكس من ذلك، فإن اللغة عند هلمسليف تقوم بتنظيم متصلين من طبيعة واحدة: متصل خاص بالمعنى وآخر خاص بالمضمون. فعندما نحدد هذين المستويين من خلال أشكال، فإننا نحولهما إلى تسقين مبنين، بحيث إن المواد لا يمكن إنتاجها والتعرف عليها إلا في حدود إحالتها على شكل (مقطع

صوتي دال، وعلى ما يحيل عليه هذا الصوت ضمن مياقات بعضها). ولناخذ مثالا سبق أن رأيناه: إنتاج مادتين صوتيتين /ʃip/ و /ʃip/ فلا يمكن التعبير بين هذين المقطعين باعتبارهما يحيلان على كلمتين مختلفتين (في الانجليزية) إلا لأن شكل تعبير اللغة الانجليزية ينظم الفونيمات /i/ و /ɪ/ ضمن نسق من التبادلات. وبالمثل، بإمكاننا التعرف على الاختلاف المضموني بين /sheep/ (الخروف) و /ram/ (حمل)، لأن هناك نظاما للمضامين ينظم التقابل بين «عصم مدكر، وعصم مؤنث». وبالإمكان أن نأتي بمثال آخر (بإمكان كل لغة أن تقدم معادلا له): إن نظام المضمون يميز بين «حوت ذكر» و«حوت أنثى»، في حين أن نسق التعبير لا يحتوي على هذا التقابل.

فما كان يسميه سومير المادة يشكل عند هلمسليف المتصل (التي يميزها من خلال لفظ داماركي أسال الكثير من المداد، meaning⁽⁹⁾ إن متصل المضمون هو الفكر ذاته، باعتباره كتلة عديمة الشكل قابلة للدراسة من زوايا مظهر مختلفة، وتقوم اللغات بتنظيمها (استنادا إلى الثقافات المتطابقة معها) وموصلتها بطرق مختلفة. ويشير هلمسليف إلى أن الإبدال المقترح من طرف اللغات في تعبيرها عن الألوان يسمح لنا بتحديد متصل عديم الشكل يتكون من الشبح الصوتي، إنه متصل دائم التجزئة بطرق مختلفة من طرف لسان معين (1943، 48، الترجمة الفرنسية من ص 76 - 77).

إن هذا التقطيع لا يتجلى فقط على المستوى المعجمي فهلمسليف يذكرنا بأننا نعثر عليه في مستوى علم الصرف أيضا. وهكذا، فإن لكل لغة طريقتهما في تنظيم العدد، فهناك لغات لا تعرف سوى المفرد والجمع، وهناك لغات أخرى تضيف المشي (أو المثلث) إلى مقولاتها. ونفس الظاهرة نعثر عليها في طريقة تنظيم زمن الأفعال.

وعلى هذا الأساس، فإن المتصل سيظل هو ما يشبه الجوهر الذي يعذي الأشكال الجديدة.

وهو أمر ينطبق أيضا على التعبير. فكما رأينا سابقا، فإن الأنظمة العرولوجية تختلف عن بعضها البعض في تنظيم الكون (المتصل) الحاصر بالتجليات الصوتية الممكنة. ويعطي هلمسليف في الطبعة الإنجليزية لكتابه^(١٥) - *prolégomènes* وهو النص الذي يعتبر مرجعا لدى الدوائر العلمية العالمية - مثال كلمة /ring/ (خاتم). فإذا كانت هذه الكلمة علامة لشيء محدد، وهو الخاتم الذي نضعه في أصابعنا، فإن هذا الشيء الذي نضعه في أيدينا باعتباره خاتما، يعود إلى الجوهر، الذي يتم ربطه، بفضل العلامة، بشكل مضمون، بحيث ينتظم مع كيانات أخرى من نفس الجوهر. ونفس الشيء يصدق على المقطع الصوتي /rin/، فهو يشكل واقعة مفردة تم الطق به هنا والآن، إنها كيان يعود إلى جوهر التعبير، ولكن لا يمكن التعرف على هذه الواقعة باعتبارها كذلك إلا في حدود كونها تشكل علامة، والعلامة هي التي تربطها بشكل التعبير حيث تنتظم مع كيانات أخرى تعود إلى نفس جوهر التعبير (1943، 52 - 53) (3).

وليس من باب الصدفة أن يستعمل هلمسليف نفس التعبير - *mening-* لتعيين مادة التعبير ومادة المضمون. فإذا حافظنا على هذا المتصل بأعشاره كوما لم يخضع بعد لبرورة سيميائية، أي بأعشاره كثلة عديمة الشكل يمكن تنظيمها من أجل التعبير عن شيء ما، ولكنه يشكل في الآن نفسه شيئا يجب التعبير عنه، فإننا سنحصل على المخطاظة التالي:



إن شكل التعبير يحول جزءاً من المتصل إلى كيان ملائم (الصوت واللون والعلاقات المصائية) من خلال بناء نسق من الأنواع المنظمة وفق تقابلات، حيث تشكل السح المخصوصة جواهر. وينفس الطريقة يقوم شكل المضمون ببينة أجزاء (أو الكلية في الحالة المثلى) من المتصل القابل للتعبير (وبعبارة أخرى، العالم باعتباره حقلاً للتجربة) في نسق من الأنواع المنظمة في تقابلات. وفي الوقت الذي هودتنا فيه المكتسبات الحديثة للسائيات التأقلم مع فكرة نسق التعبير، وجد هلمسليف صعوبة في صياغة حدود المضمون. فكل محاولاته من أجل توضيح تنظيم المضمون لم تتجاوز حدود بناء أنساق فرعية خاصة، كما هو الشأن مع نسق الألوان أو كيانات نباتية. هي الخطاطة السابقة قررنا تمثيل مادة التعبير ومادة المضمون باعتبارهما كيان واحداً، من خلال تأويل رأي هلمسليف وفق معيار انسجام الطريقة. فالمتصل الذي نستخدمه من أجل الإيلاغ هو ذاته موضوع الإيلاغ. إن اللسان قد يجعل أحياناً المواد الصوتية للمتصل ملائمة لسمكن من التعبير عن بعض المظاهر المصائية (مثال ذلك الصاعه اللفظية لنظريات الهندسة)، وأحياناً نستخدم هذه الأصوات من أجل

التعبير عن قوانين الصوت (كما هو الشأن في دراسة الأصوات)، وأحيانا بصح رسم بياني ما معبرا عن بعض المظاهر العضائية للمتصل (مثال ذلك تمثيل الفضاء).

إن هذا التصور للمتصل يحيل على سجل استعاري هام ويطرح، في مهارة الأمر، قضية المدلول الإدراكي والظاهراتي، ومدلول التجريدية، والتماثل أو الاختلاف بين المضمون الذهني والمضمون الدلالي، وهي قضية قد تكون من طبيعة جناسية فقط (انظر هوسيرل 1900 - 1901 المبحث السادس). إن المتصل عند هلمسليف يحيل على ما يشبه الشيء في ذاته، الذي لا يعرف إلا من خلال التنظيمات التي يعطيها للمضمون. فالقول - بمعنى بسوي للمضمون- بأن فرنسا هي تلك المساحة المحددة من خلال كونها ليست لا إسبانيا ولا الأطلسي ولا الماشر ولا بلجيكا واللوكسبورغ ولا ألمانيا ولا سويسرا ولا إيطاليا ولا البحر الأبيض المتوسط، معناه أنها قابلة للتحديد بشكل من الأشكال حسب تعبير فريجه، وتشخص القضية في معرفة ما إذا كان المتصل كيانا مطلقا وله قوانين، يعطي لبعض التنظيمات شكلا طبعيا أكثر من الآخرين.

فإن يرى هلمسليف في المتصل شيئا معطى بشكل سابق ويتنعم بمعنى، فإن ذلك أمر يفهم - وهو أمر غريب للوهلة الأولى - من استعماله للفظ /mening/ (الذي يمكن ترجمته بـ «معنى»)، من أجل تعيين مادة التعبير ومادة المضمون. فمن جهة يلج هلمسليف على أن هذا المعنى هو «كتلة عديمة الشكل»، ولكنه يؤكد أيضا أن هذا المتصل، حتى وإن لم يكن موضوعا للمعرفة وليس له وجود علمي سابق على تكوينه، فإنه «يقدم لنا مبدأ كونيا للتكون».

إن التساؤل عن التنظيم الأفضل للمضمون معناه التساؤل عن

طبيعة الرابط بين الإدراك، «حشوه بالمعنى» (هومبرل)، وبين الشاهد المقولي.

وهكذا يبدو أن مشكلة البناء السيميائي للمضمون، باعتباره مدلولاً، وثيقة الصلة بمشكل الإدراك والمعرفة بصفتها رديف للمدلول والتجربة. وهذا ما يفسر المظهر الجناسي الرابط بين المدلول السيميائي والمدلول الإدراكي، المعرفي الظاهراتي. وبالإمكان تأجيل هذا المشكل، لأسباب تعود إلى الاقتصاد المنهجي، ولا يمكن مع ذلك تجاهله (انظر 1977 garroni). فإمكان سيميائيات ما هي مرحلة من مراحل مضجها مواجهة الإشكالية الفلسفية لنظرية المعرفة. أما الآن فسكتفي بصياغة الفرضية القائلة بأن المقاربة السيميائية لمشكلة المدلول، كما تصورهما هلمسليف وبيرس، تعتبر أكثر خصوبة من مجموعة كبيرة من الإجراءات الفلسفية.

ولعل أهم نتائج عمل هلمسليف تكمن في إمكانية تطبيق الطرق التي بلورتها اللسانيات المعاصرة قصد تحليل شكل التعبير من أجل دراسة شكل المضمون. ولقد حاول هلمسليف تبين أن ما يصدق على التعبير يصدق على المضمون، فالحصول على كلمة يمر عبر مفصلة مجموعة من الأصوات (صور تعبيرية)، وبعدد صغير من هذه الفونيمات يستطيع لسان ما أن ينتج عددا هائلا من الكلمات، ونفس الشيء يصدق على المضمون، فعدد صغير من صور المضمون يمكن من بناء عدد هائل من وحدات المضمون.

إن التوازي بين التعبير والمضمون سيؤدي إلى النتيجة التالية. إذا كان التعبير يحلل في صور، فإن نفس المبدأ يصدق على المضمون. «إن تحليل صور مستوى التعبير تتم في الواقع من خلال تقسيم الوحدات التي تكون عددا لا محدودا (...) داخل سجل محدود.

وبفس الشيء يصدق على الوحدات المكونة لشكل المضمون (...). إن عمدا يكمن في اتباع التحليل إلى الحد الذي نصل فيه إلى تقليص السجل إلى حده الأقصى. ومن خلال تقليص هذا السجل، فإن مصمود علامة بسيطة سيكون متماثلا مع سلسلة من العلامات التي تدل مع بعضها البعض في علاقات محددة (1). إن هلمسليف يتحدث هنا إذن عن مكونات دلالية.

ولكنه لم يكن يجهل، وهو الذي كان ينطلق في تحليلاته من للسان الطبيعي، بأن سجل مضامين هذه الكلمات محدود: إن الآثار المعنوية المتولدة عن الوحدات المعجمية للسان طبيعي ما تشكل متتالية مفتوحة. إلا أنه كان يفترض وجود سجلات محدودة (تقوم بالانتفاء) كما هو الحال مع مضامين اللواحق الخاصة بالاشتقاقات، وكما هو الحال في الحركات الإعرابية (المتقاة) إلى جانب مضامين الوحدات الأصلية.

ولتتبع هلمسليف في خطاه. ولنفترض أننا كما ملزمين بإقامة جرد للوحدات المضمونية لكلمة «حروف» «نعمة» «خنزير» «خنزيرة» «ثور» «بقرة» «مهرقة» «أنثى الخيل» «فرسي» «عشي» «خنزيري» «مفري» «رجل» «امرأة» «كائن إنساني». إن الوحدات العشر الأولى يمكن إقصاؤها من هذا الجرد، لأنه لا يمكن تأويلها بشكل أحادي باعتبارها وحدات علائقية تشتمل فقط على «ذكر» «أنثى» من جهة، و«عشي» و«خنزيري» و«مفري» «كائن إنساني» من جهة ثانية. وباختصار، فإن هلمسليف يقترح علينا تأليفا من المكونات يمكن تحليلها على الشكل التالي:

	عشي	خنزيري	مفري	خيل	إنساني
ذكر	حروف	خنزير	ثور	حصان	رجل
أنثى	نعمة	خنزيرة	بقرة	فرس	امرأة

ومع ذلك، فإن هلمسليف يلاحظ، في الطبعة الانجليزية، أمراً لم يته إليه مترجموه إلا بشكل عابر. إن هلمسليف لا يتحدث في واقع الأمر عن «تمييز بين «ذكر و أنثى»، ولكنه يستعمل زوجاً من الصائغ */he/ /she/* : إنه لا يستعمل التعبير / الخروف الأنثى / ولكنه يكتب *she-sheep*. وإذا نظرنا إلى «المسألة فقط من زاوية منطق البرهنة، فإن الترجمة غير الصحيحة لم تضيع علينا شيئاً مهماً⁽¹¹⁾. ولكن هذه الترجمات تجعلنا نجهل أن النص الانجليزي (الذي افترض أنه كان مخلصاً للأصل الدانماركي) يؤكد أن *he* و *she*، باعتبارهما ضميرين، ينتميان إلى قائمة محدودة، في حين أن صور المضمون الأخرى (مثل غنم وكائن إنساني) ينتميان إلى سجل غير محدود. وعلى الرغم من ذلك فلا شيء يبعثنا من اعتبار «ذكر» و«أنثى» ينتميان هما أيضاً إلى سجل مغلق. ولكننا في هذه الحالة نكون قد دخلنا عالم التقابلات الدلالية (وعلينا حينها أن نحدد عدد التقابلات الأساسية التي يجب إدراجها في السجل: / شاب / راشد / ، / أعلى / أسفل / الخ). وفي حالة الصائغ، فقد كان هلمسليف في حماية، إذا جاز التعبير، البعد المورفولوجي الذي يوفره الطابع المحدود للسجل. ولكن إذا اكتفينا بهذا المعيار فقط، فإننا لن نحصل سوى على سجل ضحل.

خلاصة كل ما سبق هو تأكيد ضرورة إيجاد سجل محدود، إلا أن ذلك لم يوفر ضمانات لهذه المحدودية. فإذا تركنا جانباً الروح *he* و *she*، فإن كل القوائم التي اشتمل بها - سواء تعلق الأمر بكلمات أو بصور مصمومة - فإن هذه السجلات تبدو غير محدودة. ولكن العمل كان له مع ذلك أهميته: ألم نقلص مضمون عشرة العاظ في 2×5 صورة؟ ولكننا لا نستطيع القول إن فكرة إنشاء قاموس للمكونات قد نجحت.

ويبدو أن مقترحات هلمسليف كانت تستجيب للمتطلبات التي استدعتها النظريات الدلالية التي جاءت بعده. ومن حملتها: إن القاموس يجب ألا يأخذ بعين الاعتبار سوى المعرفة اللسانية، دون الاكتراث بالنعرف على المراجع المحتملة للكلمات التي يقدم لقاموس وصفها التفريدي. إن قاموس هلمسليف يقول لنا لماذا / نعمة هي جس عنمي مؤنث وإذا كان «س» هو النعمة، فإنها ليست فرس/ هي مقاطع صحيحة دلالية، حتى في الحالة التي يكون فيها مستعمل لسان ما لم ير نعمة أو فرساً. وبدون شك فإن هلمسليف كان هو أول مؤلف معاصر يطرح على نفسه سؤال وحدات المصنوع من خلال السمات أو المكونات الدلالية.

8.3. السعات الدلالية

إن دراسة المدلول سواء من خلال مكونات دلالية، أو من خلال الخصائص، كان من أكثر الثيمات التي نوقشت بعد هلمسليف. وسيكون من الخطأ القول إن هذه القضية نوقشت فقط داخل التيار البنيوي. فتطور هذه الثيمة أدى إلى تأزيم الحطاطة الجامدة للبنيوية. وفي الفقرة التي ستحدث عنها في (3- 10) والمعونة: «من النظريات الدلالية القاموسية إلى النظريات الدلالية الموسوعية»، اضطررنا إلى التحلي شينا فشينا عن النموذج البنيوي، أو على الأقل اضطررنا إلى تعديله تعديلاً جذرياً.

ومع ذلك، فإننا سنعرض لهذا الحوار في هذا الفصل الذي يتحدث عن البنيوية. وبالفعل، فإن فكرة شكل المضمون عرفت الدور في أحضان البنيوية، لتسلك بعد ذلك سبيلها في اتجاهات أخرى، وفي هذا المجال تأكدت ضرورة بلورة نموذج لهذه الأهلية الدلالية

التي تمكن المستعملين من ربط المضامين بالتعابير في لسان ما.
وإذا كان من الممكن الوصول إلى بناء نسق للمصموم
المشكلن، فلن يكون من المستحيل تصور أن الوحدات المصمومية
تتطابق مع وحدات التعبير، ومهما يكن من أمر، فمن السهل بدورة
مجموعة من السمات الدلالية الخاصة بوحدة معجمية ما، استناداً إلى
السمات النحوية. وبهذا سيكون من الممكن تحليل الكلمات التالية
وفق الطريقة التي أشرنا إليها:

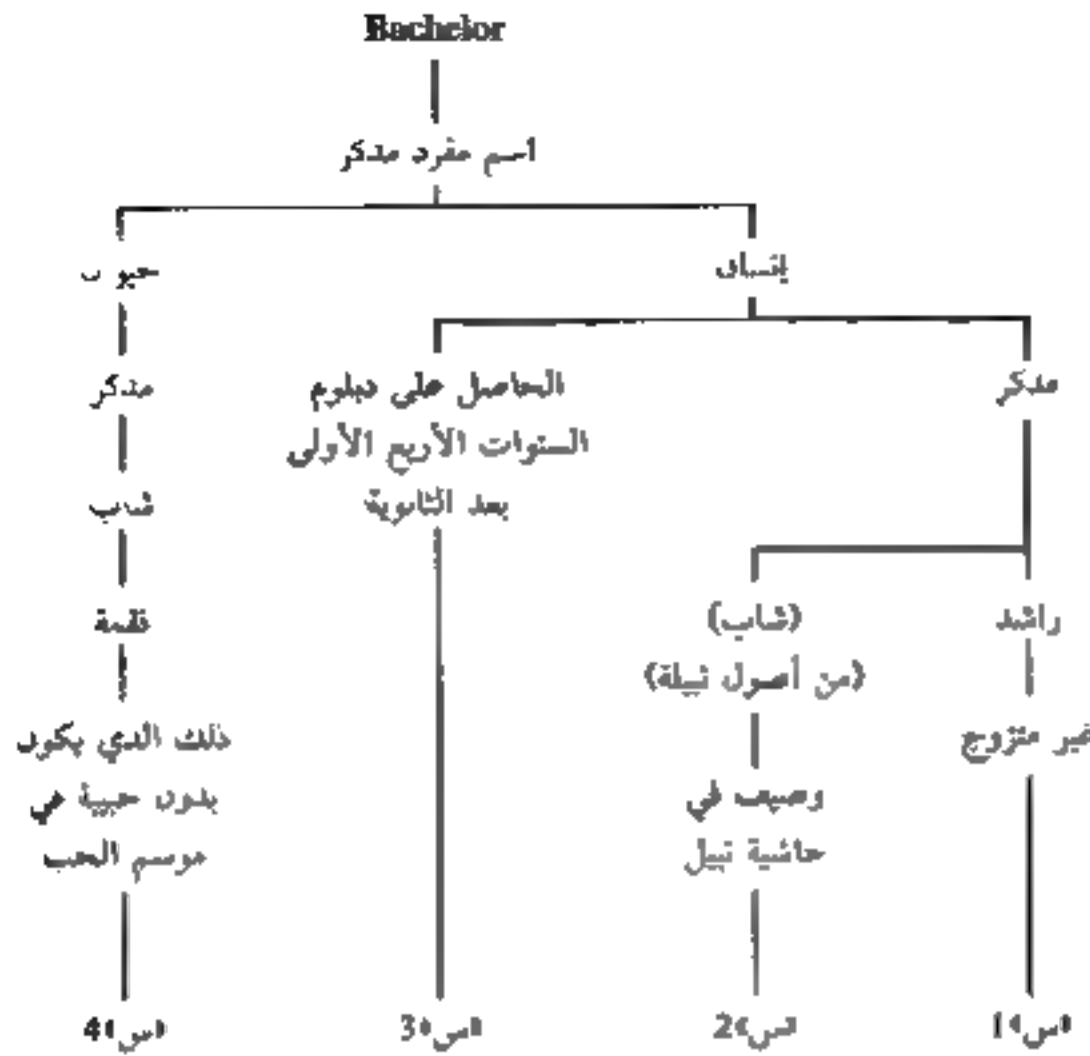
/ولد/: حي + إنسان + مذكر - راشد
/بنت/: حي + إنسان + مؤنث - راشد
/رجل/: حي + إنسان + مذكر + راشد
/امرأة/: حي + إنسان + مؤنث + راشد

إن سمات من نوع «حي» يشار إليها من أجل تبرير تلازم الوحدة
المعجمية مع بعض الأفعال. وهكذا سيكون صحيحاً القول / الرجل
يأكل/، لأن / أكل/ يتلاءم إيجابياً مع السمة «حي» سواء كان إنساناً
أو حيواناً. لكننا لا نستطيع القول / الإنسان يتبرعم/ لأن هذا الفعل
لا يتلاءم لا مع «إنسان» ولا مع «حيوان» ولكنه يتلاءم مع «لنبات». إن
هذه التطابقات التأليفية للفعل يطلق عليها تقييدات انتقائية (انظر ليونز،
1968، شومسكي 1965، 1972). والتحليل المستند إلى السمات،
رغم نتائجها الهامة، استعمل من أجل شرح التطابقات النحوية أكثر مما
استعمل من أجل شرح التطابقات الدلالية (ومتوفر على أدوات أكثر
تعقيداً من أجل شرح هذه التطابقات، انظر العقرة الموالية).

إن أول اعتراض على هذه الطريقة يعود إلى كون عدد المقولات
النحوية محدود، وهي بذلك قابلة للتنظيم في أساق، في حين أن عدد

المقولات الدلالية أكثر اتساعاً، وقد لا يحتاج إلى تنظيمه في أساق. ويسمف العدد الكبير من هذه المقولات في وصف /رجل/ في علاقته ب /امراة/، ولكنه لا يستطيع أن يحدد موقع /بقرة/ في علاقته ب /نعجة/. فالأمر يتعلق في الحالتين معا بكائن حي حيواني مؤسث، ورغم ذلك، فلإننا أمام شيء مختلف، كما يعرف ذلك كل مرب للماشية، حتى وإن كان لا يعرف السيميائيات. ولقد عرف تحليل المكوبات الدلالية للوحدات المضمونية تطورات هامة في المدة الأخيرة. والسودج الأكثر شهرة هو النموذج الذي قدمه كاتز وفودور (1964).

لقد اختار هذان الباحثان كلمة /bachelor/ [أعزب] وحاولا تحديد ما يمكن أن نسميه بـ «الأطراف الدلالية»، أو النسق الداخلي لمداول هذه الكلمة، باعتباره سلسلة من الآثار المعنوية. ولذكر بأن الكلمة الإنجليزية /bachelor/ قد تعني «أعزب» و«حامل شهادة بكالوريوس» (bachelor of art) هو الذي يمتلك شهادة السلك الأول في الجامعة) «صفحة»، «قمة صغيرة لم تلد تفتح في الفترة الملائمة لذلك» (معنى استعاري مشتق من الأول). إن هذه المعاني المختلفة، التي لا تخفى أهميتها تسمى «عناصر احتلافية»، وسنصدها في الخططة التالية بين معقوفين قائمين. وسنضع بين قوسين الواسمات الدلالية الأولية مثل «مذكر» و«راشد». والعناصر الموجودة خارج القوسين تحيل على الواسمات التركيبية، التي يمكن أن تتطابق مع الواسمات الدلالية:



إن كل مسار من المسارات التي تجمع بين الواصفات الدلالية وعناصر الاختلاف، بشكل قراءة ممكنة، ونحيل هذه المسارات، تبعاً لذلك، على معانٍ. وإذا جاز التعبير فإن المدلول مركب من معانيه الممكنة المتعددة من سيميم (أثر معنوي).

إن المعنى لا يتجلى إلا من خلال امتزاجه بالمعاني الممكنة للسميمات الأخرى التي قد تظهر داخل السياق. إن الأمر يتعلق بالقيود الانتقائية (المشار إليها من خلال معقوفين في الرسم والممرور لها بالحروف اللاتينية) التي تتدخل من أجل الانتصار لهذا المريج أو ذاك

إن القيود الانتقائية المعبر عنها شكليا توفر للمعنى إمكانية ارتباطه بمعنى آخر وسيميمات أخرى، ونعتمد هذه القيود «شروطا كافية وضرورية». وعلى سبيل المثال، فإن الرمز «س1» يجب أن يجعل اسمي غير قابل للتحقق إلا إذا كان السياق يشير إلى العلاقات الزوجية، في حين على «س3» أن يشير إلى أن الأمر يتعلق بانتهاء أو عدم انتهاء نشاط ما. وبهذه الطريقة يمكن الحصول على رسمين بمنح كلمة bachelor /نسختين للتحقق: /رجل متزوج ليس أعرب/ و /زوجي/bachelor/ حاصل على شهادة عليا في الفن/. وبطبيعة الحال ستظل هناك مجموعة أخرى من التعابير الغامضة من قبيل: /إن هذه الطالبة ترفض أن تتزوج بلويس لأنه ليس bachelor/. إلا أن السياق الذي يسبق الجملة في هذا المثال قد يساعدنا على فهم الطبيعة الفعلية لهذه التداخلات⁽¹²⁾.

لا أن سلبيات هذا التحليل تكمن في أن العناصر الاحتمالية ليست مكونات دنيا بل تشكل في ذاتها تعريفات تامة، وهي تعريفات تحتج هي الأخرى إلى تعريف. إن هذه الطريقة قد تكون مهمة من أجل تحديد الأسس التي تبني عليها قواميس الوحدات المعجمية، إلا أنها لا تستطيع أن تشرح لنا الطريقة التي يتم فصل من خلالها نسق دلالي بسيط. وهناك جانب سلبي آخر يكمن في أن بإمكان التحليل تحديد الاستعمالات المختلفة للوحدات المعجمية، إلا أنه لا يوضح السياقات والظروف التي يمكن أن تستعمل ضمنها هذه الوحدات. وهناك جانب سلبي ثالث هو أن التركيبة المفهومية التي حصلنا عليها نوضح دون شك حالات التجانس (والأمر ليس دون أهمية بالنسبة للمعجمي)، ولكنه لا يسجل كل الإبحاءات الممكنة للمفرد. ولهذا السبب، فإن «أعرب» (عندما نقرر منح هذا المعنى لكلمة bachelor)

يمكن أن توحى بـ «فجور» «لامسؤولية» أو «حرية»، وذلك حسب السياقات التي استعملت فيها الكلمة. إن الاعتراضين الأخيرين يستندان، كما هو واضح، إلى مشكل الاستعمال السياقي للعلامات ويرد كاتز وفودور عن هذا الأمر بالقول إن نظرية السياقات تستدعي جرماً شاملاً لكل النسخ الممكنة لتحففات وحدة معجمية ما، وعليها في هذه الحالة أن تتوقع كل الأحداث الممكنة في الكون. ويمكن أن نرد بأن وحدة معجمية ما تستعمل، في مجتمع ما، في بعض السياقات ووفق بعض الظروف التي يتم انتقاؤها على حسب سياقات وظروف أخرى. وبقدر ما يكون السن منظماً بقدر ما يكون قادراً على استيعاب هذه الظروف.

ولنأخذ المثال التالي، وليكن التعبيرين التاليين:

- «يجب أخذ الأسد إلى حديقة الحيوانات»

- «يجب أخذ بيبير إلى حديقة الحيوانات»

فمن الواضح أن «أخذ» في المثال الأول يحيل على معنى قريب من «الاعتقال» (ويحيل بالتالي على العقوبة، إذا كان الأسد قد هرب من حديقة الحيوانات). أما في الحالة الثانية، وهي حالة فضفاضة، فإن هذه الكلمة توحى بفكرة الجراء أو التعلم. وفي غياب نظرية لسياقات والظروف لا نستطيع تحديد قواعد دلالية تفسر لنا السبب الذي يجعل من العبارة الأولى دالة على معنى مختلف عن معنى العبارة الثانية.

ولكن لنفترض أن تركيبة دلالية لا تقع عند حدود الواسمات الدلالية، أي عند عناصر تمكن من تحديد الاختلافات والتقييدات الانتقائية، ولكنها تشتمل على واسمات إيجابية وانتقائية صياغة. في هذه الحالة، نفترض أن /الأسد/ لا يستعمل سوى في ثلاثة سياقات حديقة الحيوانات أو السيرك أو الأدغال. ومن الممكن أيضاً أن نصل

أن / حديفة الحيوانات/ تستدعي إحياءات سجنية وأمنية، بنفس الطريقة التي يستدعي بها السيرك إحياءات الترويض والمهارة. أما إذا أدرج ضمن الأدغال فإنه يوحي بالحرية والخطر. ولا وجود لسياقات أخرى، على الأقل في الاستعمال العادي. ومن هنا، فإن السيميم / أسد/ سيكون حاملاً لقواعد (بتضمها السنن) تسهم في تحديد معناه الإيحائي في سياقات بعينها.

ولقد تم تعميق منهج كاتر وفودور (Weninrich, 1965) وافتُرحت مباحث بديلة له (Biewisch, 1970) حاولت عزل، داخل كل سيميم، المكونات العلائقية العامة. فمثلاً، من خلال التركيبة المفهومية لفعل مثل / قتل / يمكن التعبير عنها من خلال قواعد النوع: قتل: فاعل تسبب (موضوع ب «حي» تحول إلى موضوع ب غير حي)

فالملاحظ أن الكلمات التي تعبر عن روابط بين العاظ أخرى (مثل عنة، تحول، تشجيع) يمكن تحليلها باعتبارها علاقات شكلية. وبهذه الطريقة، فإن المكون الدلالي للسيميمات سيمبر عنه بالفاظ دالة على التضافف، وذلك من خلال إعطاء صياغة ميتالغوية للتعبير اللسانية التي لم يتناولها كاتر وفودور.

ومع ذلك مازال هناك اعتراضان. الاعتراض الأول يكمن في أنه ليس من البديهي أن هذا النوع من التفكير يمكن أن ينطبق على الفاظ تحليل في ذات الوقت على «أشياء» وعلى «أفعال» (في الحالة الأولى يمكن العودة إلى التحليل الذي قدمناه لـ bachelor). أما الاعتراض الثاني فيكمن في أن الروابط ذاتها التي يعبر عنها من خلال لغة رمزية من نوع منطقي يجب، لكي تشتغل كنسق من العلاقات، أن تكون جزءاً من نسق وليس جزءاً من محل نهائي. وهكذا، على التحليل

المفهومي، من أجل تبرير الحدود الميتalingوية التي يستعملها في تحديد معنى الألفاظ اللغوية، أن يكون قادراً على تكوين نسق استناداً إلى هذه الألفاظ الميتalingوية، وهو نسق لن يكون شيئاً آخر سوى شكل للتعبير.

9.3. نسق المضمون

لقد كانت هناك محاولات عديدة من أجل بناء نسق للمضمون. وأكثر هذه المحاولات دلالة (Greimas 1966) نعرض وجود وحدات دلالية أولية (وهي مقولات ذهنية تتطابق مع مظاهر أساس في التجربة) منتظمة في محاور تقابلية تسهم في بنائها كل المدلولات. وبهذا يكون غريماس قد انتقى بعض البنيات الأولية للدلالة. ويتعلق الأمر بالمحاور الدلالية، كذلك التي نتعرف عليها في الخطاطة التالية:

طريق وطنية (م) طريق فرعية

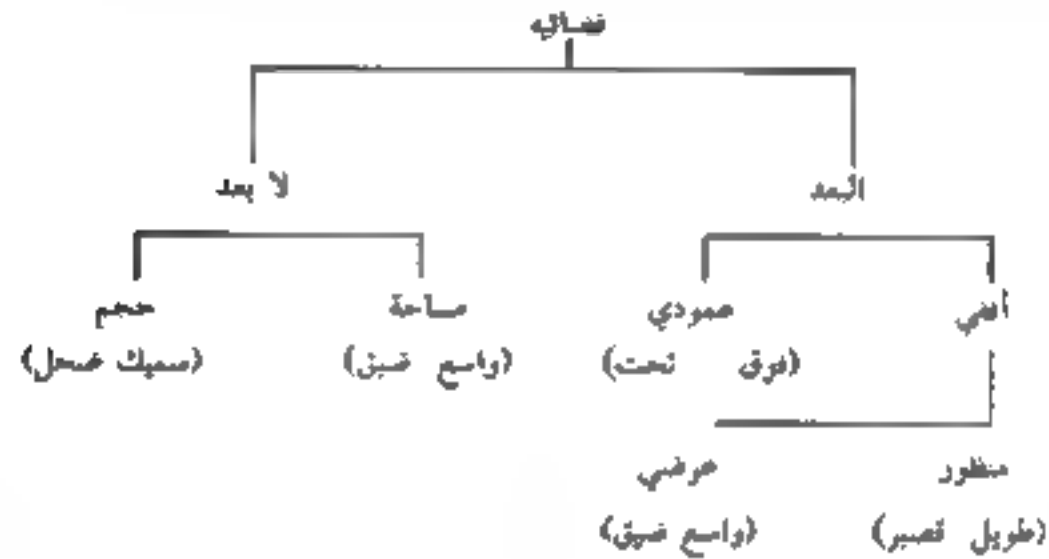
كبير (م) صغير

امرأة (م) رجل الخ

إن التقابل لا يطر إليه إلا من زاوية واحدة، وهي الزاوية التي تشكل المحور الدلالي. فالمحور في التقابل امرأة (م) رجل، هو محور خاص بالانتماء الجنسي. إلا أن المدلول «امرأة» (الذي نعتبره هنا ميمبياً) هو نقطة تقاطع لوحداث دلالية محتملة يسميها غريماس معانم (بمعنى مختلف عن التعبير الذي يعطيه بيوسس لهذا اللفظ)، / فالأنوثة / مثلاً هي معنم يتقابل مع / الذكورة / ، والأنوثة ليست حاصبة ب «المرأة» فهي تسند إلى بعجة ووزة وبقرة.

فلكسيم من قبيل «أعلى» يتمير عن «طويل» يكون الأول يملك المعانم الخاصة بالمستويات: القضائية والبعلية والعمودية، هي حين

أن الثاني يمتلك المعانم التالية: فضائية ويعدية أفقية ومنتظورية.
 إن اللكسيم على هذا الأساس هو البؤرة التي تتحلى من خلالها
 المعانم المصحرة عادة من مقولات تنتمي إلى أنساق معنمية مختلفة
 ترتبط فيما بينها بروابط ترانزية وهي بذلك روابط تصميمية.
 ينسظر إلى الطريقة التي يصف من خلالها كريمة (1966)،
 (33) السق المعنمي الحاص بالفضاء:



وهكذا فإن كل معنم (تقابل الأفقية مثلا مع العمودية) يستند إلى
 أساس وجود تعبير هو الذي يشكل المحور الدلالي (مثلا البعدية)،
 وقد يصبح هذا المعنم بدوره محورا معنميا لمعنمين فرعيين (منظور
 وعرضي).

توفر هنا على مثال يشرح نسق الفضائية، فكيف نتعامل مع نسق
 لزمانية؟ وكيف يرتبط السقفان فيما بينهما؟ وكما هو واضح يمكن أن
 نواصل البحث إلى ما لانهاية. لكن هناك شيئا آخر. لا يمكن لهذه
 الصفاة، في حدودها القصوى، أن تقدم لنا سوى تقسيمات معنمية
 فرعية بالغة العمومية. كيف يمكنني أن أميز، معنيا، بين /أريكة/ و/

كرسي/ ؟ لقد بلور بوتيري (Pottier) لهذا الغرض مجموعة من المصنفات شبيهة بتلك التي جاء بها غريصاص فيما يخص «موق» و«تحت». وهكذا فهو يميز بين أريكة وكرسي و«مرفاة ووسادة وسرير من خلال وجود أو عدم وجود السمات الدلالية من قبيل /له ذراع/ /رحو/ الخ. فوسادة ستكون رخوة ولكن بدون ذراع ولا مسد، أما المرفاة فليس لها ذراع وليست رخوة وهكذا دواليك. ومشتبك عناصر القسم كلها في المعنم الجلوس (Pottier 1965). إلا أن هذه السمات لا تشبه الأفقية والعمودية: إنها قابلة للتطبيق في سياقات بالغة الخصوصية، كما أنها تشكل تعريفات لا عناصر أولية.

ملكي تضمن الصياغة المضمونية لنفسها الدقة، عليها أن تطل عامة، ولا يمكنها في نهاية الأمر تفسير الاختلاف المدلولي بين «برنيق» و«مطران». وحتى إذا استطاعت فعل ذلك (وهو ما تسعى المجهودات الدلالية المفهومية القيام به) فإنها لن تستطيع توفير العناصر الدلالية الأولية كما هو الشأن مع السمات المميزة في الفونولوجيا.

10.3. القاموس والموسوعة

لقد أثارت هذه القضايا نقاشا واسما تمحور حول نموذجين متقابلين لتمثيل المضمون: «النموذج القاموسي» و«النموذج الموسوعي».

10.3.1. يشكل القاموس والموسوعة نموذجين مجردين لوصف شكل وعينا السيميائي. ولنقل إن الهدف الأسمى للقاموس هو وصف هذه المعرفة استنادا إلى حدود لسانية فقط، في حين يروم الموسوعة الإمساك بمعرفتنا للعالم (Zilsinn 1967m Kqtw, 1972 et).

1979 m Leech m 1974m Lyons 1977 m Hu, qn, 1980 et Eco (1984). إن هذا التمييز لا يتعلق، بطبيعة الحال، سوى بالقواميس والموسوعات «العملية»، أي الكتب التي تحمل هذه العناوين. وفي المجال الأعم فإن هذه السجلات تحلط بين النموذجين (نظر Weinreich, Rey-Debove 1971). فهناك بعض القواميس التي تعلمنا أن /ثور/ يعين حيوانا من النوع البقري وهو «مذكر وراشد» وهو تعريف، كما سري، يعود إلى النموذج القاموسي، في حين هناك قواميس تقول لنا بأن /السر/ هو حيوان ضخم من أكلة اللحوم له شعر أصفر محطط بالأسود. والأمر هنا يتعلق بنموذج موسوعي حاصر.

إن المآزق التي تكشف عنها القواميس الفعلية تعد شاهدا حيا على عموض الموقف القاموسي. فهذا الموقف لا يستطيع فعلا أن يميز، بطريقة واضحة، بين معلومة لسانية وبين معرفة خاصة بالعالم. فدور القاموس عند كاتز (1972) يكمن في شرح الظواهر التالية. 1- لمرادفات (كيف يمكن لكلمتين أن يكون لهما مدلول واحد) 2- التشابه والاختلاف الدلاليان (لماذا تتوفر «بفرة» و«عنة» على مكون دلالي مشترك يقابلهما مع ظل ورد فعل مثلا ٩)، 3- التقابلات (كما هو الحال في حار وبارد) 4- النضج والمنصن، فوردة متضمنة في علاقتها بزهرة التي تعد هي متضمنة، 5- الانتظام والشذوذ (/ لصابون المعطر/ يحيل على معنى، في حين أن الأمر ليس كذلك مع / حكة معطرة/ على الأقل في الاستعمال العادي الحرفي وليس البلاغي)، 6- الخموص الدلالي (الذي يحمل grenade تعين فاكهة وسلاحاً^(١١)) 7- الإطباق الدلالي (/ عمي رجل مذكر/ يقدم لنا معلومة حشوية)، 8- الحقيقة التحليلية (التي يكون وقعها الملعوظ /الأعمام المذكور/ هي دائما صحيحة استنادا إلى تعريف العم)، 10-

العلاقة التناقضية (التي تجعل من «الأعمام مؤنثون» ملفوظا خاطئا استنادا إلى نفس التعريف)، 11 - الحقيقة التركيبية (/الأعمام عموم/) ليست لا صحيحة ولا خاطئة استنادا إلى تعريف العم في القاموس)، 12 - اللاتوافق، (وهو مبدأ يجعل من الملفوظين: «جان حي» و«جان ميت» غير قابلين للتحقق في نفس الوقت)، 13 - الاقتضاء (وهو علامة تجعل من الملفوظ / هذه الزهرة حمراء / تتضمن / هذه الزهرة لها لون/)، 14 - السؤال التافه⁽¹⁴⁾ (الملفوظ «هل هذا العم مذكر» يشتمل في ذاته على الجواب) 15 - الافتراض (أين عمتي «تتعرض أن عمتي توجد في مكان ما).

إن كل الحالات المشار إليها أعلاه يمكن ردها إلى بعدين. البعد التحليلي وبعد الاقتضاء. فمن جهة على القاموس أن يكون تحليليا. فخصائص لفظ ما هي كما هي استنادا إلى تعريفه الخاص، ولا يمكن التأكد من هذه الخصائص، كما لا يمكن تزييفها استنادا إلى حقيقة واقعية. ومن جهة ثانية فإن نسق الخصائص (التي هي السمات الدلالية) يجب أن ينحصر لتراتبية بحيث تفرد الوحدات الدنيا داخل هذه التراتبية إلى الوحدات المتتمة إلى مستوى أعلى (فكل زهرة هي بالضرورة وردة وكل وردة هي نبات).

3، 10، 2. ولتحقيق هذه المقصيات، على القاموس أن يكون متوفرا على عدد محدود من السمات الدلالية، وهذه السمات يجب أن تكون من طبيعة بدئية. بحيث لا تستدعي لاحقا تحليلا جديدا. والحال أن هذه الدقة لا يمكن الحصول عليها إلا بطريقتين: إما أن نشعر على السمات التي ستكون كونييات دلالية، يتم التعرف عليها بشكل حدسي من طرف المتكلمين (فهؤلاء يجب أن يكونوا على اطلاع مباشر على مقولات من نوع «مذكر» «إنسان» أو «أحمر»)، وإما أن

نقيم نسفا عرفيا من الفرصيات الدلالية (كارناب 1955) بحيث إما
سقرر مثلا : إذا كان ذلك الشيء يعين غرابا، فإن هذا الشيء يجب أن
يكون باستمرار أسود.

إن الحاساة تكمن أولا في عدم وجود معيار يمكننا من التأكد
هل هذه السمة تحليلية أم تركيبية. ثانيا كل محاولة للتعرف على كتلة
من الكويزات الدلالية اقتضت على عدد محدود من الوحدات
المعجمية، وثالثا، فإن التمثيل القاموسي لا يشرح لنا لماذا يستطيع
المتكلم فهم الملفوظات التي تصاع بلغته.

وكما سرى ذلك لاحقا بخصوص المؤولات، فإن كل شكل
لعوي يمكن شرحه من خلال التعريفات، والإطاب والترجمات، أو
من خلال ألفاظ أخرى الخ، دون أن تكون السيرة محدودة
بالضرورة. فلا وجود لأي سبب يجعلنا نعتقد أن / رجل / يجب أن
يتحدد من خلال السمات : «إسان» «مذكر»، وأن «إسان» و«مذكر» لا
يمكن بالمقابل تحليلهما. ولقد سبق لرسل أن اقترح حلا لذلك بقول
بأن الكويزات التي لا يمكن تحليلها هي كلمات-موضوعات. وبعبارة
أخرى، إنها كلمات نتعلمها من خلال التجربة المباشرة والشاملة
للموضوع المتطابق معها. ومع ذلك يمكن أولا أن يكون عدد هذه
الكلمات -الموضوعات لا محدودا، وثانيا، وكما يشير إلى ذلك رسل
نفسه، فإن بيتاغرام^(١٥) (pentagrame) التي تزين غرفة طفل عاش
دائما في غرفة بيضاء، فإن كلمة بيتاغرام هذه كلمة غير قابلة
للتحليل، في حين أن / أحمر / يجب أن تكون موضوعا للتعريف،
وثالثا، ومن أجل استيعاب معرفة لسانية خالصة مستقلة عن العالم
عنادا على أوليات، فإن القاموس يجب أن يكون مؤمسا، من أجل
بلورة هذه الأوليات، استناد إلى هذه المعرفة ذاتها.

3. 10. 3. من أجل التغلب على هذه المشاكل، تعتقد بعض النظريات أن أهلية الدلالة تتخذ شكل موسوعة، حيث يتم الخلط بين معارف خاصة بالعالم ومعلومات لسانية. وبالتأكيد، فإن دعاة القاموس يعتقدون أن الموسوعة غير محدودة نظريا (ولكنا رأينا أن القاموس ذاته يمكن أن يُعرض عليه بنفس الطريقة). ويجيب الموسوعيون عن ذلك :-

1- إن الموسوعة هي مسلمة صيغائية، أي فرضية إستمولوجية يجب أن تستثير الاكتشافات والتعثلات الجزئية والمحلية للكور الموسوعي.

2- لا فرق بين المعرفة اللسانية ومعرفة العالم. ففي الحالتين معا يتعلق الأمر بمعرفة ثقافية يتم إدخالها شرح كل واقعة استنادا إلى الوقائع الموسوعية.

3- إن المعرفة الموسوعية لا تدرج ضمنها - كما كان يخوف القاموسيون- كل المعارف المخصصة الممكنة التي يتوفر عليها فرد معرول، إنما تشتمل فقط على تلك التي تدرجها الثقافة ضمن الإرث المعرفي الجماعي. ولأخذ المثال التالي، إذا سمعت كلمة /قطار/ بإمكانك لأسباب شخصية أن أفكر في جدتي، التي سافرت معها مرارا في القطار. وهذا لا يعني أن كل ما يعود إلى جدتي يعد جزءا من تعريف موسوعي للقطار. وعلى العكس من ذلك، فإن كون القطار آلة، يمكن أن يحمل ركابا وبضائع، وأنه يتحرك على عجلات، اخترع في القرن الماضي وكان يسير في البداية بالبخار، وأنه يستعمل الآن أساسا المجاذبية الكهربائية، ومن أجل استعماله يجب التوفر على تذكرة، وقد نعتى به الشعراء باعتباره رمزا للتطور، وأن سرعته القصوى أقل من سرعة الطائرة الخ... كل هذه العناصر تعد جزءا من موسوعة خاصة بالقطار.

وطبيعة الحال فإن هذه المعرفة ذات الطابع الاجتماعي الخاصة بانقطاع واسعة جدا ومتطورة باستمرار. ولا يعرف الفرد المعزول إلا السرر اليسير منها (ففي مجال القطارات فإن المهندس يمتلك معرفة موسوعية أوسع من تلك التي يتوفر عليها البيولوجي)، وكل متكلم لا يستعمل إلا جزءا يسيرا منها، وذلك حسب السياقات التي يستعمل فيها كلمة قطار.

وعلى هذا الأساس، فإن الموسوعة يجب أن تتوفر على مجموعة من الإشارات الخاصة بالطريقة التي يعهم بها لفظ ما في السياقات التي يستعمل فيها بكثرة. ولقد نوقش هذا الأمر من خلال الدلالة ذات التوجيهات (Schmidt 1973). أما في كتابنا (Eco 1975) فقد اقترحنا نموذجا للتحليل المفهومي من طبيعة موسوعية يأخذ بعين الاعتبار الانتقاعات السياقية والظرية. تعريف / الحوت / (baleine) يجب أن يكون متضمنا لمكرة أن هذا الحيوان كان يعين في سياقات قديمة سمكة، أما في السياقات الحديثة، فإنه يعي ثديا. أما تعريف / جناح / فعليه أن يأخذ بعين الاعتبار أن السمات أو الخصائص الأساس في السياقات البيولوجية (المظهر الخارجي، البنية الداخلية، الوظيفة) مختلفة عن تلك التي تستعمل في السياقات الميكانيكية. والحال أن هناك مجموعة من الخصائص الأساس التي تحدد / جناح / هي ذاتها في جميع السياقات. ففي إيكو 1979، أضفنا أن النمط الموسوعي عليه أيضا أن يعي أن الدراسات الخاصة بالذكاء الاصطناعي تسمى خطاطات (في تصور يمكن أن نطلق عليه سيناريو أو حراج انظر ميسكي 1974، وينستون 1977، شانك 1975 و 1981، فان دايك 1977). فنحن نربط مثلا / محطة / بمجموعة من الخطاطات نصف ما يحدث داخل محطة ما، وما هي الإحراقات التي

سيتبعها من يريد أن يركب قطارا. ففي ملفوظ من نوع: «وصلت متأخرا إلى المحطة وأخذت تذكرتي داخل القطار»، فإن متكلما ذا أهلية متوسطة، أو آلة مبرمجة لاستنتاج بعض الحلاصات من سجل من الحطاطات سيفهمان جيدا ما هو متضمن في الجملة: إن القطارات لها توقيت محدد، وأن صاحب الجملة لم يقف في الطابور لأخذ التذكرة، وأنه دفع للمراقب قدرا من المال مقابل التذكرة وهكذا.

3.10.4. إن الدلالة الموسوعية تلعب الفرق بين الخصائص التحليلية والخصائص الواقعية أو التركيبية. فما نعتقد عادة أنه خصائص تحليلية - أن تكون الزهرة مثلا وردة - هي في الواقع خصائص لا تجادل فيها الثقافة. هي حين يمكن أن نناقش كون الزهرة جميلة بالضرورة، أو ثمينة بالضرورة (انظر quine 1951). ولقد اقترح بونام (1975) التمييز بين أربعة أشياء في وصف مدلول كلمة مثل / الماء /

السمات التركيبية	السمات الدلالية	الغوايب	الامتداد
اسم، محسوس	نوع طبيعي	لا لون له	H_2O
	سائل	شفاف	
		لا طعم له	
		يروي المطش	

ومع ذلك سيظل التمييز صعبا بين معلومات مسكوكة وبين سمات دلالية. أما فيما يتعلق بالامتداد، فإن بونام يضع ضمنه خصائص يمتلكها الموضوع في استغلاله عن معرفتنا. ولكنا قد برى في هذه الخصائص معلومات موسوعية خاصة ومتوفرة للمتخصصين.

ويبدو أن النموذج الذي قدمه بيتوفي Petofi ونيماور Neubauer (1981) أكثر مرونة من السابق. فقد اقترحا دراسة كلمة الكلور:

أ معرفة عامة

ب معرفة علمية

1 معرفة كيميائية

نوع عنصر، اللون احمرار عنصر وقت، غير حليبي

ابر نحة كريهة ومرة الفصلة مولد لملح

الرمز: CI

تكافؤ العناصر: وحيد التكوين

الورود: في الجسم الكلوري

التكوين NaClHCl

2- معرفة فزيائية

الحالة الطبيعية: عاري

حالات أخرى: سائل

الورن: صعب وزن الهواء

عدد الذرات: 17

الكتلة النسبية: 33،453

3- المعرفة البيولوجية

تأثيره على الأجهزة الحية: احتناق

4- المعرفة الجيولوجية

الكمية فوق سطح الأرض: 0،15%

5- معلومات تاريخية

الاكتشاف: شيل سنة 1774 وهافي سنة 1810

أبحاث أخرى: إنتاج الكلور السائل سنة 1823

6- معلومات اشتغالية

الأصل: من اللاتينية كلوروس

7- معرفة صناعية

إنتاج: محلل الكلور والصوديوم

الاستعمال: تبيض الورق والنسيج ومطهر (ميد

للجراثيم والطفيليات) أملحة كسايوة

الاحتياط: في أماكن باردة وجافة ويحفظ في حاوية

معلنة

تعد هذه المعلومات مجتمعة جزءاً من أهلية لسانية ممكنة، وسيكون من الصعب الفصل بين السمات القاموسية والسمات الموسوعية. والاختلاف الممكن بين معرفة مشتركة وأخرى علمية يعود إلى السياق. وقد نعثر على مستعملين يعرفون الصياغة الكيميائية للكلور مع جهلهم بأن الجسم محضر. وسيمكس هذا التمثيل من تحاوز التمييز بين معلومة خاصة بالقوالب وأخرى خاصة بالامتداد. فبالإمكان استعمال كلمة / كلور/ من أجل الإحالة على قسم من الموضوعات مع علمنا أن الأمر يتعلق فقط بسائل مطهر محضر ذي رائحة كريهة. وفي هذا الصدد لاحظ بوتنام مرات عديدة ما يلي: ' إذا كان هناك عالم شبيه بعالمنا نطلق فيه كلمة / كلور/ على مطهر سائل، وأخضر وبراءة كريهة ولكنه لا يعتبر الجسم (C)، بوزنه وعدد ذراته الخاصة، فإننا في هذه الحالة سنتحدث فقط عن مرادفات⁽¹⁶⁾. ولكننا لا نستطيع مع ذلك أن نستبعد أن العلم قد يكتشف خصائص جديدة للكلور بحيث نحتم علينا توزيع ما نسميه كلور إلى قسمين من السوائل بمكونات بالغة الاختلاف. يجب أن نقنع إذن أن الخصائص التي نستند إليها من أجل تعريف مضمون التعابير شديدة الارتباط بالمعرفة التاريخية التي تمكنا من تفضيل بعض العاصر في لحظة من لحظات تطورها الثقافي. وكما سبق أن أشرنا إلى ذلك، فإن الإسكيمو يتفرون على مخزون غني من الألفاظ من أجل تعريف الثلج، وذلك وفق نماذجها مع مقتضيات البقاء الحيواني. إنهم 'يرون' إذن موضوعات مختلفة في الوقت الذي لا نميز فيه نحن سوى موضوع واحد وبامتداد أحادي (بالمعنى الذي يعطيه بوتنام لهذا اللفظ). ولا فائدة من التساؤل من ما على حق، نحن أم الإسكيمو؟ لنقل فقط بعبارات هلمسليف إن الثقافتين معا تقطعان وتنظمان، بشكل

مختلف، المتصل العادي، ومن خلال هذا التفتيح يتم تفضيل بعض الحصاص على حساب أخرى.

3.10.5. إن السمات الدلالية وكذا المرادفات والشروح والوحيات السياقية تكف، من منظور التمثيل الدلالي الموسوعي، عن أن تكون بناءات منالفوية لكي تصبح مؤولات، قابلة لأن تصبح بدورها موضوعا للتأويل من خلال مؤولات جديدة (انظر في هذا الشأن 5 . 5).

إن المؤول هو كل علامة أو مركب من علامات (كيما كانت لمادة الحاملة له) يقوم في ظروف بعينها بالتعبير عن العلامة الأولى. إن المؤول وفق هذا التعريف، يمكن أن يكون علامة لنفس الوحدات (مثال ذلك المرادف) أو علامة تعود إلى وحدات مختلفة ولكنها تستعمل نفس المادة التعبيرية (مثال: لفظ مقابل في لغة أجنبية، وهو بذلك مختلف عن الأول على مستوى شكل التعبير)، أو قد يكون علامة مستمدة من وحدات تستعمل مواد مغايرة (رسم، لون)، أو قد يكون موضوعا مستعملا كعلامة، أو قد يكون تعريفا قصديا شبه تام للمكونات الدلالية للسيميم الذي يتطابق معه)، كما قد يكون مظهرا من هذه المكونات الدلالية قائلا لأن يحل محل العلامة في سياق معين (ففي سياق من قبيل / الإنسان يأكل الحيوانات/ فإن العلامة / حيوانات/ يمكن أن تستبدل بجزء من أجزائها، من قبيل: «لحم الحيوانات المدبوحة»)، كما قد يكون إحياء انفعاليا أو فكريا شديد الارتباط بهذه العلامة قد يصبح في سياق ملائم بديلا مناسبيا (ففي العبارة التالية ١٠ / للقلب دواحه/، فإن لفظ / القلب/ يمكن أن يؤول بالمعنى الشعوري، رغم أن الإحياء «إحساس» لا يشكل سوى جزء هامشي من السيميم «قلب»).

إن المؤول ليس مجرد علامة تعبر عن علامة أخرى (حتى وإن كان الأمر كذلك في أغلب الأحيان)، إنه باستمرار، وفي جميع الحالات، توسيع للعلامة، إنه إضافة معرفية مستقاة من العلامة الدلالية وسيوضح مصدر هذه الطبيعة بوضوح عندما يتحد المؤول شكل تعاريف، أو استنتاجات أو تحليل مفهومي لكل المعاني الممكنة لسيميم ما، أو تخصيص السيميم من خلال الفاظ مستقاة من استقادات سياقية وظرفية، أي من خلال الفاظ تنتمي إلى الاستعمالات الممكنة للعلامة. وتحقق نظرية المؤول الهدف الذي كان يشده بيرس أن نجعل من حياة العلامات الدلالية الأساس للمعرفة المتطورة باستمرار.

11.3. الوحدات الثقافية

كل مؤول علامة هو وحدة ثقافية، أو وحدة دلالية، وتنظم هذه الوحدات داخل ثقافة ما وفق نسق من التقابلات، ويمكن أن نطلق على لعبة العلاقات هذه اسم الحقل الدلالي الشامل، وعادة ما نقول إن هذه الوحدات تبين الحفول الدلالية، أو تتوزع وفق محاور تقابلية. إن نسق الوحدات الدلالية يعبر عن الطريقة التي تجزئ بها ثقافة ما الكون القابل للإدراك أو المتصور وتبلور بذلك شكل المضمون.

11.3. إن الوحدات الدلالية مفصولة عن الوحدات الدلالية التي تمثلها. وهكذا ففي ثقافتين مختلفتين، هناك مناطق واسعة داخل النسق الدلالي بالإمكان أن تتم بنيتها بنفس الطريقة، ولكن مقابل كل وحدة بنوية معرولة تقدم اللغات دوال مختلفة، فالوحدة الثقافية يمكن ترجمتها في علامة معينة استناداً إلى وجود سنن، أو من خلال وحدة ثقافية تعد هي ذاتها علامة (أو مقطعاً من الوحدات الثقافية) التي تشكل تعريفها الماصدقي. ومهما يكن الأمر، فإن هذه الوحدة الثقافية

هي داتها علامة، لأن بإمكانها أن تدل على الدال الذي يتطابق معها داخل لسان معين. وهو ما يحدث عندما نجيب عن السؤال التالي كيف سمي في الفرنسية الموقع الهندسي لكل النقاط الموجودة على نفس المسافة من نقطة بعينها؟/ مع العلم أن الأمر يتعلق بمحيط الدائرة. إن هذا الجواب يعادل «إن البؤرة التي يتم وصفها في الهندسة تساوي الكيان اللساني الذي يسجله القاموس في المدخل / محيط الدائرة /». وهكذا فإن التعريف الهندسي، مثله مثل الصورة التي تتطابق معه في قاموس ما أو في كتاب حول الهندسة، هو مؤول للعلامة اللفظية. أما في الرسم البياني أو في البرهنة المجردة، فإن الأمر يتعلق بدوال- بسيطة أو مركبة - دوال يمكن أن يكون مؤولها، الكلمة التي تتطابق معه.

3. 11. 2. من الاعتراضات التي يمكن أن نسجلها على تعريف لعلامة هناك التأكيد أن الضوابط (synkategoremiques) أو لمكونات لا تتوفر على أي مدلول، إن مفردة الوحدة الثقافية تفند هذا الاعتراض. فبنفس الطريقة التي نحيل عبرها العلامة / فرس / (لعلما كان أم بصريا) على موقع محدد داخل نسق الوحدات الثقافية التي تشكل حفل الكيانات الحيوانية، فإن علامة مثل / ذهب / نحيل على موقع محدد داخل نسق يقابل بين أنشطة حركية متعددة (من «الابتعاد عن المحاطب» إلى «الافتراب منه»، هناك تقابل دلالي يمكن أن يتطابق مع التقابل المعجمي / الذهاب والمجيء /). ويمكن أن نضد إلى نفس البرهنة فيما يتعلق بالفواعل المتطقية. فكون أن /à/ قد تدل على شيء في الجملة. /être à Paris/ وهي شيء آخر في الجملة: /aller à Paris/ يمكن أن تعني ببساطة أن /à/ هي دال متجانس، يمكن أن يحيل على مواقع داخل حفل ترابطات الحركة والانتماء إلح.

وعلى هذا الأساس فإن /ā/ تمتلك مدلولاً وتحيل على وحدة ثقافية شأنها في ذلك شأن كلمة /مرس/.

ويمكن قول نفس الشيء عن أسماء الأعلام. فقد نعين أو تشير هذه الأسماء عند بعض المؤلفين إلى شيء ما، ولكنها لا يمكن أن تدل. ويكفي أن يسأل شخص ما: /من هو جاك؟/ ليحاب بأنه /ابن عم هنري/ لكي نفهم بأن الوحدة الثقافية المتطابقة مع اسم العلم نعين موقعاً داخل نسق القرابة. فأن تتمتع أسماء الأعلام بدرجة عالية من التجانس (ويكون هناك العديد من الوحدات الثقافية التي تتطابق مع المدلول /جان/)، فإن هذا الأمر يعد واقعة ملموسة بشكل خالص. وبالإضافة إلى ذلك، لا أحد يستعمل اسم /جان/ إذا لم يكن هناك سياق ينظم بشكل سابق الحقل الدلالي الذي تتم الإحالة عليه. فإذا صرخ أحدهم /جان/ في حي شعبي، ليطل مجموعة من الأشخاص من البافلة: فهذه علامة على أن كل اسم يحيل على وحدة دلالية معينة. إن عدم كفاية السياق هي التي منعت المؤلفين من تحديد الحقل الدلالي الخاص الذي تمت الإحالة عليه.

3. 11. 3. إن مقولة الوحدة الثقافية تساعدنا أيضاً على حل مشكلة المدلولات الموسيقية التي لا تشكل، عند البعض، سوى قيم تركيبية. وبالفعل، فإن الصوت الذي يشم به من خلال آلة يحيل على موقع محدد داخل الحقل ذي الأبعاد الثقافية الذي ينظم هذا الصوت داخل نسق توجد به أصوات أخرى (مثلاً النسق البري، وتحديد داخل هذا النسق البري موقع «الري» المهمومة). فكل صوت داخل هذا الحقل محدد دلالياً باعتباره جزءاً ضابطاً، وفي الآن نفسه هناك إمكانات توافقه مع الأصوات الأخرى المتممة لنفس النسق

3. 11. 4. قد تبدو مقولة الوحدة الدلالية باعتبارها تحصيل

حاصل (تونولوجيا)، شأنها في ذلك شأن مقولة المؤول. وبالفعل، لا يمكن الإمساك بهذه المقولة إلا من خلال عناصر أخرى هي ذاتها برحمة لو حدة دلالية. إلا أن هذا الأمر، الذي يشكل حلقة من حلقات السميور (عملية التوليد السيميائي)، ليس شيئاً آخر سوى القاعدة التي فكر وتكلم استادا إليها. وما يمكننا من ترجمة وحدة ثقافة من خلال مؤول قابل للتعرف هو تنوع المؤولات. أما ما يعود إلى الظواهر التي تعود إلى الإدراك، فهي إما منظمة على أساس وجود وحدات ثقافية سابقة، وإما تولد، من خلال تنظيمها، وحدات ثقافية جديدة، تقوم بحيلتها بإعادة بنية الحقل الدلالي وتفرض علامات جديدة، أو يتم تجاهلها بالمطلق، ولن ينظر إليها باعتبارها موضوعات سيميائية. وفي الختام فإن مقولة الوحدة الثقافية تساعدنا في حل التناقضات المتولدة عن:

- الواقعية الساذجة التي تطابق بين موضوع فيزيقي وبين علامة، وهو أمر ليس صحيحاً. (وعلى العكس من ذلك، إذا كان هناك من تطابق بين العلامة وقسم من الموضوعات، فإن هذا القسم هو بالضبط ما نطلق عليه وحدة ثقافة).

- التيار السلوكي الذي يطابق العلامة مع سلوك معين. وهذا أمر سيمعننا من تعريف العلامات التي لا تتطابق مع أي سلوك قابل للمعينة، وتلك التي تحيل على سلوك ملحوظ عندما تؤول بطريقة معينة (تلك التي يتم إنجازها عمداً).

- النزعة الذهنية التي ترى أن العلامة تتطابق، باعتبارها مدبولا، مع وحدة غير قابلة للمعينة: فكرة أو حالة وعي الخ. ونحن نشير هنا إلى صيغة من صيغ السرعة الذهنية المنتشرة وتتعلق الأمر بالحدسية: فهذا الفكر يرى أن لا وجود لأية وحدة دلالية تدعي لنفسها

أنها هي المنطلق الأول، ذلك أن كل وحدة من هذه الوحدات هي تعبير عن وحدات أخرى سابقة عليها بالضرورة، لا وفق النمط المنطقي فحسب، ولكن وفق المراحل التي يقضيها الفرد في التعليم 3، 11، 5. إن الوحدة الثقافية هي وحدة ملموسة يمكن التحكم فيها. إنها محسوسة لأنها تتجلى، داخل حقل ثقافة ما، من خلال مؤولات: كلمات مكتوبة، رسم، تعريف، حركة أو سلوك خاص حوله العرف إلى كيانات سيميائية الخ. وتعد الوحدة الثقافية، مع الدال، الكيان الوحيد القابل للإدراك الملموس، إذا كنا نعني بالإدراك الملموس عينة من عينات المؤول. إن الوحدة الثقافية يمكن التصرف فيها لأنها تتحدد بشكل منهجي باعتبارها قيمة داخل نسق من التقابلات.

ولنأخذ كمثال على ذلك إسما آليا يقوم بدور اللاعب في لعبة الشطرنج. ولنفترض أننا نوقعا داخل حقله الدلالي الوحدات الثقافية. «رعب» و«شل للحركة». فيكفي أن يقوم الإنسان الآلي بسلوك ما (نوع من العلاقات بين العناصر الإلكترونية) يتطابق مع وضعيتين فزيائيتين داليتين (تتحققان وفق السياقات بطرق بالغة التنوع) تتطابقان بدورهما مع مراحل اللعب التي هي /pai/ et /echec et mat/. فمع مرحلة mat يتطابق تعالقي داخلي مؤوله هو «نهاية اللعبة ووضعية سلبية»، وتتحول هذه الوضعية الداخلية ل mat إلى دال يوحي ب «الرعب». وتتطابق مرحلة pai مع المؤول «كل حركة تصع اللاعب في وضعية mat» الذي يتحول بدوره إلى دال للإيحاء «شل للحركة». ب لا تقصد بهذا أن الإنسان الآلي يشعر ويحبها هذه الأحاسيس، إنما نقصد فقط أن بالإمكان بناءه بالطريقة التي يكون من خلالها داخل حلقة التفاعلات التي تدخل في علاقات تقابلية مع كل الاحتمالات الأخرى

الممكنة في وحدتين تنتميان إلى حقل من الوحدات الممكنة. ولا يمكن خلط هذه الوحدات بمراحل اللعب، الذي يظل خارج مجال الإنسان الآلي. ويتعلق الأمر بموقعين لنسق من المواقع الممكنة، إنها مواقع تتطابق مع المثبرات التي تنشأ تشاكلات اللعب (الذي يتحقق من خلال المادة الشطرنجية وفي الشكل الذي هو لعبة الشطرنج). ونحن لا نستطيع وصف الرعب والتجميد إلا باعتبارهما وضعيات أو تعالقات حلقة داخلية للإنسان الآلي، أو أيضا باعتبارهما جوابا مصدره هذا الكائن. إلا أن هذه المواقع موجودة باعتبارها وحدات قابلة للتصرف بهذه الصفة، إلى حد يمكن من إقصائها إذا أتينا بقواعد دلالية للإنسان الآلي. وبعبارة أخرى إذا قمنا بتجزئة الفضاء بطريقة جديدة (المادة) لهذه الوضعيات الممكنة والمتراطة فيما بينها.

12.3. الموسوعة والنسق الدلالي الشامل

12.3.1. إن التمثيل الموسوعي الذي نتحدد داخله المؤولات باعتبارها وحدات ثقافية يفترض وجود نسق دلالي شامل بشكل مجمل معارفها حول العالم، شريطة أن تكون هذه المعرفة قد استقرت اجتماعيا. إن هذا النسق ليس سوى فرضية مهجية أو مسلمة سيمائية. وبناء عليه، سيكون من المستحيل تقديم وصف شامل لهذا لنسق. والاستحالة لا تعود فقط إلى ضخامته، ولكن أيضا إلى أن بوحدات الثقافية التي تشكله تتميز بالتحويل الدائم داخل المسار بلامتناهي للسميوز، وذلك تحت ضغط المتراكات الجليقة، أو بسبب تفصاتها المتبادلة. وبذلك هي طبيعة حياة الثقافة. فالنسق الدلالي، باعتبارها الأساس الذي تسند إليه الدلالة، يمكن وصفه (وبالتالي تأسيسه) على شكل حقول ومحاور جزئية.

فمن أجل شرح الكيفية التي تدرك من خلالها علامة أو مجموعته من العلامات، فإننا نفترض أن لها مقابلاً دلالياً. حفلاً من الوحدات يتطابق مع تلك التي تحيل عليها العلامات، وتلك التي لا بحال عندها ولكنها، بالمقابل، تكشف عن الوحدات التي تحت الإحالة عندها ويمكن أن تتصور، أنه، في مقام سيميائي مغاير، يحب التسليم بوجود حفل مختلف عن الأول، وربما متناقض معه. وبعد النسق الدلالي الشامل، وهو الحد البدني لسيرونة ما، بؤرة الحقل والمحاور الجرفية، سواء كانت تكميلية أو تناقضية. وبالإمكان وصفه، جريب وبطريقة قابلة للمراجعة دوماً، داخل حركة ممارسة سيميائية ما. ولكن إذا نظر إليه باعتباره موضوعاً لنظرية سيميائية، فإنه لن يكون سوى يوتوبيا أو مسلمة ناظمة. والصعوبة التي نستشعرها ونحن مروم تأسيس منطق للغات الطبيعية مصدرها الطابع المتناقض والدينامي للحقل الدلالي الشامل. إن السيميائيات هي حفل نظري يثبت أن هذا الاشتغال يمكن وصفه من خلال قواعد تشاكلية ثابتة، ويثبت أيضاً أن هذه التشاكلات ذاتها متحولة باستمرار، هذا دون أن يدعوا ذلك إلى الاعتقاد باستحالة وصف اشتغال اللغات الطبيعية.

إن شرط وجود السيرونة التي يشكلها النسق هو النسقية. ولا يمكن أن تكون هذه النسقية موضوعاً للوصف إلا داخل قطاع يشكل موضوع الاهتمام الدلالي، إن / أحمر / يقابل / أحضر / في سنن الأضواء اللونية، ويحيل على التقابل «مرور» (م) «توقف». إن / أحمر / يتقابل مع / أسود / في لعبة القمار ويحيل على «ريح» (م) «حساسة»، وذلك وفق طبيعة المراهنة. (المراهنة تشكل علامة ميتالغوية تقول إن «الأحمر» هو علامة الريح). وبالنسبة لموسى وهو يقف على صفة البحر الأحمر، فإن الدال / مرور / معناه الخلاص (في مقابل

العبودية)، ولكن في اللحظة التي اقتربت فيها جيوش فرعون فإن
/المرور/ يتحول إلى «عبودية» (في مقابل «الخلاص») لموسى نفسه.
إن المحاور الدلالية في تبين مستعر وفق المقامات، ولكن من
الضروري أن توجد هذه المحاور من أجل إقامة صرح الدلالة. وعلى
كل دراسة سيميائية أن تنظم أكبر قدر من هذه التقابلات غير المتطابقة
ظاهرياً داخل نماذج حيث تتخذ العلاقات شكل قواعد للتحويل أكثر
عمومية. وفي حالات كثيرة، وفي مناطق شاسعة من الحقل الدلالي
الشامل، سيكون ذلك ممكناً، بحيث سيكون في مقدورنا بناء حقول
دلالية هامة بالغة البنية. إلا أن السيميائيات لا تدعي لنفسها القدرة
على عزل ووصف هذا النسق الدلالي الشامل. وإذا حصل وتم هذا
الوصف، فإن تلك الحركة الإبداعية الدائمة التي تستدعيها حياة
السميوز متوقفة.

وفي هذا الأفق، فإن الثقافة في كليتها يُنظر إليها باعتبارها نسق
أنساق العلامات حيث يصبح داخلها مدلول دال ما دالا لمدلول
جديد، كيفما كانت طبيعة النسق (كلام، موضوعات، سلع، أفكار،
قيم، أحاسيس، إسماءات أو سلوكيات). والسيميائيات، استناداً إلى
هذا، هي الشكل العلمي الذي تتخذه الأنثروبولوجيا.

إن الثقافة هي الطريقة التي يتم بها تفكيك النسق، داخل ظروف
تاريخية وأنثروبولوجية بعينها، ضمن حركة تسمح المعرفة بعدد
موضوعها. وهذا التجزئ يتم على كل المستويات بدءاً من الوحدات
الإدراكية الأولية وانتهاء بالأنساق الإيديولوجية.

ذلك أن الثقافة تجريء المضمون وتثبت في وحدات ثقافية تلك
الأجزاء الواسعة من المضمون الذي تطلق عليه الإيديولوجيا، بالإصافة
إلى الوحدات الأولية من قبيل الألوان وعلاقات القرابة، وأسماء

الحيوانات وأجزاء الجسد والظواهر الطبيعية والقيم والأفكار، والموقع الإيديولوجية يتم توليدها من خلال تقابلات منضوية في سلسلات مركبية طويلة مبنية وفق محاور بعينها. إن الطبيعة «الإيديولوجية» للإيديولوجيا تعود إلى هذه المناورة المخصصة التي توهمنا أن الحقل الدلالية الجرئة تتميز بالثبات، ولا تضعها نعا لذلك في إطار العلاقات العامة التي ينسجها النسق الدلالي الشامل.

إن هذا النسق الشامل لا يكتفي بربط هذه الحقول الجرئة بعضها ببعض، بل يكشف عن تناقضاتها من خلال عقد مقاربات بينها. إن النقد الإيديولوجي يكمن في استعادة هذه الحقول الدلالية الجرئة من خلال نسيج من الترابطات بحيث يفقد ذلك إلى الكشف عن الطبع الجزئي للتقابلات التي يتم الاعتماد عليها.

2.12.3 إن مقولة الموسوعة باعتبارها سقا دلالية شاملا يقودنا إلى تقديم تعديل لمقولة السنن. فقد لا يكون السنن، هي مجموعة كبيرة من النظريات السيميائية، سوى نسق بسيط من التظابقات، وهو ما يجعل منه سقا جامدا لا يتغير. وعلى العكس من ذلك، فإن النسق الدلالي الشامل لا يمكن عرضه في كليته لأنه دائم التغير، وتغيراته تحددها حياة السميوز ذاتها.

فيينا تكون إعادة بناء الأنساق الدالة عملية بطيئة، فون الأساق الدلالية تشين بسرعة: هذا ما يمكن أن يطلق عليه حياة الثقافة. إن إعادة التنظيم هذه يمكن القيام بها عبر الأحكام السيميائية أو الأحكام العملية.

إن إعادة الساء الداخلي تتم من خلال إنتاج علامات مركبة شكل أحكاما سيميائية أو أحكاما تحليلية. إن هذه الأحكام بطبيعتها تكمن في مسح وحدة ثقافية جزءا أو كلا من الخصائص الدلالية التي

بمنحها لها السنن (/ إن القمر هو الكوكب التابع للأرض /). إن بعض هذه الحصائص، مظهرا لحجم سجل مكوناته، قد تكون متناقضة فيما بينها. ولحكم التحليلي الذي يكشف عن هذه التناقضات قد يقضي بنا إلى مخرجين إما أن نتخلى عن إرساليات غامضة، لغايات حمالية (أو من أجل الكذب أو التحايل)، وإما أنه يشير إلى أن تعريف الوحدة الثقافية ذاته يعيش أزمة، وهو ما يفرض على النسق أن يعيد بناء ذاته.

وننطلق إعادة النينة الخارجية من الأحكام الفعلية أو التحليلية. وتمنح هذه الأحكام للوحدة الثقافية، استنادا إلى تجارب جديدة، مكونات دلالية جديدة. وهو ما يفرض على كل نسق أن يعيد بناء نفسه (وقد لا تشمل إعادة البناء هاته سوى حقول ومحاور جزئية). ولهذا فإن عالم التوليد السيميائي هو عالم متحرك. وأن نفترض أن له بنيات لا يعني أبدا أننا نفترض أنه ثابت. إن الأمر يتعلق، على العكس من ذلك، بالتعرف على آليات تغير بنيته.

وبناء عليه، فإن القوى المادية تمارس، من خلال إثارتها لأحكام فعلية، تأثيرا على بنياتها العرفية، أي على عالم التوليد السيميائي. ولكن وبما أن القوى المادية يجب أن تودع داخل علامات لكي تفهم ويتم التعمير فيها (روابط القوى الاقتصادية، القيم السببية للممتلكات، تواصل إيديولوجي)، فإنها تتخذ هي ذاتها موقعا داخل السميور، على شكل علامات، وتتكون حينها خاضعة لتأثير عملية التوليد السيميائي هذه. إن السميوز تحدد، داخل إنتاج الأحكام، بعض شروط المواقف العملية التي توجد في أساس تعبيرات هذه القوى.

ولهذه الأسباب، وأسباب أخرى، فإن السيميائيات ليست نظرية محسب، وإنما هي أيضا ممارسة دائمة. إنها كذلك لأن النسق الدلالي في تطور مستمر، وهي لا تستطيع وصفه إلا جزئيا استنادا إلى وفائع

إيلاغة ملموسة ومحددة. وهي كذلك أيضا لأن التحليل السيميائي يعبر
من النسق الذي يولده. وهي كذلك، في الختام، لأن الممارسة
الاجتماعية ذاتها لا تجد تعبيرها إلا في السيميوز. إن العلامات تشكل
فعلا قوى اجتماعية، وليست فقط أدوات تعكس هذه القوى.

الهوامش:

- (1) ستعلم الوحدات الدلالية في موقعين من العلاقات، يطلق عليها العلاقات الناصبة (syntagmatic)، أي العلاقات الفعلية التي تربط بين مكونات الجملة، فالفعل (جاء) مثلاً يفترض بعده فاعلاً مذكراً مثل: (جاء الرجل)، أو (جاء القطار)، ولا يمكن أن يقال: (جاء المرأة) أو (جاء الطائرة)، والعلاقات التبادلية (paradigmatic)، وهي علاقات العياب التي تربط بين المفردات الحاضرة ومثيلاتها الغائبة. كلمة (جاء) مثلاً ترتبط بكلمة (أقبل)، أو (أتى)، إلخ، وكذلك القطار أو الرجل. وهذه العلاقات هي ما يسميه المترجم بالإبدال والمركب - (س.خ.).
- (2) تماماً مثلما يُطلق على أصغر وحدة صوتية اسم «المونيم»، يُطلق على أصغر وحدة صرفية اسم «المورفيم». ويقسم اللغويون المورفيمات إلى نوعين: المورفيمات الطليقة، والمورفيمات المقيدة. وتختلف اللغة العربية بعض الاختلاف عن اللغات الأوروبية، لأن المورفيمات الطليقة تتحدد بالجنس الثلاثي أو الكلمات الجامدة التي لا تتصرف. أما المورفيمات المقيدة فهي الصيغ المزمدة. الجذر (تبع) مثلاً مورفيم طليق، لكن الرائدة (ت) في الفعل (يتبع) هي مورفيم مقيد - (س.خ.).
- (3) نسمي الجملة حرفياً: (أراهي أمك نركت حيوانك المسرلي خارج القدر)، وننظري الجملة على عدة تقابلات صوتية، بين bei (أراهي) وpet (حيوان مسرلي)، وبين pet نفسها وpot (قدر) - (س.خ.).
- (4) هناك ثلاثة معايير لتصنيف الأصوات الصحيحة أو السواكر، هي: المخرج الصوتي، أو مكان النطق، وطريقة النطق، والجهر والهمس، أي اهتزاز الأوتار الصوتية في الحنجرة أو عدم اهتزازها. ويشارك الصوتان (p) و(b) في مكان النطق، إذ كلاهما صوت شفوي تنطق فيهما الشفتان انطباقاً تاماً، وكلاهما انفجاري، تخرج فيهما الشفتان ويخرج الصوت على شكل انفجار لفتبار الهوائي والعرق الوحيد بينهما هو اهتزاز الأوتار الصوتية مع (b) وعدم اهتزازها مع (p) - (س.خ.).
- (5) الصوتان (m) و(n) في الإنحطرية مماثلان للتون والميم في العربية فكلاهما صوت مجهور تهر معهما الأوتار الصوتية في الحنجرة، وكلاهما أغمي، يمر التيار الهوائي فيه من خلال الأنف، محملاً ما يسمى بالعنة أو الأنعية

nazalization. لكن الفرق بينهما في المحرج الصوتي، لأن إعاقه السيار الهوائي في حالة الميم تكون في الشفتين اللتين تنطلقان انطباقاً تاماً، ثم تنعرجان. بينما تكون إعاقه التيار الهوائي بين طرف اللسان والذلة في حالة النون - (س غ).

(6) في علم الصوت تكتب الكسرة العادية بصورة /i/، وتكتب الياء غير المسحركة /i:/، فالعلامة (:) هي إشارة للطول فقط، أي كون الياء متماثلة مع الكسرة، إلا أنها أطول. وكمثال ساطر لمثال المؤلف في التمييز بين /ship/ (سفينة) و /sheep/ (حروف)، يمكن الاستشهاد في العربية بالفعل (مِلْ) والاسم (مِيل) - (س.ع.).

(7) تختلف اللغات في إعطائها القيم العوبية للأصوات، فإد لا تفرق العربية بين الكسرة والياء في المثال الذي يقدمه المؤلف في كلمة (nirc) (يضحك)، حيث يمكن مطلقه بكسرة أو ياء، تفرق الإنجليزية بينهما. وكذلك الحال مع العربية، فكلمة (صيد)، مثلاً، هي فعل أمر من (صاد)، أما (صيد)، فتعني (كرام)، ولذلك فالكسرة والياء تمثلان تقابلاً عوبياً في العربية، وكذلك الإنجليزية - (س.غ.).

(8) مقدمة إلى نظرية اللغة، 1943 من 45 من الترجمة الفرنسية وهي ترجمة مفلوطة «بالإضافة إلى أن كلام هلمسليف مبتور، فإن نهاية المقطع يجب أن يقرأ على الشكل التالي. لا موظف ضمن وظيفة سيمبائية» (ملاحظة من المترجم الفرنسي).

(9) إن الترجمة الفرنسية تستعمل لفظ «مادة» من أجل الإحالة على ما تسميه الصيغ الإنجليزية لكتابات هلمسليف بالعمري purport (ملاحظة من المترجم الرسمي).

(10) عنوان كتاب هلمسليف هو (مقدمة إلى نظرية اللغة، 1943).

(11) لا تميز اللغات الأوربية، والإنجليزية بالتحديد، بين التذكير والتأنيث ولديت فهي تطلق على الجمل كلمة (camel)، مثلاً، وعلى الخروف (sheep)، لكنها إذا أرادت تأنيث الكلمة، أصابت لها ضمير التأنيث، فيقال she camel للماقة، و (she-sheep) للتصبة، وهكذا - (س.ع.).

(12) يحدد السياق أية فئة من الفئات الأربع هي المقصودة. فإذا تحدثت امرأة وقالت: «زوجي ليس bachelor»، نبي لنا أن الشخص الذي نتحدث عنه متزوج، فلا يمكن أن يكون أعزب، وليس حيواناً بالطبع، ولذلك فهو حامل

البكالوريوس وفي مثال الطالبة التي ترفض الزواج بلويس لأنه ليس bachelor، يظل من غير الواضح هل قصدت أنه متزوج أم لا يحمل شهادة بكالوريوس - (س.غ.).

(13) رمانه وعيله يدويه.

(14) الأسئلة التي تنطوي على أجوبتها في داخلها.

(15) لينتاعرام (pentagram) نجمة خماسية تستخدم كرمز سحري والمقصود أن القاموس يصنف هذا الدال من حيث هو كلمة تدل على موضوع، وبالتالي يصنف الكلمة باعتبار خاصيتها النجمية وانشعابها إلى خمسة رؤوس. وفي هذا التصريف يسقط بعدها السحري. ويصح الشيء نفسه على المعرفات الدالة على التعاويذ في العربية مثل (كف العباس) التي تضم خمسة أصابع، أو (أم سبع عيون) وهي خثرة سحرية فيها سبعة قلوب - (س.غ.).

(16) يصح هذا على (الملح)، كما لاحظ علماء الدلالة. فأنت لا تقول لجارك على المائدة: (أعطني كلوريد الصوديوم من فضلك)، بل تقول (أعطني الملح رجاء). وبالرغم من أن الملح وكلوريد الصوديوم هما مادة واحدة من حيث التحليل الكيميائي فإن (الملح) مادة تنتمي ثقافياً إلى آداب المائدة، أما كلوريد الصوديوم فواقعة مخبرية. ولهذا يدرج التحليل الموسوعي الإرث الثقافي لكل مهما، وهو آداب المائدة وشكل المملحة في الحالة الأولى، وثقافة المخبر في الحالة الثانية - (س.غ.).

الفصل الرابع

أقطار الإنتاج السيميائي

1.4. تفصيل العلامات غير اللسانية

اتضح لنا مما سبق أن النموذج النبوي يمكن، نظرياً، أن يطبق على النسق الدلالي، أي على التنظيم الخاص بالمدلول. وعلينا الآن أن نتساءل عن الفرضية القائلة بإمكانية تطبيق النموذج الذي تبلور في اللسانيات على جميع أنساق العلامات. ولقد كانت مجهودات لويس بريثو لاختبار هذه الفرضية من أهم ما أجز في هذا المجال. وتدرج، تصورات ضمن فكر بيوسنس، وإن كانت تتميز عنها بكثير من الدقة لمنطقية، (بريثو 1966).

ومع ذلك، فإن محاولات بريثو ظلت منحصرة في دراسة أنساق العلامات الاصطناعية والاعتباطية مثل قانون السير وأرقام القطارات وغرف الفنادق والتواصل من خلال الأعلام، ولم يهتم بالأنساق الأيقونية مثلاً (إذا كان الأمر يتعلق فعلاً بأنساق). لقد تعامل بريثو مع علامة من هذا النوع، تعامل معها باعتبارها كياناً غير قابل للتجزئة (مثل المصمم في تصور بيوسنس).

ولنأخذ على سبيل المثال نسقاً إبداعياً بسيطاً كترقيم غرف الفندق. فالرقم / 77 / يحدد غرفة بعينها وله مدلول (بالإضافة إلى مرجع) ما دام

البواب يربط دالا ما بصورة ذهنية، وهي ترجمة تتم من خلال علامات أخرى، وتعد أيضا وصفا. وباختصار إنها شيء يمكن تحديده كعلامة. فما هو مدلول / 77 / ضمن هذا السن؟ إنها الغرفة الثامنة في الطابق السابع. وهذا يعني أن 7 الأولى تشير إلى الطابق، والثانية إلى الغرفة الثامنة في هذا الطابق (إنها الثامنة لأن الترقيم يبدأ من 70).

وبطبيعة الحال إذا كان الفندق يتوفر على غرف في الطابق السفلي، فإن / 7 / الأولى قد تحيل على الطابق السادس (لا إذا كان الترقيم في الطابق السفلي يبدأ ب 00، 01، 02...). فنحن إذن أمام سن يمتلك تمفصلات: إن وحداته هي أرقام بسيطة تشير إلى طابق أو غرفة وذلك حسب مواقعها، وتنمفصل في مركبات دلالية (مثلا / 77 /)، دون أن تكون قادرة على التفكك في وحدات لها معنى، كما هو الشأن مع الفونيم (هلمسليف يقترح أن يطلق اسم صورة على كل وحدة بسيطة داخل نسق سيميائي).

ولنأخذ الآن السن المحدد لمدلولات أرقام الحافلات داخل مدينة ما. الرقم / 21 / يمكن أن يدل على «ساحة كنيسة لافوا»، وبالنتيجة فإن / 21 / هو مونيم لا يمكن أن يدخل ضمن تمفصل أوسع، يكون هو ذاته نتاج تأليف مركبي لوحداث تنتمي إلى التمفصل الثاني (/ 2 / و / 1 / التي لا تتوفر في ذاتها على دلالة، إنها تتوفر فقط على قيمة اختلافية في علاقتها ب / 0 / و / 3 /).

مثال آخر هو الصورة التالية:



«مرور الدراجات...»، فهو يتكون من علامتين: أسطوانة بيضاء يحيط بها خط أحمر يدل على «المنع»، ودراجة دالة على: «هذا الأمر يحصر مستعملي الدراجات». إن إنتاج هذا الملفوظ قائم على سنن محروم من التمعصل الأول. إن الأسطوانة البيضاء المحاطة بالأحمر وصورة الدراجة لا يمكن تفكيكها إلى عناصر صغيرة محرومة من أي معنى، إنهما يأتلفان على مستوى التمعصل الأول، ويمكن أن يحبلا ضمن تأليفات أخرى، أي على مدلولات أخرى، مثال ذلك أن نفس الأسطوانة تحمل رسماً لشاحنة سيعني «ممنوع على الشاحنات». ويقدم لنا بريتنو تصنيفاً للعلامات يستند إلى قواعد تجميعية ويميز

بين:

- أ - سنن بلا تمفصل، وما هي الأمثلة الدالة عليها:
- سنن بمعنم وحيد (العصا البيضاء للأعشى، فالعصا تحيل على حضور المعنم أو عدمه).
- سنن بذاك صفر: (شعلة الأميرال تعني «وجود الأميرال على ظهر الباخرة، أما غيابها فيعني «الأميرال في البر»).
- الضوء الثلاثي اللون: كل ملفوظ يشير إلى وظيفة (أحمر: مرور ممنوع) إلا أن الملفوظ لا يتفصل لا في علامات ولا في صور أولية.

ب- سنن تشتمع بالتمفصل الثاني فقط: مثال ذلك خطوط الحافلات ذات الرقمين (انظر المثال السابق)، الإشارات البحرية ذات الأذرع (وضعية الدراعين هي صور مجتمعة من أجل تشكيل علامات تشتمع بمدلولات، ولكن مدلول هذه العلامات هو حرف من حروف لأحدية، ولا يعود تمفصل هذه الحروف إلى قواعد هذا السنن، بل إلى قواعد السنن اللساني).

ج سنن يتمتع بالتمفصل الأول فقط: مثال ذلك: ترفيم غرف الفنادق (انظر ما سبق)، الإشارات المرورية (انظر ما سبق)، الإشارة الدالة على «ممنوع على مستعملي الدراجات»، الترفيم العشري (الذي يشغل أيضا من خلال الدزينة والوحدات).

د سنن بتمفصلين: مثال ذلك اللغة اللفظية، أرقام الهاتف الستة أو سبعة أو ثمانية أرقام (كل مجموعة من هذه الأرقام تدل على منطقة أو شبكة أصغر، وعلى موقع محدد في هذه الشبكة، في حين أن الأرقام المعزولة التي تكون المجموعات فلا مدلول لها، إنها تمنع فقط بقيمة اختلافية).

ويمكن، بالإضافة إلى ذلك، تصور أسنن بتمفصل متحرك، وكنموذج على ذلك ما يقدمه ورق اللعب، حيث تنعير قيمة وتمفصل الأوراق حسب اللعب المختار (واللعب في هذه الحالة هو السنن)، وحسب مراحل كل لعبة. وتنظي مصفوفة لعب الورق:

أ- عناصر اختلافية بقيمة رقمية: إنها القيم المحددة من 1 إلى 10 أو 13 (صور الملك والملكة والوصيف ليست سوى أدوات للتعرف، إنها في الواقع قيم رقمية تحتل المراتب العليا).

ب- عناصر اختلافية بقيمة شعاعية. القلب (coeur)، العنزة (pique)، الباتي (trèfle)، الديناري (carreau).

ج- تأليفات من (أ) و (ب)، مثال ذلك 7 من فئة العنزة.
د- إمكانات للتأليف بين مجموعة من الأوراق مثال ذلك ثلاث أس.

ففي لعبة البوكير، تعد (أ) و (ب) عنصرين يتميان إلى التمفصل الثاني، وهما بذلك يلدون معنى (صور)، ويأتلفان من أجل تكوين عناصر (ج) التي تنتمي إلى التمفصل الأول، وهو تمفصل له دلالات

متعددة (إذا كان يبدي أس، فهذا يسمح لي بتأليفات هامة) وهذه العناصر تأتلف ضمن مركبات من نوع (د) بدلالة عنية ثلاثية أس وحماسية فلوش.

ومع ذلك، فإن العنصرين (أ) و (ب) يكتسبان، حسب مراحل اللعبة، فيما اختلافية: ففي الخماسية لا قيمة للعناصر المتممة إلى (ب) (إذا كنت في حاجة إلى 10 فلا يهم الفتنة التي تنتمي إليها هذه العشرة أكانت القلب أو العنزة). أما في الفلوش فإن الأمر على خلاف ذلك، فالعناصر (أ) لا قيمة لها في حين تتمتع العناصر (ب) بقيمة اختلافية. أما في حماسية الفلوش، فإن العنصرين معا يتمتعان بقيمة. وفي بعض العمليات المربحة، فإن العناصر المتممة إلى (أ) هي التي لها قيمة دلالية، ذلك أنه بإمكان جمع ثلاثة أو خمسة للحصول على ثمانية. وفي «العصي الأسود»، فإن عصرا واحدا (هـ) - صبي العنزة - هو الذي يتمتع بقيمة تقابلية في علاقته بكل الأوراق الأخرى، لأنه لا يستطيع معها القيام بأي تأليف من أجل تكوين زوج (إنه يوشر على هزيمة اللاعب).

وبإمكاننا البرهنة، من خلال المزيد من الأمثلة، بكثير من الوضوح على الأهمية التي يكتسبها مبدأ التفصيل، فهو يتمتع، عندما يطبق على أساق أخرى، بقيمة وصفية كبيرة نمكنا من وصف هذه الأساق في خصوصيتها، وهذا ما يمكننا من التعرف على أساق بنمض ثلاثي، كما هو الشأن في السينما (إيكو 1968). وقد يشكل النموذج اللساني عائقا في وجه وصف بعض أنواع الخطابات.

2.4. محدودية النموذج اللساني

عندما مركز اهتمامنا على بنية العلامات، كالأيقونة والمؤشر

مثلا ، فإننا نكون أمام مشاكل من طبيعة أخرى ، فهذه العلامات تبدو لنا على شكل وحدات غير مميزة (انظر 2 8) ونحن نطلق عليها الملفوظات الأيقونية. إنها ملفوظات ، لأن صورة رئيس الجمهورية لا تدل فقط على «رئيس الجمهورية» ، بل تدل أيضا على فلان رئيس جمهورية ، يقف على رجله مبتسما ويرتدي بدلة سوداء إلح.

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن ما ندعوه علامات أيقونية يعود إلى فئة أخرى من العلامات ، ويجب أن توصف استنادا إلى نمط إنتاجها ، ويقوم تحليلها على هذا الأساس ، وهو ما يبعدنا عن النموذج التفصيلي. ومع ذلك ، فإن العلامة الأيقونية ، يمكن أن نجزأ إلى عناصر اختلافية محرومة من أي مدلول ، مثال ذلك إجراءات إعادة إنتاج الصور الميكانيكية أو البرمجة الخاصة بالصور الرقمية.

فإذا نحن تأملنا صورة في جريدة يومية ، فإننا نلاحظ أنها تنجز إلى عدد لا متناه من النقاط المنظمة في شبكة ، ويمكن لهذه العناصر أن تصنف وفق نمط الإنتاج التقني الذي يشتمل عليه : يمكن أن نكون أمام تقابل بسيط بين الأبيض والأسود ، أو نسق مختلف من الوحدات ، أو كثافة مختلفة ، أو نسق من التشاكلات الشكلية المختلفة إلخ...

وفي جميع الحالات ، فإن العناصر الدنيا للنسق تأتلف فيما بينها لتشطينا ملفوظا أيقونيا ، بحيث نستطيع الحديث عن ملفوظ مركب ، يمكن أن يوزع بصفته صورا لا باعتباره علامات.

ولقد كانت هناك تجارب من أجل تحليل العلامات الأيقونية ذات الطبيعة الحرفية أو الأسلوبية ، من أجل معرفة ما إذا كانت نفس التشاكلات تطابق نفس الآثار الناتجة عن مدلولات صورة (نظر مثلا كريستي 1972). إلا أن المشكل سيظل قائما كما سرى لاحقا في الفقرة 5 . 3 . 4 ، ويستدعي أسئلة فلسفية وسيكولوجية أعم من هذا بكثير.

وفي بعض الحالات (مثال العلامات الأيقونية)، فإن النموذج اللساني يمكنه أن ينتج أثرا يؤدي إلى الشك في كل شيء. إن تعداد محتمل الإمكانيات التفصيلية، كما اقترحها برينو، يُظهر أن وصف العلامات يمكن أن يملأ من سلطة النموذج اللساني. فبإمكاننا، كما رأينا، أن نطلق اسم علامة على أشياء تعتمد على روابط دلالية، حتى وإن كانت بينها الداخلية ليست من طبيعة بنية العلامات اللسانية، ويمكن أن يقدم وصفا لهذه البنية الداخلية، حتى وإن كانت مختلفة عن البنية اللسانية.

إن جل هذه الإجراءات الوصفية ما زالت في حاجة إلى صياغة، والأبحاث جارية من أجل ذلك، ولكننا لا يمكن أن نكرر أن اللسانيات تعد أعنى الدراسات وأعمقها حول العلامات، إنه نصح يستند إلى قرون من النقاش. ولهذا سيكون من الصعب التحلي عن هذا النموذج الذي، ولحسن الحظ، أثنى البحث السيميائي في كلبته، وقبل تعديل هذا النموذج أو الإعلان عن عدم ملاءمته، سيكون من المفيد تدقيق النظر لمعرفة إلى أي حد يمكن أن يكون تطبيقه على أنساق أخرى أمرا ممكنا.

علينا إذن أن ننبد الخلاصات المتسرعة للسانيين والسميولوجيين الذين رفضوا أن تكون بعض الظواهر غير المتلائمة مع النموذج اللساني علامات. ولكن علينا أيضا أن نرفض النقل التبسطي لهذا النموذج إلى أنواع من العلامات لا يمكن أن تستقيم داخل اللغة اللفظية.

وباحتصار فإن مشاكل السيميائيات هي التالية: كيف تطور تعريفا عاما يصدق في الآن نفسه على النموذج اللساني وعلى علامات من طبيعة أخرى.

لقد اقترحنا في إيكو 1975 تصنيفاً سيميائياً للعلامات انطلاقاً من العمليات التي يقوم بها الباحث والمتلقي من أجل إنتاج وتأويل العلامات سواء كانت معزولة أو مدرجة ضمن سياق، وهو ما شرحه في الخطاطة التي تقدمها في الصفحة الموالية. فنحن لا نعثر في هذه الخطاطة على أنواع العلامات، كما هو الشأن في السمذجات التقليدية، بل نعثر على أنواع من الصيغ الإنتاجية للعلامات. وبعبارة أخرى، فإن المقولات من قبيل نسخة أو التجسد لا نحيل على أنواع من العلامات الخاصة، بل على سيرورة توليدية. وبصيغة أخرى، يمكن لكيان ما محدد كعلامة أن ينتج ويؤزل وفق أنماط متنوعة قابلة للتداخل فيما بينها. وهذا ما سنراه بشكل أوضح في الأمثلة التي نقرحها في نهاية هذه الفقرة.

إن تصنيفنا لأنماط الإنتاج السيميائي يستند إلى معايير أربعة.

1- العمل المادي الضروري لإنتاج العبارات، وقد يتعلق الأمر فقط بالتعرف على شيء يتمتع بوجود فيزيقي، وقد يتعلق بإنتاج نسخ لنفس الشيء، بل قد يصل الأمر إلى ابتكار تعبير لم تسبق معرفته مروراً بتجسيد الشيء.

2- العلاقة بين النوع المجرد وتحققه الملموس (في الانجليزية type vs token).

3- نوعية المتصل المادي الذي نعمله من أجل إنتاج التعبير.

4- نمط التفصيل وتركيبه. وهذا الأمر يمتد من الأنساق التي تكون فيها الوحدات بالغة التسنين، إلى تلك التي يتم الإمساك بها من خلال البصوم التي يصعب فيها التعرف على الوحدات (ونمبر أبيض بين تلك التي تكون فيها الوحدات مفصلة وتنظم وفق تقابلات وبين تلك التي تكون فيها أمام متصل مطرد).

ولغابات تبسّطية، لن نقف هنا إلا عند المعيارين الأولين.

1.3.4. تمييز بين أربعة أنواع من العمل المادي.

أ- التعرف: شيء أو حدث ولید الطبيعة أو الفعل الإنساني، يتم بثه في ارتباط مع مضمون من لدن مؤول إنساني لم يكن هو لمسؤول عن إنتاج هذا الشيء. وكمثال على ذلك نقدم البصمات (لأثار التي يتركها حيوان ما)، والأعراض (الآثار البادية على وجه شخص يتألم)، والمؤشرات (الأشياء التي يتركها مجرم ما في مكان الجريمة).

ب - التجسد: ويحدث ذلك عندما يكون هناك شيء سابق في الوجود ويُستقى ويُشار إليه باعتباره يمثل القسم الذي ينتمي إليه. يمكن أن أشير إلى موضوع تام باعتباره مثالا على قسم (سجارة معرولة للقول «سجائر»)، أو جزء من عينة للدلالة على الكل (عينة سجائر للدلالة على كل عصب السجائر)، أو إنتاج عينة وهمية، فإذا حاكيت مثلا إيماءات من يمارز ولم يكن في يدي سيج، فإنني أقوم فقط بجزء من الفعل الذي أريد لتدليل عليه، والأمر يصدق أيضا على كل شخص يوهنا أنه يدخن من أجل الدلالة على «سجارة»، «مدخن» «التدخين».

ج - النسخة. إننا نحصل على النسخة عندما نتيج نحققا منحدرًا من نوع مجرد، الكلمات مثال جيد على ذلك، إلا أن هذه الكلمات تنتمي إلى فئة محدودة من النسخ ويتعلق الأمر بالوحدات التأليفية. ذلك أنه يجب أن نترك المجال لأنواع أخرى من النسخ، كما هو الشأن مع لأسنة. ومقدم لنا ملك لعبة الورق مثالا جيدا على ذلك: يكفي أن يحصل لبعض معضيات من نوع وجود عرش، لعبة إلح.. ويمكن دلسة لما تبقى أن ينسخ على نفس الموال.

أما في الهندسة المعمارية فإن القوس، والعمود وتاج العمود عناصر نقدم لها نماذج على الأسئلة. أما في اللغة فتعثر على بعض الصيغ الخاصة بالسلوك الأدبي، وهي صيغ نستعملها في لحظات التعارف كأن نقول: «تشرفنا»، «سعيد»، «كيف حالكم؟» «أنا أسعد بذلك»، «سعيد بمعرفتكم»، في هذه الحالة نحصل على نفس المدلول، فالنوع لا يفرض سوى بث تعابير تشير إلى الرضى.

ويمكن أن نصنف ضمن السحج الوحدات التأليمية المرفقة، مثل ذلك المخطوط في لوحات موبديان أو نوطات توزيع موسيقي: فمن الصعب تحديد مدلول هذه العناصر، فهي قابلة لتأويلات متعددة، وليس لها أي رابط محدد مع مضمون ما. ويمكننا القول إن الأمر يتعلق بوحدات قابلة لأن تصبح موزونات دون أن يكون مصيرها السيميائي محددًا. وما أيضا سنصنف المثيرات المبرمجة ضمن السحج. فمع أن الباث أنتجها وهو يدرك أن مقابل المثير هناك بالضرورة استجابة، فإن المتلقي لا يدركها بالضرورة باعتبارها ظواهر سيميائية (فهو يتصرف تجاهها وفق الصيغة مثير-استجابة). إن هذه التعابير تتميز بنفس الخصائص المكابية والزمائية المتطابقة مع مضمونها. مثال ذلك سهم موجه يمينًا يدل على «سر يمينًا»، «سوق ترتيب الخدمات في الملفوظ: «بيير يضرب بول»، «بيير هو فاعل الفعل، وبول هو موضوعه. أما إذا قلبنا نظام هذا الملفوظ (/بول يضرب بيير/)، فإن سنغير بالضرورة من مضمون الملفوظ.

1- الابتكارات: نصنف ضمن الابتكارات التطابقات والإسقاطات والرسوم اليبانية (نستعمل هنا المقولات الهندسية والتوبولوجية). ولشرح هذا النوع من الإنتاج السيميائي يجب استحضار المعيار الثاني للتصنيف المقترح: العلاقة بين النوع والتحقق.

4.3.2. عندما نصوغ عبارة ما، فإننا نتيج تحققنا استنادا إلى قواعد منسجمة مع النوع المجرد (فهذا النوع يشكل «رزمة» من النوجيهات)، ومن أجل فهم ما سيأتي يجب أن يكون حاصرا في الدهن أن الرابط بين النوع والتحقق يطلق عليه في الانجليزية type و token.

وتعد كلمات اللغة نموذجا للعلاقة النوع / التحقق التي يصدق عليها البرهنة البسيطة . ولناخذ في الالمانية كلمة /hund/ (كلب)، فهي تشتمل على أربعة فونيمات يجب أن تكون مرتبطة فيما بينها وفق نظام محدد، وعندما تتحدد قواعد إنتاجها الصوتي، يكون بإمكان جهاز آلي لتوليف الأصوات إنتاجها.

إن التعبير مرتبط بالمضمون وفق عرف ثقافي، إلا أن البرهنة البسيطة لا تتحكم سوى في تحقق العلامات الاعتبارية، فالأعراض مثلا معللة (دون أن تكون «متشابهة» مع السبب الذي تكشف عنه)، ويمكن إنتاجها اصطاعيا. وهذا معناه أنها قابلة للتزييف، ومع ذلك فهي تنتج وتذكر استنادا إلى تطابقها مع نوع يتم وصفه في كتب «علم الأعراض»، إنها إذن محكومة ببرهنة بسيطة .

ولناخذ في الاعتبار الآن إشارة مروية تتخذ شكل سهم موجه من اليمين إلى اليسار. إن هذه الإشارة ترتبط اعتباريا بالأمر «اتجه يسارا»، ومرتبطة بـ «اليسار» برباط معلل. وعلينا أن نسجل أن هذا السهم يمكن أن يستخدم في المدينة في وضعيات متعددة لكي يدل على أشياء متنوعة، وحتى في حالة عدم إحالته على أي موقع محدد داخل سياق رمزي مكاني، فإنه سيحافظ على طبيعته الفضائية. إن العلاقة بين التعبير الذي هو «سهم» وبين مضمونه محكوم ببرهنة مركبة: يتطابق نوع التعبير مع نوع المضمون.

إننا نلح من جديد على أن هذا التصنيف الخاص بنمط الإنتاج السيميائي لا علاقة له بنمذجة للعلامات. فسهم الإشارات المرورية بوصف عادة ماعتباره علامة وحيداً، ولكنه في واقع الأمر نتاج أنواع متعددة للإنتاج السيميائي: إنه وحدة تأليفية محكومة ببرهنة بسيطة لأن نوعه المحدود موحود سلفاً (إنه موجود في كتب تعليم السباحة). وهو أيضاً أسدية، فالسهم قد يكون كبيراً أو صغيراً، طويلاً أو قصيراً، منحوتاً أو مرسوماً، وكيفما كان لونه، فإنه سيظل وظيفياً لأننا احتراماً بعض خصائصه الأساسية (مثلاً قاعدته يجب أن تكون أطول من علوه، بحيث نستطيع إدراك الرابط القضيائي الحسي بين اليمين واليسار، وله رابط بين الأعلى والأسفل). ومن هذه الراوية فهو محكوم ببرهنة مركبة ذلك أن له خاصية موجهة.

يجب أن نلح أيضاً على أن البرهنة المركبة لا تتعلق بالعلاقة الربطية بين تعبير والموضوع الذي يحيل عليه، بل بين تعبير ومضمونه. ولناخذ حالة البوصلة وبينتها الأولية (زهرة الريح). إن شكل التعبير لا يحاكي بأي شكل من الأشكال شكل الكوكب الأرضي وموقعه من الشمس، فالثقافة العربية لم تحتفظ، من أجل التمثيل لكوكبها، إلا ببعض السيات الملائمة، كالراوية التي تحولت إلى خطاطة دائرية ذات بعدين، فوجهة النقاط الأساسية ذاتها عرفت. وهذا ما يتأكد لنا إذا أخذنا في الاعتبار الصليب المعقوف الذي يمثل حركة الشمس: لا يمثل الصليب النازي المعقوف (أ) هذه الحركة إلا بامسية للمتموجه نحو الجنوب، أما إذا فوجها نحو الشمال، فإن حركة الشمس تتمثل من خلال الصليب المعقوف المستعمل عادة في الشرق الأقصى (ب).



(a)



(b)

إن عددا كبيرا من خرائط القرون الوسطى تصنع إفريقيا في أعلى الرسم وأوروبا في الأسفل أو تضع الشرق - موقع المردوس الأرضي - في المكان الذي نضع فيه الشمال، وهكذا فإن رهرة الريح ليست سوى مثال ضمن التمثيلات الممكنة للتوجيه المصانفي.

وعلى هذا الأساس يمكن القول إن حطاطة البوصلة تعود إلى البرهنة البسيطة في حدود أن التمثيل أيضا محكوم بالبرهنة المركبة. ذلك أن التعبير محدد من خلال علاقات شبيهة بتلك الخاصة بالمضمون الذي نحيل عليه: إذا كانت إفريقيا توجد في أعلى الخريطة، فإن آسيا يجب أن تكون بالضرورة في يسارها، وأمريكا في يمينها. فلا يمكننا، بالفعل أن نغير بشكل اعتباطي موقع نقطة من هذه النقط الرئيسية.

لا يمكننا أن نغير بشكل اعتباطي موقع نقطة من هذه النقط. بالتأكيد سيكون بإمكاننا تغيير موقع نقطة من هذه النقط، وفي هذه الحالة فإن موقع النقط الأخرى سيتأثر بهذا التعبير دون أن يستدعي ذلك أي قرار اعتباطي.

إن إقامة خريطة جغرافية تفترض أعرافا معينة (وهناك الكثير من هذه الأعراف) إلا أن العرف لا يعني الاعتباطية، كما أن التحليل لا يعني وجود اتفاق تسنده الثقافة. هناك بعض الأعراف القائمة على

أسس تحليلية فيزيقية، وهذا التحليل ينتج عنه تناسب بين التعبير ونوع المصموم، على الأقل في بعض المظاهر أو من جهة نظر وصف ما.

4. 3. 3. يمكننا الآن العودة إلى آخر نمط من أنماط الإنتاج

لسميائي ويتعلق الأمر بالابتكار.

إن الابتكار ممكن عندما لا يكون التعبير وليد الإحالة على مرجعية من نوع تعبيرى، لأن هذا النوع لم يوجد بعد، ولا يمكنه أيضا أن يكون مرتبطا بسوع مضموني قار، لأن هذا المضمون لم تحدده ثقافة بعد. ولتحاول الآن أن نتصور ما حدث عندما تم اختراع العداد الشمسي. لقد أسقط المبتكر (أسقط بالمعهوم الهندسي للكلمة) تجربة مبنية على رسم بياني تعبيرى. ونعني بالإسقاط مجموعة من العمليات الثقافية التي تقيم تماثلا بين ما تم إسقاطه وباتح العمليات على أساس قواعد تناسبية؛ ولما تحتفظ من هذه السيرة سوى بعض المظاهر التي أصبحت ملائمة، وبهمل الباقي. وبهذا المعنى، فإن هرما من بعض السنتمترات في العلو، وعلى قاعدة تتكون من بعض السنتمترات المربعة، يمكنه أن يشكل إسقاطا هندسيا صحيحا لهرم خوفو (Cheops)، حتى وإن كان الأصل الحاصر يتخذ شكلا مختلفا ومصنوها من مواد أخرى.

هناك كمية كبيرة من الابتكارات: بدءا من تلك التي تتمتع بأكثر قدر من السلامة (مع كل نقطة من نقاط النموذج المصمومي أو لموضوع الواقعي تتطابق نقطة من مادة التعبير)، التي هي التناسب، ومن أهمها القناع الجنائري، إلى تلك التي يعد فيها التطابق بين نوع المضمون والتعبير من نظام منطقي لا فضائي: إنها الرسم البياني، مثلا رابط حيالوحي بين «أ» و «ب» يمكن تعبئته من اليمين إلى اليسار، ومن الأعلى إلى الأسفل، إن لم يكن ذلك من خلال تعبيل حلزوني

يمكن السير فيه من الوسط إلى الأطراف، ومن الأطراف إلى الوسط.
إن حالات الابتكار هي كل تلك التي تقترح فيها القاعدة الرابطة
من تعبير ومضمون لأول مرة، فالخصائص التي صنعها ضمن
«التعرف» ليست ابتكارات رغم أنها وليدة إسقاط. فعبيرها سابق على
التعرف وليس مبتكرا في اللحظة التي يتجلى فيها نموذج المصنوع

4.3.4. علينا، في نهاية هذه المراجعة الخاصة بأشواط الإنتاج
السيمبائي، أن نتساءل إلى أي حد يمكن تطبيقها على الظواهر
السيمبائية المختلفة. وعلى سبيل التجربة، سدرس موضوعين بالعي
الاختلاف. الموضوع المعماري والتعبير اللفظي. لقد أظهرت
سيمبائيات المعماري بشكل كاف بأن الموضوعات المعمارية هي تعبير
محملة بمصامير وظيفية واجتماعية (إيكو 1968)، ومع ذلك سيكون
من الخطأ اعتبار المنتج المعماري علامة بسيطة. إنه في واقع الأمر
نفس تتداخل فيه ظواهر الإنتاج السيمبائية مع بعضها البعض.

وليكن سلم، إنه يعبر وظيفية، ويمكن أن يوحى بالوضع
الاجتماعي للذي يرتفيه (سلم عظيم، سلم حلزوني لمبارة)، إن الحالة
تخص الأسلوب (فمراجعة هذا الموضوع مرة حذا، وتحقيقاتها مختلفة
عن بعضها البعض، ولكنا نتعرف في نهاية الأمر على السلم) ولكنه
يعد أيضا نتيجة لنسجة شبه متمفصلة، وفي الوقت ذاته، فإن ميسر
يجعل منها حالة تحيل إلى الاتجاه: فبفضل خصائصها الفيزيائية،
نحبرنا المباراة عن الاتجاه المفروض على المستعملين الذين يودون
الصعود أو النزول.

ولسأخذ الآن الكرسي، فهو أيضا يحبرنا بوظيفته، وشكله هو
إسقاط لشكل الإنسان وهو جالس (ثلاثة أجزاء عمودية الحوص،
الساقان، الأرجل)، وهو أيضا القيمة المثالية للجسد الإنساني،

ويوحي أيضا بمنزلة من يستعمله ومدى كرامته (عرش، كرسي في
منه)، إنه أسلّة أيضا، فمن أجل الإخبار عن وظيفته الأولية (هو
لمحلوس كيفما كانت مرتبة الجالس) عليه أن يستحيب لعدد صغير من
لسمات الملائمة، بالإضافة إلى أخرى تكميلية ومتوعة.

ونفس التحليل يمكن أن يصدق على العبارة اللفظية. فلنحاول
تصور كل أنماط الإنتاج السيميائي التي تسهم في بث وتأويل ملفوظ
ما. والمثال الذي يختاره يتعلق بذلك الشخص الذي يحاكي أمريكيا
بتكلم الفرنسية ويقول:

/Ah Ah , quand vous dites «jeu vais ow cabareu» ça va
sans dire que vous etes Américain/.

فكل كلمة من كلمات هذا الملفوظ هي مثال على وحدة تأليفية
محكومة ببرهنة بسيطة، وفي نفس الآن هاك أنماط أخرى للإنتاج.
Ah-Ah - تمكن هذه العبارة المتلفي من تغدير درجة حرارة
الباث، وهي أيضا مثير مبرمج (لأنه يهدف إلى تبيه المتلفي)، فإذا
لم تكن Ah-Ah استفهاما حقيقيا بل تغلب فقط، فستكون هناك إذن
أسلية، ونكون في الوقت نفسه أمام صينة وهمية. فذلك أن صيغة
التعجب Ah-Ah هي بث صوتي تدرسه اللعويات الموارية ولا علاقة
لها بالسق اللساني، ويتعلق الأمر بوحدة شبه متمصلة، ومرد كل هذا
إلى البرهنة البسيطة .

quand vous dites . . ça va sans dire / - إن البناء الذي هو
من نوع الصيغة «إذا - إذن» بعيد عن أن يعبر عن علاقة رمزية أو
سبب لشيعة إن الأمر يتعلق بتوجيه. ومن جهة أخرى، فإن المركب
vous dites, هو ذاته توجيهها. يكفي أن نقلب نظام الوحدات إلى
vous- dites/ لكي نحصل على عبارة تحيل على مضمون استفهامي.

إن كل هذه العلاقات محكومة بالبرهنة المركبة.

« *jeu vais ow cabaréi* » تحيل على عبارة نطق بها أمريكي يحاول الحديث بالفرنسية. نحن إذن أمام تجسيد وبالضبط أمام عسة وهمية (ذلك أن الأمر لا يتعلق بتجسيد فعلي لهذه الجملة بل بمحاكاة). إن الملفوظ هو في ذات الوقت عرض لأصل عرقي يمكن تعيده ...

وبما أن هناك سجلاً لكاريكاتور تيري، فمن إذن أمام حالة من حالات البرهنة البسيطة. أما إذا حاولت الجملة إعادة إنتاج مبرة لا يمكن تقليدها لشخص بعينه، فسنكون أمام حالة من حالات الابتكار. إنه ابتكار يقوم، كما هو الحال مع كل كاريكاتور، بالتركيز على بعض السمات الخاصة فقط بالطق الأصلي، وسيكون في هذه الحالة حالة إسقاط للبرهنة المركبة.

ça va sans dire - إن الأمر يتعلق بجملة جاهزة (أي أسلوبية). ويمكن للتحليل أن يتواصل، ولكن يكفي أن نبين إلى أي حد يمكن لأنماط الإنتاج السيميائي أن تتداخل فيما بينها حتى في حالة الوظيفة السيميائية البسيطة نسبياً.

ويمكن التأكيد أن النظرية السيميائية تتجاوز، باستعمالها لنموذج من هذا النوع، النموذج اللساني. إن أنماط الإنتاج المدروسة هنا ليست هي ذاتها لا لسانية ولا غير لسانية، فالعناصر السيميائية المستعملة هي التي تحدد الطواهر السميوزية المستعملة في مختلف أساق العلامات، وهي القادرة على كشف السيرة اللسانية والسيرورات غير اللسانية.

الفصل الخامس

القضايا الفلسفية للعلامة

1.5. الإنسان حيوان رمزي

إن الإنسان حيوان رمزي. لقد قبل ذلك مرارا وتكرارا، وهي
صيفه لا تخص لغته محسب، بل تشمل ثقافته كلها، فالمواقع
والمؤسسات والعلاقات الاجتماعية، والملابس هي أشكال رمزية
(كاسبرير 1923، لانجر، 1953) أودعها الإنسان تحريره لتصبح قابلة
للإبلاغ. فوجود الإنسانية مرتبط بوجود المجتمع، ولكننا يمكن أن
نضيف أيضا أن وجود المجتمع رهين بوجود ثقافة للعلامات. فبفضل
العلامات استطاع الإنسان أن يتخلص من الإدراك الخام، ومن التجربة
الخالصة، كما استطاع أن يعمل من ريفه «الهنا» و«الآن»، فبدون
تجريد لا يمكن الحديث عن مفهوم، ولا وجود، تبعا لذلك،
لعلامات. ولقد دار نقاش واسع حول ما إذا كان هناك (في أذهاننا أو
في عالم علوي أو في الأشياء) شيء يمكن أن يكون معادلا لمفهوم أو
فكرة فرس. وما هو مؤكد أن هناك علامة قد لا نستطيع أن نحل محل
كل الأفراس، ولكننا نقوم، مع ذلك، مقام شيء يمكن أن نطلق عليه
فرس. إن كل النقاشات الفلسفية حول الأفكار مردها أننا ننتج
علامات، إننا نقوم ببلورتها قبل أن نحولها إلى أصوات، أو إلى

كلمات. وحسب المحللين النفسانيين، فإن الطفل المنهمك في لعبته الرمزية الأولى حيث يقوم بإخفاء ثم إظهار موضوع ما (fort - da) fort + da وفق مثال يقدمه فرويد) يكون في واقع الأمر يؤسس لدرجة سيوية لدلالات مبنية على التقابل: حضور/ غياب.

لقد قبل إن الثقافة ولدت عندما استطاع الإنسان أن يلور أدوات من أجل السيطرة على الطبيعة. وكانت هناك فرضية أخرى تقول إن وضع الأداة رهين في وجوده بوجود نشاط رمزي (إيكو 1968). ولقد عُثر في إفريقيا على بقايا كائنات شبيهة بالإنسان وبجانبها هياكل عظمية لكلاب مهشمة الجمجمة، وبمقربة منهم أحجار. وهذا يدل على أن تلك الكائنات كانت قد تعلمت كيف تُحول العنصر الطبيعي، الذي هو الحجر، إلى أداة تستعمل كسلاح. لقد اخترعوا الأداة. ومع ذلك لكي تكون هناك أداة (وتبعا لذلك ثقافة) لا بد من توفر الشروط التالية:

1- وجود كائن يفكر، وبمصح وظيفة جديدة للحجر (وليس من الضروري أن يكون هذا العمل متقا للحصول على شكل بعينه، لوزي الشكل مثلا).

2- يقوم هذا الكائن بتسمية هذه الأداة في أفق التعرف عليها باعتبارها حجرا موجهها إلى الاستعمال الفلاني (وليس من الضروري أن يعمل ذلك بصوت مرتفع، ويستعملها أمثاله).

3- يتعرف على هذا الحجر لاحقا باعتبارها موجهها إلى الاستعمال «م» ويسمى «ج»، وليس من الضروري أن يستعمله مرة ثانية، يكفي أن تكون له القدرة على التعرف عليه لاحقا. وليس من الضروري أيضا أن يشارك في التسمية آخرون، فيكفي أن تدرك الأداة التي استعملت اليوم من طرف «ك» في اليوم الموالي باعتبارها العلامة المرئية لوظيفة محتملة. وبهذه الطريقة يقوم «ك» بإرساء

قواعد موجهة إلى «ك» 2 تمل عنه على وظيفة المحرر.

ففي اللحظة التي تتخذ فيها صورة السلوك السيميائي شكلا يسادله الأشخاص وقابلا للملاحظة نكون أمام لغة. ولقد تصور البعض أن هذه اللغة يجب أن تكون في المقام الأول لفظية، والطابع اللفظي هو شكل الفكر، ومن المستحيل أن تفكر دون كلام. ولهذا السبب فإن السيميولوجيا ستكون جزءا من اللسانيات (انظر بارث 1964). فعلم اللغة اللفظية هو العلم الوحيد القادر على شرح بنيتا الدهية، والقادر أيضا على شرح بنية لاوعينا.

إن السلسلة الدالة عند لاكان (1966) هي المكون لـ «الأنا». فاللغة سابقة عليا وهي ما يحددنا. وبالفعل فداخل هذه اللغة هناك اختلاف بين ذات التلفظ وذات الملموظ. وهو اختلاف يفسر السيورة التي من خلالها تنتشبا اللغة من «طبيعة» نجهل عنها كل شيء، لكي تقذف بنا داخل ثقافة نحصل داخلها على أبعاد موضوعية. والطفل الذي يقرر أن يتعرف على نفسه باعتباره دانا سيكون هو ذات التلفظ. إنه يريد أن يعين نفسه بصفته «أنا»، ولكنه بمجرد ما يدخل مدار اللغة، فإن هذه «الأنا»، التي يقوم ببنائها، تتحول إلى ذات للملموظ وذات للجملة والمركب اللساني الذي من خلاله يكشف هذا الطفل عن مكنون نفسه. إن هذه «الأنا» هي متوج ثقافي (يقول بيرس إنها النوع الذي تبلوره الثقافة لكل «الأصوات» الممكنة). فعندما تتماهى «أنا» لتتلف مع «أنا» الملموظ، فإنها تفقد بعدها الدائم، إن اللغة تسجنها داخل غريبة، وعليها أن تتماهى معها لكي تبني ذاتها، ولكيها لن تستطيع بعد ذلك أبدا التخلص منها.

ولبعد من حديد إلى أصول الثقافة. لتحليل إنسانا بدائيا لا تشير الداتية عنه أي مشكل. ففي اللحظة التي يتجه فيها إلى العالم المحيط

به لكي يميز داخله القوى السحرية التي يرغب في السيطرة عليها وتوجيهها، فإن أول ما سيعوم به هو التحكم في العلامات. يعنى الأمر بالسحر من خلال المحاكاة، إنه بعيد إنتاج حركات الحيوان، أو يرسم صورته على جدار المغارة، لكي يراقب الطريقة التي يريد قتلها، وذلك من خلال العلامة المزدوجة للبهيمة والرمح.

إنه يقوم بذلك أيضا بواسطة السحر من خلال الاحتكاك، به يستحوذ على شيء يعود إلى الكائن الذي يريد السيطرة عليه، (قلادة العدو أو شعر الحيوان) لكي يؤثر عليه. فمن خلال الشيء، يستطيع السيطرة على هذا الكائن، أي على مالك هذا الشيء. وفي الحالات معاً، فإن العمل ينصب على علامات بديلة. ففي الحالة الأولى، تكون الصورة استعارة، بما أنها محاكاة للشيء، وفي الحالة الثانية، فإن الشيء الذي ينتمي إلى الكائن الغائب يعد كتابة (الجزء من أجل الكل، والسبب للنتيجة، والحاوي للمحتوى).

إننا نتحكم في الأشياء عبر العلامات، أو بواسطة أشياء نحولها إلى علامات على الأشياء. وفي النهاية نكتشف، وهو الأساس الذي قامت عليه الفلسفة السفسطائية الإغريقية، السلطة السحرية للكلام الإقناعي. واستناداً إلى هذا الكلام يمكن أن نخلق الإيود^(١)، تلك الخدعة اللذيذة التي تقود إلى ترويض الأنهان.

ففي الوقت الذي كان فيه نحويو الهند الكلاسيكية يصوغون تصوراتهم حول التركيب، كان السفسطائيون يكتشفون اتساقاً ودية ويحددون قواعدها النظرية: كيف ننظم العلامات بحيث تقود الآخر إلى التصرف وفق مشيئتنا. إن قواعد هذا التنظيم ستدمج داخل علم يطلو عليه البلاغة. وبهذه الطريقة ولدت نظرية للسهولة قائمة على المحتمل لا على المقدمات المستندة إلى قيم مطلقة ما يسمى في

منطق القياس المضمر. وبالإمكان البرهنة على اللائقين، وذلك لأن عالم العلامات هو عالم اللاتحديد وعالم التعددية. وبشكل البعد الفاسوبي والتداولي والبرهاني، الأشكال الثلاثة للمصاحبة التي أقام دعائهم أرسطو في «بلاغته». وبفضل هذه الأشكال استطاع الإنسان استخدام العلامات للتحكم في سلوك الكائنات البشرية الأخرى، وبهذه الطريقة أمكن إرساء دعائم سياسة بأكملها. وهذا هو المراد بالفعل من هذه الأشكال: تمييز العادل من غير العادل، ما يمكن اتقيمه به وما يستحيل فعله، وتمييز المحمود من المذموم. (بيرلمان 1958).

2.5. ميتافيزيقا سيميائية كلية.

1.2.5. الطبيعة بصفاتها لغة إلهية.

1- ألا يمكن أن يكون الكون كله وكذا الأشياء التي تؤثته مجرد علامات تحيل بشكل اعتباطي على مزايا خارجية هي ما يشكل عالم الأفكار؟ (إن نظرية أفلاطون هي كلبتها ليست سوى نظرية للعلامة ومرجعها الميتافيزيقي)، وما هي طبيعة العلاقة القائمة بين المرجع والمتعلي، وبين الشيء الذي يعيد إنتاجه من جهة، وبين المفهوم الذي يحيل عليه الشيء، وبين الكلمة التي تمنحنا مفتاح هذا التوسط من جهة ثانية؟ ألا يكون التوسط السيميائي ذاته إنتاجا لا يتوقف عند حد؟ تلك هي التساؤلات التي بلورها أرسطو من خلال صياغته للفرصة الدائمة للإنسان الثالث. ألا يكون هذا العالم نتاج قدر إلهي قام بتنظيم أشياء الطبيعة لكي يجعل منها أدوات للتواصل مع الإنسان؟ ألا تكون الموضوعات علامات ناقصة، مستخرجة من نماذج تامة (وهذه لمادح محرره من أي تجسيد مادي)؟ تلك هي الفرصة التي جاءت

بها الأفلاطونية الجديدة التي قامت على أساسها الميثافيزيقات القروسطية الأولى. لنستحضر في هذا المجال ما قال به ديوسيكوروس الحكيم المزيف، وما قاله سكوت أوجين الذي تأثر به. فالكون عند هؤلاء هو تحل إلهي: قاله يكشف عن نفسه من خلال العلامات التي هي أشياء، ومن خلال هذه الأشياء يأتي خلاص الإنسان. إن الرمزية القروسطية في كليتها مشتقة من هذه الفرضية:

كل كائنات هذا الكون هي كتب أو صور
تشكل بالنسبة إلينا مرآيا في حياتنا ومماننا
في وجداننا وقلوبنا

بهذا كان ينقش آلان دو لبل في القرن الثاني عشر. ولقد أكد توماس الأكويني، وهو يصوغ قواعد التأويل الخاصة بالكتابة المقدسة، أن علامات هذه الكتابة لا يمكن قراءتها مجازية، فهي وحيدة المعنى. فعندما يقول المؤلف المقدس بأن المعجزة العلانية قد حدثت، فإن هذا معناه أن هذه المعجزة قد حدثت فعلا. فاللغة المجازية المراد تأويلها، وكذا العلامات الفعلية التي تستند إليها الكتابة من أجل تأسيس كتابة استدلالية، هي أحداث داخل التاريخ المقدس، إنها كلمات نسمي إلى لغة كومية قام الله بتنظيمها لكي نتمكن عبرها من قراءة مصائرنا وأقدارنا.

عبر ١٠ ر
و دور ١٠ نهي

II - ومع ذلك لسنا في حاجة إلى مطلق إلهي، من أجل إقامة ميثافيزيقا سيميائية شاملة. يكفي أن يكون هناك إحساس بوجود وحدة تحكم الكل، إحساس يرى في الكون جسما يدل على نفسه نفسه. إن أقصى تحول لهذه السيميائيات الشاملة نجده في نظرية بازوليسي حول العلاقة بين اللغة السينمائية ولغة الواقع. (بازوليسي 1972، 171-297) إن الفكرة القائلة بأن لغة الفيلم هي استنساخ كلي للغة الواقع

شكل الصبغة القصوى لنظرية الأيقونية، وهذا ما سناقشه فيما بعد (5).
 4. 4. إلا أن القول بأن الواقع في جوهره الفيزيقي هو دلالة، فتلك
 مسألة أخرى. فأي موضوع تربطنا به علاقة ما يعد، في تصور بازوليني،
 علامة لدته. لقد استبدلت الصيغة القائلة بأن «الأسماء هي الأشياء»
 بصيغة تقول إن «الأشياء هي الأسماء». إن الأشياء تشكل «كتاب
 العالم، إنها نثر الطبيعة ونثر العمل وشعر الحياة... إن شجرة السديان
 هاته ليست «مدلولاً» لعلامة - مكتوبة أو منطوقة «السديان»، لا ليس
 الأمر كذلك، إن شجرة السديان المائلة أمامي، هي ذاتها علامة. إن
 الموقع يتحاور مع نفسه في حدود أن الإدراك يشكل جواباً على الدلالة،
 جواب يجعل من الواقع يتوجه إلى نفسه على شكل ذات مدركة⁽²⁾.

وبالإمكان أن نقارن، من زاوية ما، بين هذه المقترحات الهامة
 التي يقدمها لنا بازوليني وبين فينومينولوجيا الإدراك منظورا إليها كدلالة
 (نظر 5. 3. 2 III). ويمكن من زاوية أخرى مقارنتها بنظرية بيرس
 للموضوعات/علامات) انظر 5.5). إلا أن هذه المقترحات، التي
 صيغت بكثير من الأفعال، تكتسب معنى حمالياً متناهيافياً تضعها في
 مصاف صورية لدلالة كلية.

III - ولقد قدمت السكولائية المتأخرة، كما فعل ذلك التيار
 الإسماني، تصورا جديداً للكلمات، فقد نظرت إليها باعتبارها هواء
 صوتيا (flatus vocis)، أي أسماء. وفي الفترة التي ساد فيها العلم
 التجريبي تم التشكيك، من نفس الموقع، في مقولة الأشياء. مما هو
 مقاس الحملة التالية: «التفاحة حمراء»، إذا استعملنا مقولة الجوهر،
 أي الدوات التي تشتمل على المحمولات التي هي الحوادث، (ما دام
 لا وجود لتفاحة في ذاتها ولا أحمر في ذاته)؟ لقد تم التشكيك في
 الأشياء، وليس في العلامات كما يقول لوك، فالأفكار ليست شيئا آخر

سوى علامات مختزلة نستعملها من أجل بلورة وتنظيم بعض فرضياتنا حول الأشياء التي سائلها.

إلا أن تيار الفكر اللساني هذا كانت تحترقه ظاهرتان: لقد نظر العالم السحري والأفلاطوني الجديد الخاص بالتيار الإنساني إلى الكون باعتباره غابة من الرموز، بحيث أصبح تأويل هذه العلامات هو السحر الجديد، وهو الخيميائية التي مورست في ظل نهضة آداب الإنسانية. ومع بيركلي عاد التساؤل من جديد حول الكون باعتباره سقا رمزيا، أي عمليات إدراكية تتمتع بوظيفة سيميائية حالية، ويكون كلمات تنتمي إلى لغة يحدثنا من خلالها الله عن العالم. ألا يمكن أن نعيد، في هذه الحالة، قراءة الحكمة الكبيرة للمثالية الحديثة باعتبارها نظرية للإنتاجية السيميائية الخاصة بالدهر؟ إن هذه الأنساق الكبيرة تحكي لنا كيف بنت الإنسانية نفسها باعتبارها معمارا رمزيا هائلا. فليس الله هو الذي يتحدث مع الإنسان من خلال العلامات، فالله يبنى داخل التاريخ باعتباره روحا ينفخ في كتابة صورية رمزية/ ثقافية هائلة. إن كلمات كروتشه هي كتابه «الشعر» تبرر تشككنا هذا: «إن محاولات شرح تعاليم الكائنات البشرية من خلال اللغة استادا إلى المحاكاة والتناحيات والتواضعات والاستنتاجات غير كافية وعدجة ... إن مذهب «النواصل التعبيري» الذي يتم بواسطة عملية إلهية، يحتوي في داخله على الحقيقة، حتى وإن تم ذلك من خلال شكر أسطوري. إن الكائنات البشرية تفاهم فيما بينها لأنها جميعها تمسح وتنشئ في ذات الله» (ص 270).

2.2.5. اللغة باعتبارها صوتا للكينونة

إلى هذا الحد لا يمكننا أن نتفحص عن ذلك الإلهام الفلسفي

الذي ينظر إلى اللغات باعتبارها استعارة كبيرة لاشعورية، مرتبطة،
طبيعتها، بجوهر الأشياء. وعلينا أن نتوخى الحذر في هذا المجال،
فإذا نحن سرنا في هذا الاتجاه، فإننا سنضطر إلى تأكيد أن اللغة
لا شعرية (وبالتالي الشعرية) هي وحدها أداة المعرفة الأصلية
والتواصل الحقيقي.

ولقد شكلت المرحلة الممتدة من الرومانسيين إلى هايدغر أبهى مراحل علم الجمال القائم على نظرية لغوية متمازجة مع الثيمة الشعرية التي طورها العديد من الفلاسفة: فقد أعلنوا، وهم ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم متبشرين ومكتشفين، أنهم يتحكمون في الرموز المبتقة بشكل عفوي في مخيلتهم، وكشفوا عن تواصلهم العميق مع عالم الأشياء. فمنذ «طبيعة» بودلير، تلك الغاية من الرموز (وحتى وإن كانت هذه «الطبيعة» غابة علمانية، فإنها مع ذلك ليست بعيدة عن «طبيعة» ألان دو ليل)⁽³⁾ إلى الفكر الهايدغري، كان الهدف واحداً: ليس الإنسان هو من يصوغ اللغة من أجل السيطرة على الأشياء، بل الأشياء (الطبيعة أو الكائن) هي التي تتبدى من خلال اللغة: إن اللغة هي صوت الكيونة، والحقيقة ليست شيئاً آخر سوى الكشف عن الكيونة من خلال اللغة. وإذا كانت وجهة النظر هذه صحيحة، فلا مكان للسيمياءات أو نظرية لعلامات. فلن يبقى لنا بعد ذلك سوى ممارسة دائمة شغوفة باستبذالات حول العلامات: التأويلية (herméneutique) هي التأويلية، لا نبني أبداً نظريات للمواضيعات السيميائية، إننا نستمع، معشوق ورفاء، للصوت الذي يتحدث عن إله حيث لا وجود لأي مواضعة، فالمواضعة سابقة على الإنسان.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن التأويلية الحديثة (غادامير) توحى لنا

بأن وراء الصوت الذي يتحدث إلينا تخفي ثقافة موجودة بشكل سابق، هي التي أسست فواتين التأويل وعلمتنا كيف نستمع إلى خزان التقيد الثقافي باعتباره صوتا.

3.2.5. آثار الكتابة

لقد أظهرت تصنيفاتنا للعلامة وجود طقوس ثقافية استبدالية. ومن أبرزها الكتابة. وسواء كانت فونوغرافية أم لا، فإنها تعبر عن قوانين اللغة اللفظية على أساس وجود قوانين خاصة متميزة عن القواعد الأولى. وبدون ذلك، فإننا لن ندرك لماذا يدل المطلق الإنجليزي /har/، ضمن علاقة من طبيعة جناسية، في الوقت نفسه على الأرب والشعر. إلا أن الكتابة الأبجدية قد توحى بوجود كباين: الأول يكتب hare والثاني har.

- لم يكن هذا التمييز واضحاً عند القدماء، فقد وقفوا عاجزين، من الناحية الفلسفية، ومشبهين أمام سلطة الكتابة، (لنتذكر خطاب الفرعون أمام الإله تحوت، كما يورد ذلك أفلاطون في فيدر. لقد تهم المخترع العبقري للكتابة بأنه شل حركية الفكر داخل كلمات مستعمل على تجميده إلى الأبد). وليس صدفة أن تكون التسمية grammaire مصدرية من اسم الكتابة gramma. إن الأمر يتعلق بتصنيف للعلامات الشفهية يسند إلى القوانين المتحركة هي العلامات المكتوبة وحدها. وهو تصنيف سيظل سائدا طوال تاريخ اللسانيات وتاريخ الفلسفة. بل يمكن القول إن الأمر يتعلق بإعلاء من شأن اللغة الشفهية لم يظهر إلا مع اللسانيات الحديثة. وأبرز مثال على الخلط الذي وقع بين gramma و phone هو ما يقدمه إيزوبندور دو سيفي الذي حاول في القرن السابع أن يقدم تمييزاً قائماً على الاشتقاق. ولم يؤسس هذا الاشتقاق لا على

سنة

٢٨
٢٩
٣٠
٣١
٣٢
٣٣
٣٤
٣٥
٣٦
٣٧
٣٨
٣٩
٤٠
٤١
٤٢
٤٣
٤٤
٤٥
٤٦
٤٧
٤٨
٤٩
٥٠
٥١
٥٢
٥٣
٥٤
٥٥
٥٦
٥٧
٥٨
٥٩
٦٠
٦١
٦٢
٦٣
٦٤
٦٥
٦٦
٦٧
٦٨
٦٩
٧٠
٧١
٧٢
٧٣
٧٤
٧٥
٧٦
٧٧
٧٨
٧٩
٨٠
٨١
٨٢
٨٣
٨٤
٨٥
٨٦
٨٧
٨٨
٨٩
٩٠
٩١
٩٢
٩٣
٩٤
٩٥
٩٦
٩٧
٩٨
٩٩
١٠٠

الوفائع التاريخية ولا على الميكانيزمات الصوتية، بل قام على معادلات دلالية فضفاضة. وهكذا فإن *lacus* التي تعني غابة يمكن أن تشكل معادلا لـ *non lucendo* لأن النور لا يتسرب إليها).

والحال أن هذه التناظرات الدلالية عادة ما تستند إلى تشابهات أبجدية محض: ف *cadaver* منحذرة من *caro data vermibus*، أي اللحم الذي ستأكله الديدان. لقد كان التعرف على الوحدات الدلالية يستند إلى تطابق في الكتابة، حتى وإن انعدم التطابق الصوتي. وهكذا فإن *lapis, pierre* التي تعني الحجر، منحذرة من *Lacedens Pedem*؛ ولكن إذا كانت *la* تطلق «لا» في *lapis*، فإن الأمر ليس كذلك في *Laeden*، حيث كان لـ «da» استنادا إلى المواضع السائدة أيام إيزودور، قيمة *le*⁽⁴⁾.

ولقد جنحت اللسانيات، وهي تميز بين *pothone* و *gramma*، إلى نسيان أن الطريقة التي تكتب بها اللغة تؤثر في الصورة التي نملكها من هذه اللغة، رغم أن الكتابة الصوتية ليست هي المطلق. وهذا ما سنراه عند حديثنا عن الأيقونة (انظر 3 - 4). ويمكن القول إن تفكيرنا يتم وفق تنظيم فضائي، ونحن ندرج التفكير ضمن هذا النظام الفضائي. وقد لاحظ ماكلوهن (1962 - 1964) أن الحضارة المعاصرة برمتها يهيمن عليها النموذج الخطي للكتابة الجغرافية. وإذا كان عالما المعاصر يشهد اليوم بزوغ حساسة جديدة، فلأن هناك علامات جديدة (إلكترونية وبصرية) لا تتبع النمط الخطي، بل هي سط فضائي شامل. ولقد التقيت بأستاذ جامعي، كان، وهو يناقش قضية سحطة والتتابع الرسمي للفكر، يقوم بتمثيل ذلك بتحريك أصبعه من اليمين إلى اليسار. لقد كان يهوديا وكان يفكر بالعبرية ويتصور السانع المجرد للأفكار وفق الطريقة التي يمتلك بها العلامات المكتوبة

ويقرأها، أي من اليمين إلى اليسار. وهو تقيص ما يحدث في اللاتينية والإغريقية حيث تتم القراءة من اليسار إلى اليمين. وعلى التوايتمنا لهذه الملاحظة، وتساءلنا كيف كان يتصور القلامي قضية التتابع، لرمي للمكر، هم الذين تعودوا على الكتابة بـ«الوسترفيلدون»⁽⁵⁾ حيث يقرأ السطر الأول من اليسار إلى اليمين، ويقرأ السطر الموالي من اليمين إلى اليسار.

والى يومنا هذا مازالت الغراماتولوجيا، علم الكتابة، تنسأل ألا تكون هذه الحيرة الميتافيزيقية المغلفة التي أنهكت الإنسان طويلا هي ذاتها مبنية وفق النموذج الخطي grammar.

3.5. العلاقة بين العلامة والفكر والواقع.

لقد انصب اهتمام المكر الفلسفي دائما على القضايا الخاصة بالروابط القائمة بين العلامات والواقع. ويمكن أن نجعل هذه القضايا في خمس أطروحات مترتب عنها تخصيص خمس فقرات من هذا الفصل حيث سنحلل كل أطروحة وبواجهها بعد ذلك بالأطروحة القيص. وسنعمل، عندما تتاح لنا الفرصة، على معالجة هذه الأطروحات استناد إلى الفرضية البديل التي يمكن للسيميائيات تقديمها حاليا. وإليك هذه الأطروحات:

أ- هناك رابط بين شكل العلامات المركبة (أو الملفوظات) وبين المكر. وبعبارة أخرى هناك علاقة بين النظام المسطقي والنظام السيميائي.

ب- هناك رابط بين العلامات البسيطة وبين الأشياء التي تحيل عليها بواسطة المفاهيم. بل أكثر من ذلك، هناك رابط سيميائي بين العلامة والمفهوم الذي يعتبر هو ذاته علامة على وجود الشيء.

ح- هناك ترابط بين شكل العلامات المركبة (الملفوظات) وبين شكل الأحداث التي تقوم بوصفها هذه العلامات. بل أكثر من ذلك، هناك رابط بين النظام السيميائي وبين النظام الأنطولوجي.

د- هناك رابط بين شكل العلامة البسيطة وبين شكل الشيء الذي تحيل عليه هذه العلامة. ذلك أن الموضوع هو، بشكل من الأشكال، السبب في وجود العلامة.

هـ- هناك رابط وظيفي بين العلامة وبين الموضوع الذي تحيل عليه فعليا، وبدون هذا الرابط، لن يكون للعلامة أية قيمة تقريرية، ولن تكون أبدا محل إثبات له معنى.

وبما أن اهتمامنا ينحصر في التعامل مع سيميائيات العلامة دون أن يتجاوزها إلى النظر في سيميائيات الخطاب، فلما لن نناقش العرضية (أ) والفرضية (ج)، وسنركز فقط على العرضيات الأخرى. وعلى الرغم من ذلك، فإن هذه الفرضيات مجتمعة هي وثيقة الصلة بعضها ببعض، فكل فرضية، تشير بطريقتها الخاصة، قضية المرجع. إن دراسة هذه لعرضيات ستمكننا من فهم السبب والقيمة التي أقيمت بموجبها مقولة المرجع في تعريف للعلامة.

1.3.5. قوانين العلامة وقوانين الفكر.

I - من القضايا الأولى التي أثارها القدماء تلك التي تتعلق بمعرفة ما إذا كان نظام العلامات يعيد إنتاج نظام الفكر (وبطبيعة الحال: هل يعيد الفكر إنتاج نظام الأشياء).

قد يمررنا الأمر ونحلق نوعا من التطايق بين النظامين دون أن نكون ذلك مسوقا بطرح قضية الرابط بينهما ذاته. ولقد قدم لنا أرسطو مثالا سمودحيا عن الخلط بين الدال والمدلول. فلا فرق عنه بين السحر

والدلالة. وهكذا، فإنه يستند، من أجل وصف الوحدات النحوية، إلى منهجية صحيحة، ليقرر التمييز بين المذكر والمؤنث استنادا إلى الحرف الأخير في الكلمة.

ومع ذلك، إذا كان هذا المبدأ يبدو صحيحا، فإن تطبيقه العملي يطرح عدة مشاكل. فاللغة اليونانية تحتوي على أواخر للكلمات تعد وجهة النظر هاته (انظر Dineen 1967: 120ss). ونفس الشيء يعثر عليه في اللغة الإيطالية، إذ لا يمكن القول إن كل المصادر المذكورة تنهي ب (o) والمؤنثة تنهي ب (a)، فهذا المبدأ سيسقط أمام وجود حالات مثل (il problema le probleme). ويخلط أرسطو أيضا بين النحو والمنطق، لأنه يقيم مقولاته المنطقية استنادا إلى النموذج النحوي. صحيح أن المنطق الأرسطي نُظر إليه عامة باعتباره منطقا للجواهر التي تعيد إنتاج أشكال الواقع داخل أشكال المكر أي أشكال الخطاب. إلا أن أشكال الواقع يجب أن تكون كونية، في حين أن الأشكال اللسانية كانت عند أرسطو مشتقة من اللغة اليونانية. ويكفي أن نستحضر نموذجا لسانيا آخر لكي ندرك أن البنية: «فاعل - فعل - مفعول» ليست كونية، وهو ما يدفع إلى الاعتراض على فلسفة الجواهر في كليتها.

ولقد وجد هذا المشكل تعبيرا الحاص عند المحوئين الهيلبيين، وذلك من خلال الثقابل بين مقولة «الشذوذ» (anomalie) (مدرسة بيرغامس) وبين مقولة «المقابلة» analogie (مدرسة الاسكدرية). ولقد طرح المشكل في الظاهر من خلال حدود تقنية ولسانية. هل نحضع اللغة لنسق عقلاني وكوني ثابت، أم لا؟ والواقع أن الأمر كان يتعلق بقضية أنطولوجية، نفترض وجود رابط انعكاسي بين اللغة والفكر، وبين الفكر والواقع: هل في الكون قوانين ثابتة؟ فكهما كان الجواب، فإن الفرضية القياسية، هي التي كانت أكثر خصوبة على مستوى

استحقاقات التقية، ومكنت مجموعة كبيرة من النحاة من بناء نظريات عقلية نعمة. فكتب مثل (مقالة في النحو لدينيس دي ترامس du traité de grammaire Denys de Thrace 100 سنة قبل المسيح) حتى بيير ديو دايلي (القرن الثاني عشر) مروراً بالتطبيقات اللاتينية لفيرون (القرن الأول قبل الميلاد) ودونات (القرن الرابع) وبريسان (القرن السادس) ساهمت في بناء نماذج نحوية مازالت متناولة لحد الآن في الأوساط المدرسية. (خاصة فيما يتعلق بالتحديد التقليدي لـ «أجراء الخطاب» اسم، فعل، ظرف، نعت، روابط، الضمير، الحرف...).

ولقد عمق أصحاب نظرية الجهة (les modistes) في القرنين الثالث عشر والرابع عشر النظر في «النحو التأملية»، فتكاثرت الأبحاث حول «أنماط الدلالة». ومن أهداف هذا النموذج الإجرائي، الذي مازال حياً لحد الآن، تسليط الضوء على الآليات اللسانية المقبولة كوني. ومع ذلك، فإن الإعلان عن قوانين الفكر انطلق باستمرار من لسان خاص يُنظر إليه بشكل مفرج على أنه لسان العقل ذاته. ولقد كانت للغة اليونانية عند القدماء تجسيدا لذلك اللسان، وكانت اللاتينية هي ذلك اللسان عند أصحاب نظرية الجهة، (وهذا الوضع هو الذي يفسر رغبة بعض المربين فرض اللغة اللاتينية في التعليم لأنها تعد، في نظرهم، الأداة الوحيدة التي تعلم الشئ التفكير السليم).

إن أنماط الدلالة عند أصحاب نظرية الجهة تتطابق مع أنماط استعكبر وأنماط الواقع (ليونز 1968، ديان 1967، بيرسبل هال 1972). واستناداً إلى هذه القناعة، أعلن روجر باكون أن النحو عموماً هو واحد في جميع اللغات، حتى وإن لحق هذه اللغات تغير ما. وفي القرن السابع عشر تبى مناطقاً ولسانيو يور روابال في (النحو العام والتفكير) Grammaire générale et raisonnée و(المطلق أو فن

التفكير) *Logique ou art de penser* هذه النظرية من منظور عقلاسي ديكرتي، والأمر يتعلق بكتابين، مارسا تأثيرا قويا بواسطة تشومسكي، على التحولات الأخيرة التي عرفت لها اللسانيات: النحو التحويلي. إن هذه النظرية الموصوفة بأنها «لسانيات ديكرتية»، مدينة بالشيء الكثير للكوبيات السكولائية (انظر 1969 Simons).

وتقول أطروحة «أساتذة بور رويال» إن اللغة تتسع قوانين الفكر، وهذه القوانين عامة عند مجموع الكائنات الشرية، وبطبيعة الحال، فإن الاستعمال اليومي لهذه اللغة قد يقود إلى عدم الانصياع الكلي لهذه البنية المنطقية العميقة التي تولد الجمل القابلة للتحقق من خلال لغة خاصة. إن الهدف من وجود «نحو عام» يكمن في الإمساك، استناد إلى البنيات السطحية للجمل، بالتمفصل المنطقي الذي يحكمها. ولأخذ العبارة التالية: «إن الله الذي لا يرى قد خلق العالم المرئي»، فأمام هذه الجملة يقوم السحوي بإعادة بناء البنية المنطقية العميقة التي تتممصل في ثلاث لحظات: أ- إن الله غير مرئي، ب- إن الله خلق العالم، ج- إن العالم مرئي. وواضح أن الجملة الثانية هي التي تتحكم في البيتين الآخرين. إنها تشكل بؤرة الإثبات.

إلا أن منطق «بور رويال» كان منطقا للمصدر، فالبنية العميقة للمعطيات تشكل عند هؤلاء البنية العميقة للواقع. أما في عصرنا، فإن تشومسكي، ومدرسته، عندما يستعير من بور رويال بعض المقولات من أجل بلورة البنية العميقة والبنية السطحية (البنية الأولى تولد الثانية من خلال سلسلة من التحولات التركيبية، بل إن الأولى لا يمكن أن توجد إلا من خلال سلسلة من التحولات التركيبية)، فإن الأمر محدد قضية منهجية غريبة على الاعتقاد في شرعية جوهرية للعالم. ذلك أن تشومسكي يحيل أيضا على ديمارسي وأطروحات عصر الأنوار. ومن

المعروف أن النحو العام عند «الموسوعة» هو بالتأكيد العلم المعقلن للمبادئ الثابتة والعامه للكلام الذي يتلفظ به ويكتب في كل اللغات. إلا أن هذه المبدأ يعبر عنه من خلال المتغيرات الخاصة بكل نحو على حدة. إن الواقع التجريبي الوحيد هو ما تقدمه الاستعمالات اللسانية. و بطلافا من هذه الاستعمالات فقط يمكن الوصول إلى المبادئ العامة التي تحكمها. استنادا إلى هذا، فإن «النحو» في منظور الأنوار (لكي لا نتحدث عن المنطق والنحو التحويلي الساتلين حاليا)، يمكن اختصاره في جملة منهجية يمكننا أن نحدد، وإن بشكل حتمي، العناصر المشتركة بين اللغات المخصوصة استنادا إلى مجموعة من العلاقات الخاصة بهذه اللغات» (روزيلو 1967، 187).

ورغم أن الأمر يتعلق بقضية منهجية صرف، فإن ذلك لا يعني أن يكون الإطار النظري الذي يدرج ضمنه النحو التحويلي من طبيعة عقلانية-ميتافيزيقية: «قد تكون الإجراءات اللسانية والذهنية واحدة في كل اللغات ... فالبنية العميقة التي تعبر عن المعنى هي عنصر مشترك كما يتم تأكيد ذلك، في جميع اللغات، فهي ليست سوى انعكاس لأشكال التفكير. وقد تكون القواعد التحويلية التي تقوم بتحويل البنية العميقة إلى بنية سطحية محتلمة من لغة إلى أخرى» (تشومسكي، 1966، الترجمة الفرنسية ص 64).

II - يمكن تصنيف كل الكتاب الذين أحلنا عليهم ضمن «لغبيين». إلا أن التباين بين الشذوذ والمقايضة سيظهر من جديد على امتداد تاريخ اللسانيات والفلسفة عند تناولهما للقضايا التاريخية لصرف. إن اكتشاف المشكوكية في نهاية القرن السابع عشر ودراسة مقارنة بين اللغات الهند أوروبية فيما بعد أثارا الانتباه إلى اللغات الخاصة. حيث أثرت القضية الخاصة بمعرفة ما إذا كانت التغيرات

الفونولوجية مثلاً تخضع لقوانين صارمة ودائمة (كما كانت تری ديك الأطروحة القياسية للنحاة الجدد)، أم هي في مأى عنها (كما كان يرى ذلك غيلمان في القرن التاسع عشر). ولقد نسملت هذه العصبية شيئاً فشيئاً إلى الجدول الدائر داخل اللسانيات المقارنة، ودفعت بها إلى ضرورة اعتبار اللغات من خلال نياتها التزامية أو في مأىها التعاملي

إن القضية تكمن هنا في معرفة ما إذا كانت القوة اللسانية، التي ليست فقط من طبيعة سيميائية، تؤثر في البنات السيميائية. وقد طرأ مشكل الترابط بين قوانين اللغة وقوانين الفكر قائما بشكل صمي، وكذلك الأمر مع قضية القيمة الكونية لهذه القوانين. فإذا قبلنا بمبدأ الكونية هذا، فإن القوى التاريخية ذاتها ستبدو عناصر لمتغير سطحي يؤثر في البنات العميقة للسان ما.

ولقد كان موقف الماركسية في هذا المجال غريباً حقاً. فقد كنت أتوقع أن يشدّد على اللحظة التعااقبية لإعادة البناء الذي لا يتوقف، ويركز على الرابط التاريخي المحض الذي يربط بين لسان ما وبين الشروط الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الذي يتطور داخله هذا اللسان، أي كما نتوقع من الماركسية أن تقوم بتحديد اللسان باعتباره وظيفة للإيديولوجية التي تعبر عنه. إلا أن هذه النظرية استطاعت أن تسج، من خلال الدراسة الموجزة التي قام بها متالين، حول «الماركسية وقضايا اللسانيات»، نظرية أقرب إلى اللسانيات الديكارتية منها إلى تلك التي ستحدث عنها فيما سيأتي.

إن ستالين يدحض في حربه أطروحة اللساني الروسي مار
Marr الذي رأى في اللسان بنية فوقية، واعتباره كذلك، فإن ما
يحدده هو الفاعلة المادية. لقد اعترض ستالين عليه قائلاً بأن بعض
الجهاز من القواعد هو الذي سمح لبوشكين بأن يعبر عن عالم روسيا

١٠
 ١١
 ١٢
 ١٣
 ١٤

۱۰۰
 به تاسیسی
 ۱۰۰
 (۱۰۰)

جاء في نسخة أخرى: **وَأَمَّا الْفُلُ**

الفيصلية وسمح لروسيا الثورية أن تعبر عن علاقات مادية أصبحت
ممكنة مع ظهور المجتمع الحديد. إنها أطروحة متسرعة لأنها كانت
تحدث عن استمرارية الوقائع المورفولوجية والتركيبية دون أن تأخذ
بعين الاعتبار الانزلاقات الدلالية والتوزيع الأسلوبي.

إن موقف ستالين يعبر مرة أخرى، وبطريقة مسجمة، عن
استصور الشاطري للغة، الذي يقوم في نهاية الأمر على المنطق التالي:
بما أننا نمكر من خلال استعمال علامات، فلا وجود إذن لاختلاف
بين قوالب العلامة وقوالب المكر. وإذا شئنا، فإن الأمر يتعلق بنفس
الموقف الأرسطي بدءاً من أصحاب الجهة في القرون الوسطى إلى بور
روايل، ومن بور روايال إلى ستالين، ومن ستالين إلى تشومسكي وكل
اللسانيين الذين حاولوا إقامة كويات اللغة سواء على المستوى
لفونولوجي أو على المستوى النحوي. وإذا امتشينا أن قضية الكويات
تطرح في الأبحاث التجريبية أيضاً حول تواتر بعض السمات
المورفولوجية (دون أن يستدعي تحقق الوقائع نفس العرضيات
الميتافيزيقية)، فإن هذا الموقف لا يمكن التشكيك فيه إلا إذا أخذنا
في الاعتبار القضية التالية: ألا تكون قوانين لسان تاريخي معين هي
التي تفرض طريقة في التفكير؟ وعوض أن نختصر الأمر في قواعد
معينة نطلقاً من القوالب اللسانية، ألا يكون من الأحدي نقد هذه
القوانين اللسانية من أجل التشكيك في طرق تفكيرنا؟

III - في نفس الفترة التي كان يتطور فيها النموذج المعقلن
والكوني لنور روايال، كان هومر يعترض بأن كلمات مثل «جوهرة»
و«كبن» لا يمكن أن نرى النور عند شعوب نجهل استعمال فعل
اكبسونه باعتباره رابطاً (copule) (De corpore, I, 2, 4). وهو أمر
يكشف أن هومر كان له تصور خاص «المعبرة» الخاصة بكل لسان

وطريقته في صياغة نموذج لإدراك العالم. وهي قيمة نعثر عليها عند كوندياك وفيكو، وهي نفسها التي نعثر عليها أيضا عند ليستر الذي لا ينظر إليه، خطأ، إلا باعتباره مبدع الحساب المنطقي الذي تعبر داحته سلسلة من القواعد التركيبية الكاملة عن حركات الفكر ذاته ومن الواضح أن «المخصائص الكونية» ومشروعاته حول «فن التأليفات» كانت تهدف إلى إقامة علم كوني من خلال تأسيس نسق سيمبائي. ومع ذلك، فإن هذه النظرة هي نظرة ثابتة قياسا لتصوره الحاد للمروقات اللغوية: إن هذه الألسنة لا تتطابق لا مع تركيبها ولا مع دلالتها، فهي لا تعكس تاريخ الشعوب فحسب، بل تتحكم أيضا في ذهنياتهم وفي استعمالاتها. ولهذا السبب بالذات كان على العلم، في نظر ليستر، بلورة أداة منطقية قادرة على تجاوز هذه الاختلافات: فإذا كان هناك تطابق دقيق بين نسق من العلامات الخاصة وبين نسق من الأفكار المنطقية، فإن هذا التطابق ليس مستقفا عن اللغات الطبيعية (De Mauro, 1965, 56 - 57).

إن النحو الكوني، باعتباره مثالا للأحادية العقلانية، لا يمكن النظر إليه باعتباره معطى قريبا، كما كان يتمنى ذلك مناظرة بور وويل، بل يجب النظر إليه باعتباره مثالا نسي إلى تحقيقه عبر استحضار نفس الاستعمالات التجريبية والتاريخية السابقة للغة الإنسانية (rosello, 1967, 46 - 50). وهذا المشروع الهادف إلى خلق لسانيت موسوعية هو ما نعثر عليه في التداولية عند بيرس في القرن التاسع عشر. كيف يمكن تصور الكيونة، بالمعنى الذي يفترضه الفعل - الرأطة، من خلال ملاحظة أن كل الأشياء التي قد ينطبق عليها فكرنا لها بعض الخصائص المشتركة. ذلك أن لا وجود لأي شيء يمكن ملاحظته ويحصل على هذا التصور من خلال تأملنا في العلامات والكلمات أو

فقد وجدنا أن هذه الطريقة ليست كافية لإدراك الأشياء كما هي، بل هي
تحتاج إلى أدوات أخرى، وهي أدوات التفكير.

بأن طريقة تصور الروابط المكانية والزمانية، والسبب والنتيجة، تختلف
من أئمة إلى أخرى، وذلك وفق النيات التركيبية الخاصة بالدعة
المستعملة. إن طريقتنا في الرؤية وفي تقسيم الأشياء إلى وحدات،
وإدراك الواقع العيزيقي باعتباره نسقا من العلاقات تحدده قوانين اللغة
التي تعلمنا من خلالها قواعد التفكير (وهي قوانين ليست كونية بطبيعة
الحال).

وعلى هذا الأساس، فإن اللغة ليست الأداة التي نفكر من
خلالها، بل هي الأداة التي نفكر بواسطتها، إن لم تكن هي التي نفكر
فيها، أو هي التي يفكر فيها من خلالها. فمقابل الكلمة الوحيدة / ثلج /
يمثلك الإسكيمو أربعة ألفاظ، لا لأن لعنهم أفسى في المتردات من
لغتنا، بل لأنهم لا يعرفون هذا الكيان الوحيد الذي نطلق عليه «ثلج»،
بل يعرفون أربعة أشياء مختلفة وذلك وفق الاستعمال العملي للعنصر
الأصلي (بنفس الطريقة التي نميز بها الماء عن الثلج، حتى وإن تعلق
الأمر بنفس الشيء، في حالتين مختلفتين: فعندما يقدم لنا التادل شرب
ويسكي ممزوجا بالماء عوض ويسكي بالمثلجات، فإننا نعبر عن
استيائنا دون أن ندري أن الأمر يتعلق في الحالتين معا بـ H_2O). إن
القصة تتلخص في معرفة هل الإسكيمو يمتلكون أربعة ألفاظ لأنهم،
لأسباب حيانية، يدركون بشكل متميز أربعة كيانات مختلفة، أو لأنهم
يدركون أربعة أشياء لأنهم يتوفرون على أربعة ألفاظ (أربعة دوال
بأربعة مدلولات). ويكثير من التجريد، يمكن القول إن القصة تتلخص
فيما يلي: هل ننظم الواقع الذي ندركه على أساس تقطيع لماسي في
علامات مفصلة، أو أن طريقتنا في إدراك الواقع هي التي تعرض على
اللغة أن تنظم بهذه الطريقة دون تلك ؟

إن الصعوبة الأولى التي تعترضنا، ونحن نحاول الإجابة عن

... من وجهة نظر ...
... من وجهة نظر ...

هذه القضية، مصدرها أن هذه الفرضيات صيغت بشكل سابق على كل تحليل تفني دقيق للميكانيزمات الدلالية. فلا يشار إلى أن التحليل عندما يتم إنجازها بطريقة جيدة هو الذي يحدد مضمون ما طرح في المصطلق. إن التحليل سيمكثنا، على الأقل، من التأكد من نطاق محتمل من التنظيم اللساني والتنظيم الذي نسند للواقع الذي نروم معرفته. وبطبيعة الحال يجب تحديد ما إذا كنا نتحدث عن التنظيم الدلالي أو نتحدث عن التنظيم التركيبي. فالأول يسمح لنا بالتساؤل هل مقاس كل جبرية من جبريات الواقع هناك نسبية أو نسبيات متعددة. أما التنظيم التركيبي فيسمح لنا بمعرفة ما إذا كانت البنية موضوع - رابط - محمول تقتضي تجزيًا للواقع إلى جواهر وصغات، وإلى نوعيات أولية وثانوية، وإلى جواهر وأعراض، أم أن الأمر لا يستدعي ذلك بناتا. إن كل الانتقادات التي وجهها الفكر الحديث لفلسفة الكينونة والجوهر استندت إلى البنات اللسانية. لقد ظهرت السيميائيات - وسميت بذلك - في العصر الحديث مع جون لوك. ولقد كان عمل هوبز ولوك وبيركلي وهيوم يكس في تدمير مفهوم الجوهر من خلال نقد وإعادة تفويم نظرية العلامات. إلا أن هذا النقد خلط قضية الروابط بين العلامات والفكر بشيء آخر: ويتعلق الأمر بالعلاقة بين شكل العلامة وشكل الموضوع الذي تحيل عليه هذه العلامة من خلال عنصر وسيط: المعكرة أو المفهوم. وبهذا المعنى، فإن فصايا السيميائيات ربطت بقضية نظرية المعرفة.

2.3.5. التجلي الأول للمرجع: المفهوم باعتباره علامة على الشيء.

لقد خلعت القرون الوسطى وكذا العهود القلمية، مجسلة في أعمال أبيقور وليكرامس وتأملات داني في اللغة التي كان يتحدث بها

اياؤا في الفردوس المفقود، قضية وجود لسان أول فردوسي أو لسان آدم. فالكلمات خلقت من خلال مزج حميمي بين الأشياء، ومتأتي بعد ذلك بليلة نابل الكبرى. ولقد عاشت الثقافة الإنسانية، وكذا النجربية الإنجليزية من باكون إلى القرون الثامن عشر بأكرم (فورميغاري 1970)، على حلم كبير يمثل في اكتشاف لغة أسلاف أو إعادة خلق لغة كونية صالحة لكل الشعوب. وستظهر هذه الثيمة من حديد عند فيكو، ولكن من زاوية تاريخية. فتطور اللغة، في نصوره، يحصل في لحظة تاريخية مميزة، حيث تتشكل «المحسبات الأساسية»، أي الاستعارات المباشرة التي تمكن الحقائق الأولى للأشياء بالتعبير عن نفسها من خلال اللغة.

ومع ذلك، فإن هذا النقاش كان يتطور بشكل مواز مع التصور القائل باعتباطية العلامة، وهو تصور توجد جذوره عند أفلاطون نفسه. فالمشكلة في الواقع لا تتعلق بالعلاقة المباشرة بين الكلمة والشئ الذي تحيل عليه. ذلك أن الفلسفة القديمة برمتها، وكذا الفلسفة القروسطية، كانت تعرف أن كياناً شعاعاً لامادياً يفصل العلامة عن الشئ، ويتعلق الأمر بالمفهوم. فالقضية مستحول إذذ إلى معرفة الكيفية التي يعين الكلام، من خلالها، المفاهيم، وهل المفاهيم هي الصورة أم العلامة الذهنية للأشياء الواقعية.

١ - وسينخذ المشكل وجهاً سجالياً لأول مرة في القرون الوسطى عندما طرحت قضية الكوبيات. فلم يكن هناك أي مفكر سكولائي يسمي الوجود الواقعي للأشياء (ذلك أن نقي الأشياء هو نقي للمخالف)، ولكن القضية تلتخص في معرفة هل العلامات تتطابق مع بنيات موجودة في الأشياء (كما هي في الواقع)، أم تتطابق مع علامات يطورها الدهن البشري باعتبارها بدائل عامة عن التجربة المحسوسة.

المشكلة
التي
تتعلق
بالعلاقة
بين
الكلمة
والشئ

وبطبيعة الحال قد تكون العلامة مرتبطة قليلا أو كثيرا بالأشياء، في حدود أن كل شيء يمثل إما جوهرًا كوميًا (يمكن التعرف عليه واستعبر عنه من خلال العلامات)، وإما كيانا فرديا خالصا. والمعارقة المحيية هي أن العلامات كانت مرتبطة، من الناحية الدلالة بالأشياء، بدرجة أن هذه الأشياء ستفقد خصوصيتها لنحول إلى أسماء فاقدها مردبتها المطلقة.

بها معارقة في الظاهر فقط، ذلك أن المعرفة المجردة لا يمكن أن تكون هذا إلا إذا كانت القوانين الكونية موجودة في الطبيعة. استنادا إلى هذا الإمكان استخلصت نظرية القرون الوسطى وجود توافق بين الشيء وبين جوهره الكوني، أي العينة التي يولدها العقل لإيجابي في العقل السلبي وهكذا دواليك. ولنحاول الآن التعرف على السيرة الذهنية المنتجة للكوني والواقعي كما تقدمها لنا نظرية المعرفة التي صاغها القديس توماس الأكويني:



إن الشيء يحتوي على الجوهر، والجوهر هو ما يحدده. إلا أن الصورة الكلية للشيء تطبع، بواسطة الحواس، داخل المخيلة على شكل «تأثير»، والأمر لا يتجاوز حدود «تأثير شيء ما»، أي للشيء المدرك في كليته باعتباره «مبدأ للتفرد»، الذي يكشف عن الشيء من خلال خصوصياته الملموسة البالغة الدقة.

استنادا إلى هذا التأثير، وهو صورة كلية للمحسوس الموجود الذي يعبر فقط عن مظهر محسوس، يستخلص العقل الفعال الشكل الكوني من خلال «فعل طبيعي». وبهذا يجرى المظهر المحسوس من

كل تحليلاته المادية ومن خصوصيته، ويقدمه باعتباره شكلا كونيا يصدق على كمية لامحدودة من الأشياء التي تنتمي إلى نفس الصنف ونفس الجوهر، وإلى العقل السليبي أو الممكن. إن هذا العقل السليبي ينلقى الشكل الكوني باعتباره مظهرا انطباعيا، ويعبر عنه بصعته معطى مجردا، يمكسا من التعرف على ما نم إدراكه (مدلول إدراكه، إذا شئنا). فإذا حاول شخص ما أن يتعرف على موضوع ما في خصوصيته، عليه أن يعود إلى الوضع الأول، لكي يقارن بين المظهر الذي تم التعرف عليه، وبين خصوصيات الموضوع الحاصل الذي يتجلى في التأثير.

إن الأمر لا يتعلق بعودة إلى الشيء، فبدا من اللحظة الأولى للإحساس، فإن السيرة تعلق تفاعلا بين القوة العقلية وبين النوعية المنتجة والتعرف عليها، أما الأشياء الواقعية فيتم إقصاؤها بشكل نهائي.

فهل سيكون صحيحا القول إن الأمر يتعلق فقط بسيرة لا تستدعي سوى العلامات فقط؟ يمكن أن يكون الأمر كذلك احتمالا، حتى وإن نفي ذلك عدد كبير من السكولائيين. إن الخلاف الوحيد هو أن الرابط بين اللفظ وبين العينة المحقولة هو رابط اعتباطي (واللفظ هو الصوت الدال على الرغبة)، في حين أن الرابط الذي يجمع بين المفهوم والشيء هو رابط معطى. وعندما تصل أزمة الواقعية السكولائية إلى حد معارضة وجود المفهوم ذاته، حينها تتحول هذه السيرة إلى سيرة سيمائية.

II - ولقد كان تصور أوكام لهذه القضايا واضحاً. فالمضاي العلمية لا تحصى الأشياء، بل تحصى المفاهيم (ولهذا فصل المدلول عن الشيء). وتعد هذه المفاهيم ذاتها علامات لأشياء مخصوصة، أي

و بعضی از سمیعت : از اهل الحسب و انسابی تمام ما عقل و تقاریر و ولاعظام له و
الحارث من شعبه شوکر و ... و در مقدم مقام کفر و انحراف و عیب و ... و ...
از کتب معتبره و ... و ...

ما يشه الصانع الكتابية الصورية (السينوغرافية) التي تمكننا من
تصنيف تعدد الكيانات في خانة مولدة واحدة. وفي هذه الحالة، فإن
السيرورة التي تقوم بصياغة مفهوم ما يجب أن تكون هي ذاتها التي
تسمح لنا بإنتاج علامة. فالعلامة اللسانية عند أوكام هي دال يحيل على
مفهوم هو مدلوله. إلا أن هذا المفهوم هو ذاته علامة، أي دالا
مختصرا ومجردا تقدم الأشياء المخصوصة مدلوله (أومرجعه).

وهو نفس المخرج الإسماني الذي تبناه هوبز (Leviathan I. 4).^٤ ويمكن فكرة ما أن يكون لها مدلول كومي كلما تعاملنا معها من خلال خصوصيتها، باعتبارها علامة لمجموعة من الأفكار المتشابهة فيما بينها.

ومع ذلك، فإن الصبغة الدقيقة لهذا التصور هي ما يقدمه لوك. وبالإمكان القول، إن لوك هو أبو السيميائيات الحديثة، أو على الأقل هو أول من حدد هويتها التطبيقية في علاقتها بالملق وذلك في خانة كتابه: (مقالة في الفهم الإنساني، 4، 20). ففي هذا الكتاب يوضح أن العلوم تنقسم إلى ثلاثة أقسام: الفيزياء، وهي العلم الذي يهتم بالأشياء الجسدية أو الروحية، والممارسة التطبيقية، وهي نسق القواعد التي توجه أفعالنا، ثم هناك السيميائيات، إن موضوع سيميائيات هو معرفة العلامات، أي معرفة الأفكار والكلمات (علامات من نفس المستوى) التي تعد أدوات للعلوم الأخرى. ويضيف أن بملاحظة السيميائيات يمكن أن نتج منطقاً وتقناً جديدين.

إن غايات لوك ستظهر بوضوح في الكتاب الثالث من «مقالة في
الفهم الإنساني» الذي خصص لقضايا اللغة. وهكذا سيتمكن، من
خلال دراسته للاستعمالات اللسانية، من توجيه نقد لاذع لفكره
البحر. إن الكلمات لا تعبر عن الأفكار، فنحن لا نعرف هذه الأشياء

۴
 مؤلف: امام رضا (ع) - تصنیف: ۱۰۸۰ هجری قمری - ۱۰۸۰ هجری قمری - ۱۰۸۰ هجری قمری
 مکتب: مکتب اصفهانی - ۱۰۸۰ هجری قمری - ۱۰۸۰ هجری قمری - ۱۰۸۰ هجری قمری
 ۲۲۹
 (۱۰۸۰ هجری قمری - ۱۰۸۰ هجری قمری - ۱۰۸۰ هجری قمری)

إلا بمساعدة بناء أفكار مركبة تمت صياغتها انطلاقاً من أفكار بسيطة والكلمات تحيل على الأفكار وعلى مدلولات مباشرة. وساء عليه، فإن الرابط بين الكلمات والأشياء رابط اعتباطي. لا لأن كل وجود هو يمي للتعليل العميق الذي يتحدث عنه منظرو الأصوات المحاكية الأصعب، فحسب، بل لأن العنصر الوسيط بين الأشياء والكلمات هو ذاته اعتباطي. ولن يكون المفهوم، كما هو الشأن عند السكولائيين، انعكاساً أو صورة للأشياء، بل هو بناء يتم من خلال عملية انتقائية إن الأفكار المجردة لا تعكس الجوهر الفرد للأشياء، فسيظل هذا الجوهر غير قابل للمعرفة، إنها تقوم بإمدادنا بجوهره الإسمي. إن الفكرة في ذاتها، باعتبارها جوهر اسماني، تعد بشكل سابق، علامة هي الشيء. إنها اختصار وبلورة وتركيب لبعض الخصائص. والأمر يتعلق بتجريد لا يتوفر على مظاهر الشيء ولا على خصائصه. إن الإجراء التجريدي الذي يقود إلى الجوهر الإسماني هو من نفس طبيعة الإجراء الذي يثير اختيار اسم للدلالة على حرية مركبة. فبالنسبة للوك، وحللاً لما يقوله بيركلي وهيوم، فإن المفكرة المجردة التي هي الجوهر الإسماني لم تتخلص بعد من عمق وسمك ذهنيين أكيدين، إلا أنه تعد، مع ذلك، منتجاً سيميائياً. فإذا كما ستعمل، في التواصل، الكلمات كما ستعمل الأشياء، فتلك واقعة محسوسة يمكن التأكد منها بسهولة. إلا أن الكلمات، في منظور نظرية المعرفة، تحيل على تلك العلامات الذهنية التي هي أفكار مجردة باعتبارها جواهر اسمانية (2).

(III)

وعلى هذا الأساس، استطاع لوك أن يقدم نقداً كسراً للحدوث الخاصة بالإمراط في استعمال اللغة. وتعد هذه النظرية الخاصة بالمراقبة التقليدية للغات الفلسفية واليومنة نظرية حدائية بشكل مدهش

وما يجعل من نظريته للمتلول غير قابلة لتجاوز عصرها، وغير ملائمة
عصره، هو كونه يعتبر الأفكار من طبيعة نفسية. ومع ذلك، يكفي أن
نعرض موهلة المفكرة بعقولة الوحدة الدلالية (وهذه الوحدة لا تجد
موبنها في الذهن البشري، بل في الثقافة التي تحدد الوحدات
المصموية) لكي يصح لنظرية لوك في المتلول مردودية كبيرة في
التحليل الدلالي المعاصر (انظر مثلاً فرمبخاري، 1970، 196 -
197).

ولقد كان النقاد الأوائل للوك هم أول من أنصف مقولة المفكرة
المجردة. فقد اقترح هنري لو سنة 1702 النظر إلى الاسم العام بصفته
امتداداً للعلامة هي قسم من الكيانات التي تملك خاصية مشتركة لا
باعتباره مطابقاً لمفكرة مجردة. إن الإسمانية تجد في هذا الطرح أقصى
أشكالها. وسيفود بيركلي من جهته، هذه السيرورة إلى حدودها
القصى: ما نعرفه هو إدراكات فردية، أي أفكار خاصة. «إذا كنا نريد
أن نمنح كلاماً مدلولاً، فعلياً فيما أعتمد، الاعتراف بأن فكرة ما،
منظوراً إليها في ذاتها باعتبارها كيماً خاصاً، تتحول إلى فكرة عامة
عندما نقوم بتمثيلها وتمييزها عن كل الأفكار التي تنتمي إلى نفس
الفصيلة (مقالة حول مبادئ المعرفة البشرية، 12).

من الواضح أن بيركلي يستعمل الكلمات التي استعملها بيرس
في تعريف العلامة شيء ما يقوم مقام شيء آخر. ويكمن الاختلاف
بينهما في أن هذه الإسمانية المطلقة للأفكار لا تستعمل عند بيركلي من
أجل إعادة تعريف اللغة، أي باعتبارها أدوات داخل عمليات منطقية،
بل من أجل التعامل معها، بشيء من الحذر، من خلال التشديد على
أن لا نستطيع أن نمس، انطلاقاً من هذه اللغة، معرفة صلبة. ولا
يقوم هيوم بشيء آخر سوى بتبسي المقترحات الإسمانية: يحب أن

تكون هناك قوة تؤسس لهذا التطابق، وهذه القوة هي العادة. وبالإمكان التوقف عند هذه النقطة لمعرفة ما إذا كانت هذه العادة استعمالاً اجتماعياً، أو عادة ذهنية، إن لم تكن منتاً من طبيعة عرفية (وهكذا كان لوك متصور الأمر في كتابه «مقاله»، الفصل 3). وفي جميع الحالات، فإن هذا التطور سيتوقف عند هذه النقطة - لقد فقد الشيء في ذاته أي حق في الوجود داخل الكون المعرفي، والعلامات لا تحيل على الأشياء، بل على الأفكار التي ليست بدورها سوى علامات. إن بذور نظرية للمؤولات وعملية التوليد السيميائي (السميور) اللامحدودة (فقرة 4) زرعت في هذه اللحظة من تاريخ الفكر الحديث.

III - لقد سعت الفلسفة المعاصرة، استناداً إلى التدمير البيركلي لفكرة «الفكرة القابلة للتعميم» مروراً بالنقد الهيومني والنقدية الكانطية، إلى إعادة صياغة مفهوم الإدراك ذاته. ولقد ظهرت في نهاية هذا العمل آخر قصة مستصح السيميائيات والحطاب الفلسفي داخلها مرتبطتين فيما بينهما ارتباطاً وثيقاً. وهو ما يطرحه مفهوم المدلول الإدراكي باعتباره هو ذاته نتيجة لضرورة توليد سيميائي. ولقد قدم كل من بيرس وهومبول في نهاية القرن التاسع عشر تركية لهذا التصور.

إن القفزة العنيفة التي قمنا بها من كانط إلى بيرس قد نزعج البعض، ومع ذلك فقد بينت دراسات حديثة (مثال ذلك ما قام به كاروين) أنه بالإمكان العثور عند كانط على أشكال تحصى الأسس المتعالية للمدلول. أما فلسفة الأنوار فقد كانت هي والرومانسية وما بعدهما غنية بالإشارات السيميائية.

ومن جهتها كانت الأطروحة التي طورها الموسوعيون وكويديك والإيديولوجيون باللغة النضج. فالنظريات الخاصة بالرمز التي قدمها عوته تعتبر إسهاماً غنياً في ميدان السيميائيات والإيحاء، وكان لها

مردود كبير هي إقامة نظرية للمصر، ولكن لنبق في حدود موضوع هذه
لعقمة، ونتساءل لماذا كان موقف الفلاسفة المثالية تجاه هذا
لموضوع عامضا ٢.

ويمكن القول إن المثالية قد طورت، بالتأكيد، نظرية خاصة
بالشأن الروحي ذات طابع سيميائي. إلا أن هذا الأمر قد لا يعني أي
شيء، فالاعتناء بالقول إن الكل يتواصل فيما بينه وكل شيء يمكن
لتعبير عنه، إن لم نقل كل شيء قابل لأن يعبر عنه، لا يقود إلى إنتاج
سيميائيات. فسيرورة السيميائيات تكمن في التساؤل عن الكيفية التي
يتم بها التواصل والدلالة. فعندما أرمى كرونشه أسس فلسفة للتعبير،
ليقوم بعد ذلك بإقصاء الأدوات التقنية الوصفية التي جاءت بها
اللسانيات لأنها لا تشكل في نظره مفاهيم حقيقية، فإنه لم يترك لنا
سوى إمكانية واحدة هي أن نتأمل - باحترام وانبهار - نسفا فلسفيا لا
يملك القدرة على استعماله في بلورة خطاب حول الاشتغال
الاجتماعي للعلامات. ويستخلص توليو دومورو (1965): «إن نور
الوصف المطلق الذي يشق الكون عند كرونشه يتحول، من خلال
حركة ديالكتيكية غير إرادية، إلى ظل غريب لا يمكن معرفة كنهه،
ويتعلق الأمر بانعدام التواصل». لم يبق لنا، بعد هذه النظرة الشاملة،
سوى العودة من جديد إلى العلامة وتناولها في الحالات التي تبدو فيها
أكثر وضوحا وأكثر قابلية للاستعمال.

وهذا ما يقدمه لنا بيرس. وهو ما سيتجلى من خلال مناقشتنا
لأيقونات الذهنية. إن بيرس، يشير بشكل صريح، بعد تحليله لمحو
لافتراض (abduction)، إلى أن الإدراك هو سيرورة افتراضية (cf
bosco, 1999, Salanitro, 1969, Eco, Bonfantini, Sebeok, 1983)

يشكل الافتراض عند بيرس الشكل المباشر والأكثر هشاشة في

البرهنة الاستنتاجية: إن الأمر يتعلق بفرضية مؤسسة على مقدمات غير مؤكدة تنطلق منها المراقبة من خلال قياسات متتالية تتطلب مراقبة استباقية. ومع ذلك، فإنها تمثل أمامنا باعتبارها مؤشراً دالاً يشتمل على إمكانيات تطوره. وسنقدم مثالا على ذلك. فالمثال الحاضر بالاستبطان هو الاستنتاج التالي:

- كل مناديل هذه العلبة بيضاء

- مصدر هذه المناديل هو هذه العلبة

- هذه المناديل بيضاء.

أما القياس فهو:

حالة: مصدر هذه المناديل هو هذه العلبة

نتيجة: إنها بيضاء.

قاعدة: من المحتمل أن تكون مناديل هذه العلبة بيضاء.

وعلى القيص من ذلك فإن البرهنة التالية تقدم لنا مثالا على

الافتراض:

نتيجة: أخطر على مناديل بيضاء فوق الطاولة.

قضية: من أين أتت هذه المناديل ؟

قاعدة - إذا افترضنا أن كل مناديل هذه العلبة بيضاء،

- وإذا افترضنا أن هذه المناديل مصدرها هذه العلبة،

- في هذه الحالة فإن هذه المناديل لن تكون مصدرا لأي

إشكال.

وكل امتحان عند بيرس يشكل مبررة سيمائية. ومع ذلك، فإن

الاختلاف بين السيرورات الثلاث واضح، في هذا المستوى ذاته. ففي

المثال الأول يمكن القول إن المقلمة تحتوي، إلى حد ما، على

خلاصات البرهنة التي تشتعل هي باعتبارها دليلا عليه. ولنسطر إلى

المسألة من زاوية تحليل المكونات (componentiel) الذي عرفناه في الفقرة 3.8). فتحليل سيميم «إنسان» يجب أن يقود إلى الكشف عن الحصائص التي تعود إليه من الناحية الدلالية، بما في ذلك المعنم «فناء» وبالمثل، فإن تحليل «سقراط» يجب أن يشمل على السمات الدلالية: «إنسان» و«فان». وإذا استعملنا الحدود الدالة على الخلط السياقي، فإن القياس المنطقي هو المرادف لجملة صحيحة من الناحية الدلالية. إلا أن اللفظ سقراط، إذا أدرج ضمن المقدمة الصغرى، فإنه يحتوي، في ذاته، على المعطيات الدلالية للخاتمة.

أما في حالة القياس، فإن السيرورة السيميائية مختلفة: فالمناديل التي مصدرها العملية ينظر إليها باعتبارها علامات على مباديل غير مرئية بعد (لا قيمة لها إلا في علاقتها بالمناديل الأخرى)، إما أمام تأويل لأعراض، ولكن هذا التأويل يتم خارج أي متن، ما عدا اللحظة التي يكون فيها القياس موضع تصديق وذلك من خلال قيامنا بسحب متتال للمناديل، وثبت أن المناديل، في كل الحالات، بيضاء. إن كمية السحب تكون حينها من سُن، وباعتبارها كذلك فإنها تصدق على كل الأعراض الممكنة.

أما حالة الافتراض فهي شديدة الاختلاف. فهي لا وجود لرباط واضح بين ما طرح في المقدمة الكبرى، التي تشكل تسببا لما هو معروف بشكل سابق، وبين القاعدة المعلم عنها في المقدمة الصغرى. فقد أكون قد كنت بالأمس فكرة عن مضمون العملية (التي هي الآن غير موجودة)، ورأيت اليوم مناديل بيضاء. إن العملية الافتراضية تكمن في صياغة فرصة نقول إن النتيجة الملاحظة هي حالة خاصة لقاعدة ممكنة. إنها فرضية مؤسسة على ارتباط سابق على البرهنة وكل علامة هي سبب ونتيجة. إنها تعين كل شيء لا يمكن البرهنة عليه.

إن الأمر يتم كما لو أنني أحاول دراسة ما هو مكتوب على علبة وقد كتب على جزء منها «content» وأقرر ربطه بجزء آخر يحمل الإشارة التالية: /3 Fl.Oz/ أو بجزء آخر يحمل: de nous أعرف أن هناك مسين (قاعدتين) سنن اللغة الانجليزية الذي تعني فيه كلمة «content» «محتوى»، وسنن اللغة الفرنسية التي تعني داخله هذه الكلمة «راص». إن القضية تكمن في اختيار السنن الذي تسمي إليه الأحرف المكتوبة وصياغة مركب يكون إما:

«content» : /3 Fl.Oz/ -

- وإما: «content de nous».

إن الأمر يتعلق بعملية افتراضية العرض منها تحديد سنن ما. إن هذه العملية تشكل عند شخص يفك الرموز أو عند رجل من المباحث يريد الكشف عن سر إرسالية ما، الشكل الحدسي السعيد، إلا أنه مع ذلك يستند إلى سيرورة شاقة من الافتراضات وعلى مراهنات متكررة. ولستسائل: ألا يكون الأمر هو ذاته في كل سيرورة ذهنية للإدراك؟ لناخذ مثالا على ذلك وأنا أسير في زقاق مظلم أثار انتباهي وجود شكل مهم ونساءلت. ما هذا؟ (وكأن بإمكانني أيضا أن أقول «على ماذا يدل هذا الشيء»؟ فالاستعمال اللساني هنا يشير إلى هواجس فلسفية) سأركز حينها اهتمامي: أنسق بين المميزات، أحاول استحضار بعض المخطاطات التي توفرها لي التجارب السابقة (أي أضع أمام النموذج الدلالي مجموعة من المميزات العارضة)، وأشكل حفلا إدراكيا ممكنا. لقد فهمت الآن: إن الأمر يتعلق بقطعة. فلو كان الأمر يتعلق بحيوان غريب لم يسبق لي أن رأيته (وتجهله الثقافة التي كبرت في أحضانها) فإنتي لن أتعرف عليه. قد أكون عنه اطباءات غير دقيقة، قد تتطابق مع تسمية خاطئة.

إن الإدراك باعتباره سيروية افتراضية شبيه بذلك التحديد الاستثنائي للمعرفة، إلا أنه وثيق الصلة بتلك السيروية التي بموجبها لا وجود لرباط دائم بين الإدراك الخام ومنح اسم ما لشيء ما. وهو ما يشير إليه فيوميسولوجيا هوسيرل. وإذا اعترض علينا بأنه لا يجب الخلط بين «المدلول الإدراكي» وبين «المدلول اللساني» أجبنا بأن هناك سببا يجعلنا نستعمل نفس اللفظ في الحالتين معا.

وقد بلور هوسيرل حول المدلول نظرية قائمة بذاتها في كتابه (أبحاث منطقية) *Recherches logiques* وخاصة في المباحث الأولى لمعنوية: تعبير ومدلول، وفي المبحث الرابع المخصص لفكرة المحرر لخالص، وفي المبحث السادس. وفي هذا المبحث الأخير، وهو أهم المباحث مجتمعة، نعثر على تصور فينومينولوجي للإدراك منظورا إليه باعتباره لقاء بين الأسماء التي يمكننا من تعيين حدس ما وبين امتلاء الحدس الذي يرفض في أن يكون محددا من خلال اسم.

إن الفعل الدينامي الذي تؤسسه المعرفة يستدعي نشاطا يقوم بمرء الفراغات، أي إعطاء الأشياء معنى، وهو فعل يتم داخل الإدراك. «فمنذ أعلن أنني سأعطي مقابلا إدراكي، فإن هذا قد يعني أنني أمنح إدراكي محمولا يتجلى في هذا المضمون أو ذاك (...).» فالموضوع «أحمر» يتم التعرف عليه باعتباره أحمر، ويتم باعتباره أحمر استنادا إلى هذه المعرفة. وفي نهاية الأمر، فإن «تعيين الموضوع باعتباره أحمر هو تحديد حيوي يفترض حدس ما تم تعيينه، والتعرف عليه باعتباره أحمر هي تعابير من نفس الطبيعة ولها نفس المعنى (...).» إن للمحطات التي نتعرف عليها بشكل صمي داخل هذه الوحدة - التجلي المبرمي للكلمة، استحصار مدلول لحظة التعرف على المعين وحدسه - لا يمكن التمييز بينها (...). فعندما نتحدث عن معرفة

موضوع ما وعن إسناد مدلول ما، وإنما تعني نفس الأمر، إلا أننا نسطر إليه من زوايا مختلفة (هوسيرل 1922).

إن فكرة البناء الإدراكي للعالم (وهو عالم قابل في ذاته لكل إمكانيات الانفتاح) باعتبارها إسناد معنى لموضوع بشكل دائم (وهو ما أسهم به من خلال لغني اللفظية وتعبيرية جسدي) هي ما يشكل جوهر فكر موريس ميرلو بونتي. ففهومينولوجيا الإدراك تنهي، استناد إلى هذا، إلى فينومينولوجيا للتوليد السيميائي (السمبور)، مع استثناء واحد هو أن السيميائيات من هذا المنظور مبدورة لدراسة تشكل المدلولات، لا لدراسة المدلولات المتشكلة والمبسطة التي تقترحها علينا الثقافة. والأمر لا يتعلق هنا ببديل يقضي طرده الأول طرده الثاني، حتى وإن كانت السيميائيات، استنادا إلى علم النفس اللساني واستنادا إلى وقائع قابلة للتعرف والتصنيف، قد تشكلت باعتبارها سيميائيات للسنن (تماما كما كانت اللسانيات «اللسانيات للسان»). إن قراءة سيميائية للأدبيات الكلاسيكية للفينومينولوجيا قد تفتح الباب أمام سيميائيات لإرساليات أكثر دقة (وقد يكون الأمر كذلك بالنسبة لللسانيات الكلام)، ومستفتح، تبعاً لذلك، الباب أمام سيميائيات لا تكثر لاشتغال العلامات، بل تهتم بالسيرورات الخاصة بإنتاج العلامات وإعادة بناء السن.

3.3.5. التجلي الثاني للمرجع: شكل الملفوظ وشكل الحدث.

يبدو أن قضية العلاقة بين النظام اللساني والنظام المسمطي لم نعرف بعد طريقها إلى الحل. ومع ذلك هناك طريقتان ممكنتان لحدها. أما القضية التي أشرنا إليها سابقاً، فمارالت على حالها. هل يعكس شكل العلامات المركبة أو الملفوظات من خلال نظامها التساعي،

نظام التتابع (أي الشكل) الحاص بالوقائع الفعلية؟

لن يكون من العسير العثور هنا على موقف يجد صياغته المعاصرة الكاملة في كتاب فتعنشتاين - (رسالة منطقية فلسفية) Le Tractus، وفي الوضعية المنطقية الجديدة، وهو موقف كان قد بساه من قبل منطقيو يور روابال- إن الحديث عن «الشكل التمثيلي» (معمشسين 1922 - 2 - 17) والقول بوجود تماهي «بنيوي» بين الواقعة والملفوظ (151.2) يعني القول بأن النظام الرمزي يعكس نظام الظواهر التي يقوم بوصفها. فإذا كنا لا نخص هذه الثيمة الفلسفية لهامة بتعامل خاص، فإن ذلك لا يعود إلى كونها لا تنتمي إلى سيميائيات الخطاب (لا سيميائيات العلامة)، بل لأنها تمتد بجودورها إلى مفهوم العلامة الأيقونية التي سنناقشها في الفقرة الموالية. إن أية نظرية للغة، حتى وإن آمنت بمبدأ اعتباطية العلامة اللسانية، ستفتح من جديد قضية تحليل العلامات. محبس يتم الاعتراف بوجود علامات أيقونية عاكسة لخصائص الأشياء التي تحيل عليها، سيكون على هذه العلامات احترام شكل الأشياء.

وسيرهن التحليل الذي مقترحه لنظرية الأيقونية، كما تصورها بيرس، على أن قضية العلاقة بين الواقعة والملفوظ مرده (ويستند إلى) قضية الرابط التشابهي بين العلامة والشئ. وهو رابط سيمارس، بمجرد طرحه في حالة بعض العلامات، تأثيراً على تعريف العلامة في كليته. وعندما يتعلق الأمر، من جهة ثانية، وهذا أمر يعرفه اللسانيون جيداً (Valesio، 1967)، بأيقونات داخل اللغة اللفظية، فإن ما يطرح ليس فقط قضية العلامات البسيطة التي بينها وبين المرجع رابط محاكاة صوتية، بل ستناقش أيضاً كون تعبير من نوع: «دخل لويس، أعلى الساب خلفه وجلس» يعيد، من خلال النظام التركيبي لهذه

الحدود، إنتاج نظام الأفعال الذي يحيل عليه. وها نحن مواجه
المشاكل النظرية للأيقونة.

4.3.5. الفتحلي الثالث للمرجع: الأيقونة

إن الدعنية البهائية أو تلك التي تروح تحت مبر الصوفي هي
وحدتها التي تتخلط بين العلامة والشيء، فالقرون الوسطى، حتى
وهي تستعمل شيئاً ما كعلامة، كانت تعرف كيف تميز بين حمل واقعي
وبين حمل ينظر إليه كرمز للمسيح. ومع ذلك فإن القصيدة التي أثارها
الفلسفة تحيل بشكل مباشر على رابط الانعكاس المتبادل بين العلامة
والشيء. وهو نقاش أشار إليه أفلاطون في محاوره (قراطيدوس)
cratyle حيث تساءل قراطيدوس هل العلامة تعود إلى قانون العرف، أم
هي وليدة الطبيعة؟ وفي هذه الحالة ألا يحترم التكوين الصوتي للاسم
تكوين الشيء المعين؟ فإذا كان الأمر كذلك، فلن يكون للشيء سوى
اسم واحد مناسب له. وفي مقابل هذه الفكرة، دافع هيرموجين عن
الأطروحة القائلة بالعرف. فالاسم يسمح للشيء بشكل اعتباطي وعرفي.
ولقد حاول سقراط أن يصالح بين الأطروحتين. ففي اعتراجه بصدقية
الأطروحة العرفية، إقرار بأن اختيار هذا المكون الصوتي لهذا الشيء
دون ذاك له رابط بطبيعة الشيء. ويتص المعنى أكد البعض في المرحلة
الراهنة أن هناك مجموعة هامة من العلامات اللسانية التي لها أصول
في الأصوات المحاكية. وليس صدفة أن تظل المرقيات المحتملة وفيه
لنفس الشكل الأصولي من أجل تعيين دوي يسمع هي السماء:
(Tonnerre, tuono, thunder donner).

II إن البؤرة الأساسية لهذا المشكل هي الأنفونة. فإذا كانت
هناك علامات لها علاقة تشابه مع الشيء، فإن مبدأ العرافة سيلج إلى

لآلة السيمبائية التي ستنتهي، في حدودها القصوى، إلى نظرية تقول
 -لنعتبر العميق للعلامات. وفي هذه الحالة، فإن الرموز الاعتبارية
 (التي تعبر عادة علامات قائمة الذات) ستصنف في خانة الكيانات
 التي لا تحصل على تعريف كاف من خلال تحليلها العميق والأصلي.
 وهذا بشكل المخ الذي يسقط فيه من يزول تأويلا حرفيا تحديدا
 بيرس حين يقول: «الأيقونة هي علامة تحيل على موضوعها استنادا
 إلى لحصائص التي يملكها الشيء»، سواء كان هذا الموضوع موجودا
 فعليا أم لا» (trad fr p 140 347.2).

إن لتأويل الطبيعي لتعريف من هذا النوع سينتهي بنا إلى اعتبار
 رسم خاص بحيوان مثلا على أيقونة تامة. وهو تمثيل ممكن حتى،
 وإن كان هذا الحيوان غير موجود (سبق أن رأينا أيقونات لحيوانات لا
 يجادل أحد في وجودها كالتين أو الفارن). إلا أن بيرس يصنف ضمن
 الأيقونات الرسم البياني والاستعارة: فالرسم البياني أيقونة لأنه يعيد
 إنتاج العلاقات لا استنادا إلى التشابه الممكن مع الشيء، بل من
 خلال إعادته لإنتاج «أجزاء متشابهة مع أجزاء خاصة بالشيء الفعلي».
 أما الاستعارات فهي أيقونات، لأنها «تقدم لنا طالما تمثيلا لماثول ما
 من خلال التمثيل لتواز موجود في شيء آخر» (trad fr 149 277.2).

ويؤكد بيرس في مكان آخر بوضوح أن الأيقونة هي صورة
 ذهنية: «إن الطريقة الوحيدة لتبليغ فكرة بشكل مباشر هي ما نقدمه
 الأيقونة» (trad fr 149 278.2). إن الأيقونات الذهنية هي صور
 بصرية تحيل عليها العلامة (238.2 - 9). «إن الرمز يعادل حالة
 الوعي» (436.2). وتشكل حالة الوعي هذه فكرة يمكنها الالتفاف مع
 أفكار أخرى لتنتج أفكارا بالغة التعقيد.

وهكذا، ومن أجل تصور الصورة الذهنية المتطابقة مع التعبير

ملاحظة
 (188)

اللفظي / امرأة صبية/ ، فإن مخيلتنا تربط أيقونة امرأة وأيقونة الصبي (441.2). ويرس يشدد على أننا نفكر من خلال الأيقونات فقط، وأن «الملفوظات المجردة هي بلا قيمة في التفكير إذا لم تساعدنا على بناء رسومات بيانية (...)». فهل يمكن تصور إمكانية التفكير في الحركة دون أن نتخيل شيئا ما يتحرك؟ (127.4).

وسيتجه بيرس إلى القول بأن الأيقونة لا توجد إلا في الوعي، حتى وإن كنا ننسب، تبسيطا للأمور، اسم أيقونة إلى أشياء خارجية مستجدة لأيقونات في الوعي (447.4)، بحيث إن إطلاق اسم أيقونة على صورة فوتوغرافية ليس سوى استعارة. إن الأيقونة هي بكل دقة صورة ذهنية متولدة عن هذه الصورة الفوتوغرافية. (بيرس يمتص إلى أبعد من ذلك، فالصورة هي مؤشر يشير انتباهنا إلى الجزئية الواقعة التي تنتجها أيقونيا).

ومع ذلك، فقد الصفقت مقولة الأيقونة بالعلامات التي يقول عنها الآن إنها أيقونية، لأن الأيقونات الذهنية، عند بيرس نفسه، هي من طبيعة تجريدية، إنها خطاطات لا تحتفظ إلا ببعض السمات الخاصة للأشياء (وهذه الخطاطات مبنية بفضل تنسيق بين الأحاسيس تتم استادا إلى أحاسيس سابقة). إن هذا الأمر شبيه بالرسم التي تحاكي شكلا، إن لم نقل لونا، ولكن لا تحاكي مظهرا من مظاهر الشيء.

وهذا ما يفسر ما أكدته فلاسفة آخرون. إن السيروورة السيمبائية تنطابق مع السيروورة التجريدية للفكر. والأمر يتعلق في الحالتين بانتقاء بعض المظاهر العامة لمعطيات التجربة. واستادا إلى هذا، يتم بناء ما يشبه نموذج الكتابة التصويرية (السيوغرافيا): وحسب هذه النظرية الأيقونية، فإن هذا النموذج له نفس شكل الموضوع الذي يستدل عليه

إن مفهوم الشكل الذي يشير اهتمام بيرس، أساسي لإدراك مصموم الأيقونة إن الأيقونة تمتلك الخصائص التشاكلية للموضوع الذي تحمل عليه. وبهذه الطريقة، يؤكد بيرس بأن معيرا جيريا، كالرسم البياني، هو أيقونة. إن العلامتين معا، تعدان إنتاج العلاقات الشككية، حتى وإن كانتا لا تملكان كل خصائص الشيء.

فلماذا يشكل النظام الحسابي أيقونة؟ إنه كذلك لأن العلاقات المجردة التي يتم التعبير عنها من خلال:

$$(x+y)_z = xz + yz$$

هي قابلة للإدراك شكليا، وهي بديهية بصرية، من خلال الطريقة التي تنتظم بها العناصر البسيطة (التي تعتبر قرائن في المقام الأول) (363.3). إن تعادل التعبير أمر بالغ الوضوح بشكل سابق على أي برهنة. ولا نستطيع، في المطلق، أن نتصور بعض العلاقات المركبة بدون وجود هذه البيانات: إن الشكل القياسي:

كل «م» «هي» «ب»

أي «س» «هي» «م»

إذن أي «س» «هي» «ب»

هو أيقونة للعلاقة الرابطة بين الحدود الثلاثة، لأن «الحد الذي يتوسط المقدمتين يدركه البصر فعليا، وبدون هذا الوسيط، لن يكون للعلامة أية قيمة» (363.3).

وهي نفس الأطروحة التي دافع عنها المناطقة أيضا حينما اعتبروا المطلق الرمزي تشكيلا طباعيا لفكرة ما. فأشكال الالتباس السحوي التي ملقي مظلالتها على الاختلاف بين القياس تنتهي بمجرد ما تتم كتابتها بشكل رمزي، فلنأخذ:

1- إن الإنسان سيد مصيره

-سقراط إنسان

-سقراط سيد مصيره

2- كاتب الإلياذة إنسان

-هوميروس إنسان

- هوميروس هو كاتب الإلياذة

إن المقدمة الكبرى للقياس الأول تولد افتضاء يمكن تسجيله
رمزيا على الشكل التالي:

$$(x)[f(x) = g(x)]$$

في حين تكتب المقدمة الكبرى في القياس الثاني على الشكل
التالي:

$$(x) [F(x), G(x)]$$

وهو ما يجعل الاستنتاج أمرا غير ممكن.

إن ما يود بيرس قوله هو أن الملامات في الصياغة المنطقية لا
تعتمد إنتاج نظام المفاهيم فحسب، بل تجعل هذا النظام مرئيا أيضا،
ويذكر باعتباره شكلا راسحا ينمى درجة رسوخ الرابط بين المربع
المبني على قاعدة مثلث، وبين الروابط المبنية على الجوابب الأخرى
في نظرية فيثاغورس. إن الأمر خاص بعلاقة بصرية بين شكل الفكر
والشكل البياني. ولكن علينا أن نكون حذرين في استعمالنا للعلاقة
البصرية بين شكلين». فالعلاقة تجمع قبل كل شيء بين الشكل البياني
وشكل العكس، وهو ما لا يعني أن هذه العلاقة موجودة بين شكل لفكر
وشكل الأشياء.

وإذا دققنا في ما يقوله بيرس، لاحظنا أنه يتحدث فعلا عن
السوع الأول من العلاقات، ولكن بمعنى أن الأمر يتعلق بنشاط

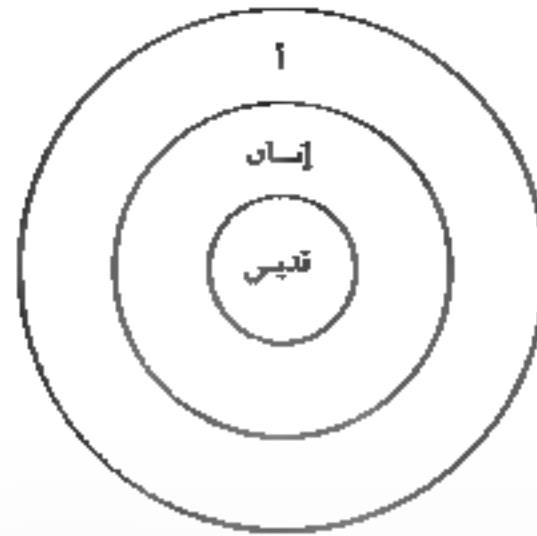
قصوي، لا بحدود تشابه فيريقي، حيثها ستترك لماذا يفضل بيرس، عندما يقدم مثالا عن الأبقونة، اللجوء إلى الرسوم البيانية والاستعارات (وليس إلى الصور الفوتوغرافية): فالرسوم البيانية، شأنها شأن الاستعارات (وهذه الأخيرة هي كذلك في حدود أنها تعرض تشابها) تؤسس لقضية أ / ب = م / د.

إن القضية بهذا المعنى هي كذلك لأنها تؤسس تناظرا. ولكن عينا أن نكون حذرين في استعمالنا لبعض الكلمات. «إنها تقيم تناظرا» فقط، وهذا لا يعني أنها سابقة على هذا التناظر. ولنفكر في سطح اشتغال حاسوب يطلق عليه «تناظري». فبالإمكان التأكيد أن كثافة كهربائية تتطابق مع قيمة 10. واستنادا إلى قاعدة قضية، فإن كثافة 2 كهربائية بإمكانها التعبير عن قيمة 20. أما إذا غيرنا من القاعدة، فإن الكثافة 2 يمكنها أن تعبر عن القيمة 100. في هذه الحالة، فإن $1/2 = 10/20$ (أو $1/2 = 10/100$)، لا لأن «1» يشبه «10» بل لأن هناك عرفا يجمع بينهما. انطلاقا من هذه اللحظة، فإن التطابقات ستولد أوتوماتيكيا من الفصاها الجبرية أو الهندسية. وهو أمر، كما يبدو، لا يتعلق بتشابه، بل يتعلق بقواعد رياضية.

ولقرأ الآن نصا أساسيا عند بيرس (بيرس نفسه يعتبره من أهم ما كتب وله الحق في ذلك). والأمر يتعلق بـ «البيانات الوجودية» (347.4 - 573) الذي يناقش فيه البيانات المنطقية التي يقترحها Euler في القرن الثامن عشر، وهي الرسوم البيانية التي تبناها Venn حوالي 1880، فداخل هذه الرسوم البيانية «توضح القياسات من خلال الدوائر».

وردا بسطحا هذه الغاية التمثيلية، فسنرى أن قياسا ما مثل: «كل الكائنات معرضة للهوى»، القديسون كائنات بشرية، وعليه فإن

القديسين معرضون للهوى»، يعبر عنها من خلال الدوائر التالية:



إن هذه الحطاطة تشير إلى أن القديسين يتمون جميعهم إلى قسم الكائنات البشرية، وأن هذه الكائنات تنتمي إلى الكائنات المعرضة للهوى. وعلى العكس من ذلك، فإن قياسا مثل «لا وجود لإنسان كامل، لا وجود لقديس كامل»، يمكن تمثيلها بطريقة تؤدي بشكل جلي إلى القول بعدم انتماء القديسين إلى الكائنات الكاملة



يقول بيرس بأن جمال هذه البيانات أت من «وضعها» الأقوي الأصل» (368.4). إنها جملة قد تدفع بنا إلى التفكير في التشكلات القضائية باعتبارها تحاكي وضعها قضائيا واعيا. وإذا كان الأمر كذلك،

فإن «أيقونية» التي يتحدث عنها بيرس هي أيقونية ساذجة، ذلك أنه إذا كانت الرسوم البيانية تكشف حقا، بشكل بصري، عن علاقات جوابية وبرابية، فإن هذا لا يعني أبدا أن هذا الطابع الفضائي سيكون أيقونة | حصائص فضائية أخرى.

فإن تكون كائنا معرضا للهوى أو لا تكون، فإن هذا لا يمكن أن يكون قضية فضائية، وبلغة المنطق الكلاسيكي، فإن المشكلة مرتبطة بامتلاك حاصية ما أو عدم امتلاكها. فلماذا يقوم المنطق الحديث بالتعبير عن هذا الامتلاك أو عدمه، من خلال حدود الانتماء أو عدم الانتماء إلى قسم ما؟ إن ذلك يتم من خلال فعل حرفي لا أقل ولا أكثر. وكل ذلك من أجل تجنب الفكرة الواقعية الساذجة الموجودة في أساس التصور الخاص بتلازم العادة والذات، فهل بشكل الانتماء إلى قسم ما قضية فضائية؟ بالتأكيد لا، هذا إذا امتشينا أنني يمكن أن أكون محددا باعتباري أنتمي إلى قسم كل أولئك الذين يوجدون في مكان ما. أما إذا كنت أنتمي إلى كل الذين يعرفون الهوى، فإن هذا القسم بشكل تجريدي وليس فضاء. فلماذا ينحول القسم، داخل التمثيل الدائري إلى فضاء؟ إن ذلك يتم من طريق عرف خالص.

فإن يكون المرء مدمجا في هذه الدائرة أو تلك، فإن هذا الأمر لا يشكل واقعة أيقونية. إن الأمر يتعلق برابط حرفي، وفي أقصى الحالات فإنه يتعلق برابط أيقوني يخص تمثيلا أيقونيا آخر يتم من خلال الدوائر (وهو ما يعني أن العلامة شبيهة بكل العلامات التي لها نفس الشكل ونفس المادة التعبيرية: علم أحمر، أصفر، وأسود شبيه بكل الأعلام الحمراء والصفراء والسوداء الأخرى).

يمكن القول إذن، استنادا إلى بيرس، إن الصورة الفنية للرسم الأساسي هي أيقونية في علاقتها بالرسم البياني. إلا أن هذا يعني القول

بأن الرسم البياني، بمجرد ما يمثل أمامي، فإنني أدركه وأجعله يتطابق مع صورة ذهنية، أو على الأقل مع صورة تولدها الشبكة العنكبونية باعتبارها إسقاطا أيقونيا للموضوع. إلا أن ما يتم مناقشته هنا هو معرفة ما إذا كانت علامة ما، رسم بياني مثلا، أيقونية في علاقتها بطبيعة الرابط الذي تكشف عنه: والأمر حقا كذلك، فالرابط التماسي يوضح بين علاقيتين (أ/ب = ب/ص)، وأن العرف وحده هو الذي يطابق بين الانتماء المنطقي والانتماء الفضائي. إنه تطابق تعودنا عليه لدرجة أنه يخلط بين الأمرين، وهما في الواقع لا رابط أيقوني بينهما.

إن الحديث عن الأيقونية يتخذ في هذه الحالة وجهة أخرى. فسيصبح قضية صيغ عرفية يتأسس من خلالها البعد الأيقوني. ولقد أكد بيرس (368.4) أن الرسوم البيانية التي قدمها لنا Euler ليست أيقونية لأنها تمثل الواقع، بل لأنها تمثل مطلقا يحكمه نفس القانون الذي يحكم الرسوم البيانية. لقد أقبم في البداية نوع من التوازي العرفي، بحيث أصبحت بموجه العلاقة التضمينية داخل فضاء بعينه هي من نفس طبيعة علاقة الأثر، ذلك المنولد عن علاقة التضمين داخل فضاء لا يحدد انتماء إلى قسم وهكذا دواليك. إننا أمام تعريف كامل للأيقونية باعتبارها تشابها (لا تحكمه قوانين تشابه من التصوير، بل تحكمه قوانين التماس الرياضي) بين شكل التعبير وشكل المضمون. وبذلك تم إقصاء أي رابط تشابه مع الواقع.

وطبيعة الحال، من حقنا التساؤل لماذا يبدو طرح هذا التوازي التماسي بين التضايف الفضائي والتضايف الزماني ثواليا وظيفيا. بالإمكان الإشارة إلى أن فكرة التضايف المنطقي تظهر، في المقام الأول، على شكل أصناف من طبيعة الترتيب الزمني (أولا كل الناس قانون، بعدها سقراط إنسان الخ)، وأن عاداتنا البيانية تتخذ شكلا

نحيث إن المقطع الزمني للمخاطب اللفظي يعبر عنه، على وجه
الصفحة، من خلال مقطع فصائي. ومن هنا جاءت فكرة أن هاتين
العنيتين (فصائية وزمانية) تشكلان روجاً، بالمفهوم الكانطي، يحدد
قدرتنا الإدراكية وبالتالي قدرتنا العقلية.

ولكن الأمر هنا يجعل الخطاب حول العلامات يحيل على
البيئات الإدراكية ذاتها، إن لم نقل البنيات العصبية. ولم يبق أمامنا
سوى القول بهذا الحنوح الذي يتميز به الإنسان في تمثيل المقاطع
الزمنية على شكل روابط فضائية والعكس صحيح. فالأمر يتعلق بجوهر
يتحكم في عنكة التجريد التي تدفعنا إلى صياغة العلاقات المنطقية من
خلال حدود ترابط فصائي (انتماء إلى أقسام) أو مقاطع رسمية حيث
للاحق متعلق دائماً بالسابق.

III - أما ما يعود إلى بيرس، فإن القضية مرتبطة بالعلاقة بين
الرسم البياني (وبين الاستعارات) وبين الأيقونات الذهنية التي تبدو
قريبة من الصور الجوهرية. وفي هذه الحالة، فإن بيرس يقترح تعريفاً
للأيقونية، يصاغ الثاني من خلال حدود خاصة بالنظرية الحديثة. وهذا
ما يفسر تأكيدات المتكررة، ذات الصبغة الواقعية السكوونية (نسبة إلى
دان سكوت) التي تقول بأن الأيقونة الذهنية لها كل خصائص المظاهر
لأنطباعية، كما ورد ذلك في المأسفة السكولائية. إن هذه المظاهر
مرتبطة، بالفعل، بالشئ من خلال شكله. إن الأمر يتعلق بالتصور
الخاص بالمعرفة باعتبارها تطابقاً بين العقل والواقع. وبهذا التصور
نجد أنفسنا من جديد أمام نظرية للأيقونية تدفعنا إلى تبني الحد الثاني
من لبديل قانون الحرف وقانون الطبيعة. فالعلامة ليست شيئاً آخر
سوى الأثر الغيريقي لشكل الشئ. ولكن لا أحد عبر عن موقعه
المعاصر لأية نزعة حديثة بحلة كما فعل بيرس.

إن بيرس يحيل على النزعة الحدسية وهو يدرس العلامات النوعية (qualisigns) انظر (4.7.2). إلا أن العلامات النوعية هي نوعيات تخلقها العلامة لكي تتجسد: إنها نوعيات ليست كافية من أجل تأسيس العلامة في بنيتها العلائقية. ولا وجود لمعرفة عند بيرس إلا عندما تعادر الرؤية البسيطة وضعها هذا لكي تصح علامة.

إن الرابط السيميائي يتأسس من خلال الاستعانة بعناصر عرفية. ومن بين هذه العناصر يجب إبراز الآتي: إن علامة ما لا يمكن للسطر إليها في ذاتها، في معزل عن العلامات الأخرى. فهي تولد في اللحظة التي يتم تأويلها بواسطة علامات أخرى، باعتبارها موزولا لعلامات أخرى. إن المعرفة عند بيرس هي تأسيس علاقات بين الأشياء، وتصنيفها بواسطة العلامات. وهذا ما قلناه من الإدراك الذي يجب النظر إليه باعتباره سيروية سيميائية (انظر الفقرة السابقة)، بحيث إن إساد الحاصية «أحمر» لموضوع ما يقتضي عقد مقارنة داخل أقسام محددة بشكل سابق داخل ثقافة ما.

وليس صدفة أن يلجأ بيرس، من أجل تحديد معنى أيقونة «صينية»، إلى الصكرة الساذجة الفائلة بأنها تأليف بين أيقونة امرأة وأيقونة «صينة». ويبدو، من هذا المنظور، أن سيروية التحليل يمكن أن تشاغل إلى ما لانهاية. في حين أن صورة الصينية في النظرية الحدسية للأيقونية ستكون ببساطة انعكاسا لموضوع يقابلها داخل وحدة إيمائية سابقة على إدراكنا. ويمكن القول في الختام إن الموضوع الإدراكي هو بناء (سيميائي)، ولا وجود لأيقونة لا تكون نتيجة سيروية في التكون.

وهذا ما أكدناه في الفقرة 2 . 8 عندما قمنا بتحليل مختلف أنواع السيرويات السيميائية التي يتولد عنها كل ما يمكن أن يصف

صغر السعة العرفية «أيقونة». فحتى عندما نحاول أن نعرف فحوى ما نطلق عليه عادة علامة أيقونية، باعتباره علامة إسقاطية أو مُخصصة، فإن هذه العلامة لا تشكل شيئاً شبيهاً بالواقع المعين، إنما نتصرف وكأننا نهت إدراكنا هدية من خلال الإحالة على بعض سمات الشيء. إن الأمر يتعلق بعلامة أنتجت لكي تولد ذلك الأثر الذي نسميه «تشابهاً». إن التشابه السببية بين العلامة والشيء ليست أثراً من آثار هذا الشيء، بل تكمن في العرف الذي يوجد في أساس العلامة (ويوجد بنفس القدر في أساس الموضوع ذاته باعتباره وحدة ثقافية).

لقد سمح لنا تصور بيرس للأيقونة، بالقول إن التعريف الذي نخصصها به يجب أن ينطبق أيضاً على تلك الصور التي ستظهر باعتبارها أيقونات نامة، والمقصود بها الصور الذهنية. فعندما نتخلص من الرابط لسببي الطاهر بين الموضوع والعلامة في الصور الإدراكية، فسيكون من البديهي أن ندمر الاعتقاد الساذج (الذي ناقشناه في الفقرة السابقة) في طابع تأملي للعلاقة بين الملفوظ والواقع. ولا نعدم الأسباب هنا أيضاً من أجل إثارة الرابط العرفي للتوازي (الذي كشف عن وجوده لتحليل الحساس بالأيقونية المزعومة للأشكال المنطقية والرسوم البيانية). وباختصار، يمكن القول إن الملفوظات لا تعكس شكل الوقائع: نحن من يفكر، عبر التعلم، في الوقائع من خلال أشكال أودعناها فيها الملفوظات.

IV - ومع ذلك فإن كل ما عرضنا له هنا سيصطدم باعتراضات جديدة لحطة التساؤل عن فحوى السيرورة التي نستطيع من خلالها التعرف على تشاكليين صوتيين باعتبارهما نسختين ملموستين لنفس النموذج (كيف يمكن لنسختين أن تكونا تحقيقين لنفس الكلمة باعتبارها نوعاً). ذلك أن فكرة التعرف على الموضوع من خلال الأيقونة ستظل

قائمة في قلب التمثيل الذي نقوم به من أجل إدراك شيء ما: هي اللحظة التي نقبل فيها بأن الرسامين البيانين اللذين قدمهما لنا Euler بشكلان صنيعتين عرفتيتين، يكون علينا أن نعي كيف أننا نتعرف على الدوائر في كينونتها كدوائر! إن قضية الأيقونية لا تقضي نهائياً على مشكلة التعرف على الأشكال، إنها فقط تنقلها إلى وجهة أخرى. إنها تصمها في موقع أعمق بحيث سيشكل التعليل والعرف زوجاً من متبني متكاملتين، تماماً كما تتكامل الموجات الصوتية والجريء (particule) في الميرياء الإشعاعية. وفي هذه الحالة نكون قد وصلنا، على الأقل، إلى النتيجة التالية: سنكون قادرين على إقصاء كل شرح قائم على التعليل الأيقوني، حين يرد هذا التعليل أن يطرح نفسه معياراً لتعريف العلامة. إن مقولاتنا الإضافية قد تكون صالحة في مستوى متقدم من التحليل (في السيكلوجيا، وربما أيضاً في فيزيولوجيا الإدراك). أما عندما يتعلق الأمر بالعلامات، فبالإمكان الحديث من خلال حدود عرفية، فالمعرف هو الذي يجعل من هذه العلامات أدوات ثقافية. (للتعرف على محاولة تقديم حل لمشكلة الأيقونية كما تصورتها نظرية الإنتاج السيميائي انظر الفقرة 3.4).

5.3.5. الفجلي الرابع للمرجع: الموضوع كتنقيب للعلامة

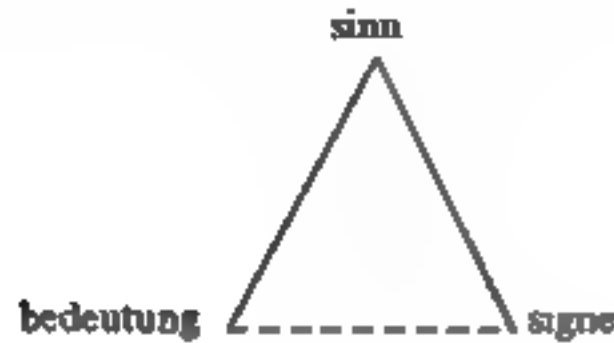
لقد أراحت النصفية الكانطية «الشيء في ذاته» العلامة من الثقل الذي كانت تمثله قضية الرابط السبي بين الأشياء والمفاهيم (وبالتبعية بين العلامات والأشياء). ومع ذلك فقد ظل النقاش مفتوحاً، كما سبق أن قلنا، حول إمكانية وجود رابط ضروري بين النظام اللعوي والنظام المنطقي.

ولقد انتهت النقاشات التي خاضها منطقة القربين التاسع عشر

والعشر إلى صياغة قضية جديدة بشكل دقيق: لقد أدخل هذا المنطق من جديد الشيء - موضوع مرجعية كل نشاط سيميائي - باعتباره معياراً للعلامة داتها. وبعبارة أخرى، لقد كان المنطق الحديث (خاصة ذلك لدى كد مرتبطاً بقضايا العلوم التجريبية)، في سعيه إلى دراسة قيمة صحة لقضايا وبالتالي إقامة إثبات لسانى مطابق أو غير مطابق لحالة لأشياء هاته، مصطفاً لنباول مفهوم الشيء أو الموضوع الملموس، الواقعي خاصة. فأن يؤدي هذا الأمر إلى بناءات مفهومية أكثر دقة (كما هو الحال مع مفهوم القسم) فتلك مسألة لا تعنينا في شيء. لقد كان هناك اتفاق على أن التقليد الدلالي المنطقي ظل بعيداً عن العقبات التي تكاثرت في النقاشات التي فتحتها التجريبيون الإنجليز ومن بعدهم العدلية الترنسندنتالية وهي تستعمل عبارة ما من أجل الإحالة على موضوع أو واقعة ما. فإذا استعملت العبارة التالية: / هذه التفاحة حمراء /، فلأنني لا أحتاج إلى المقولة الفلسفية للموضوع، ولكنني أناقش معرفة ما إذا كان إثباتي هذا مطابق أو لا مطابق حالة واقعية ما. وبعبارة أخرى فإن / هذه التفاحة حمراء / صحيحة في حالة واحدة فقط هي أن تكون التفاحة حمراء حقاً.

وبهذا يدرج المنطق المعاصر ضمن منظور هو ذاته المنظور الذي كان يؤطر المنطق القديم: إنه يشير إلى أن الحدود الخاصة ليست في ذاتها لا صحيحة ولا خاطئة. إنها تكتفي بالإشارة إلى شيء ما أو تعينه إذا جاز التعبير. فالملفوظ وحده إثباتي، وبإمكانه، تبعاً لذلك، أن يكون قابلاً للتقويم من خلال الحدين: الصحيح والخاطئ. ولكن أن «يعين» حد ما (أو علامة) أو «يشير» أمر يعني التساؤل هل محيل على الأقل على موضوع موجود فعلاً نستطيع أن نخصصه لمراقبة تجريبية. وهكذا اقترح فريجه سنة 1892 تمييزاً يستطع من

خلاله التعرف على مصدر المثلثات الدلالية التي ترى الور بعد ذلك
بفيل (ما قلناه في الفقرة 1 . 2). فالعلامة عند فريجه تتكون من
مرجعية (*bedeutung*) الذي ترجم خطأ بمثلول و (*sinn*) ما نرحم
عادة بمعنى) يوجد في قمة المثلث:



إن *bedeutung* التي نترجمها ب مرجعية، ينظر إليها أحيان
باعتبارها موضوعا مخصوصا، وينظر إليها أحيانا أخرى باعتبارها
قسما من الأشياء. وفي الواقع، فإن المرجعية عند فريجه هي «قيمة
نصديقية» (1). أما (*sinn*) المعنى) فهو المادة التي يحضر من خلالها
الموضوع في الذهن. إن المثال الكلاسيكي على ذلك هو الزوج:
/ نجمة المساء / و/ نجمة الصباح /. ففي حين كان علم الفلك
الكلاسيكي يرى فيهما جسمين سماويين مختلفين، فإن هذين التعبيرين
يحيلان كلاهما على فينوس. إن الكوكب فينوس مرجعية للعلامتين
معاً، ولكن هناك معيان (*sinn*)، أي طريقتان للإمساك بالموضوع
(كوين 1953).

ولقد قام المناطقة المعاصرون، استناد إلى هذا التصور، بتميز
جديد (وهو تمييز يعمق مقترحا سابقا لجون ستوارت مل): إن الأمر
ينعلق بفصل قسم كل الأشياء التي يمكن أن تحمل عليها العلامة-
وسننظر إلى التقرير باعتبارها ماصدقية العلامة عن كل معانيها

لممكنة، أي فصلها عن معنويتها، أو إحياءاتها الممكنة، أي
لخصائص التي يمكن أن تستند إلى تقرير العلامة (وبطبيعة الحال، فإن
لفظ يحياها ليس له المدلول الذي يعطيه إياه اللسانيون، وهو ما
علفنا عليه في الفقرة 3 . 5).

إن هذا التعبير يسمح بالإقالات من الشرط الذي يمثلته حضور
مرجع الفعلي. حينها سيكون ملزمين بالاعتراف بأن العلامات قد لا
يكون لها أية ماصدقية (مرجعية *bedeutung*) مع الاحتفاظ بالمعنى
والمفهومية كما هو الحال مع كلمة / القارن/. فكلنا قادرون على تعداد
خصائص القارن مع أن هذا الحيوان لا وجود له⁽⁷⁾. ويمكن القول،
في هذه الحالة، إن / القارن/ هو علامة بلا ماصدقية (گودمان
1952)، أو إنه يعين موضوعها موجودا في عالم ممكن.

إن هذا الحل قد يريح دراسة اللغات الطبيعية من ثقل المرجع.
وبالفعل يكفي أن نؤكد بأن هذه اللغات تنشر في ميدان المفهومية،
ويتم قصاء حالات المقامات الإشارية الواضحة (مثلا في عبارة / هذا
لكذب أسود/). إن الكيميائي الذي يستعمل علامة H2O أثناء تجربة
يجب أن يكون متأكدا من أن الاستعمال الإشاري للعلامة يتطابق مع
لوجود الفعلي للماء في الإناء. أما الذي يكتب دراسة حول هذا
لموضوع، فيمكنه الحديث عن H2O والإعلان عن كل الخصائص
لمفهومية، باقلا إيها إلى القارئ دون الاكتراث بالماصدقية العملية
لهذا اللفظ. وبدون هذا، فإن اللغة لا يمكن استعمالها لا من أجل
كذب ولا من أجل صياغة إثباتات خيالية.

ومع ذلك، علينا أن نسجل أن مقولة المفهومية تستعمل في
مستوى من أجل استثمار أفصل للحسابات الماصدقية. وهي طريقه
أكدت التجارب خصوصيتها، خاصة عندما طبقت على لغات مفرقة في

الشكلية والأحادية المعنوية. وأيضا عندما استعملت لمراقبة المصاحح العلمية من الناحية اللغوية الشارحة. ومع ذلك، فإن هذه الطريقة لا تخلو من مشاكل إذا طبقت في ميدان السميولوجيا بالمعنى الواسع للكلمة. إن هذا الاختلاف الإستمولوجي يقود إلى طلاق بين المنطق والسميائيات. والآن فقط نحاول تجاوز هذا الطلاق من خلال تحديد مقاربات معرفية جديدة للغات الطبيعية (لاكوف 1987).

ومن أجل إعطاء مثال على عدم التوافق المنهجي، يجب الاستعانة بمذهب جذوره راسخة في التوجه «الواقعي». ونقصد بذلك نظرية رسل في التقرير. فمن أجل الحصول على استنتاجات صحيحة أو خاطئة استنادا إلى جملة من قبيل / لقد كان لويس السادس عشر ملكا لفرنسا/، على المنطقي أن يتأكد من أن هذا الملفوظ في ذاته صحيح أو غير صحيح. إن العلاقة التضمينية: ب ج، ستكون صحيحة إذا كانت مثلا ب و ح صحيحتين كلاهما. أما إذا كانت «ب» صحيحة و«ح» غير صحيحة، فإن العلاقة التضمينية ستكون خاطئة. وبناء عليه سيكون من الأهمية بمكان معرفة ما إذا كان ملفوظ ما خاطئا أو صحيحا، ولكن من أجل معرفة ذلك يجب التأكد من أن مكوناته تعين أو لا تعين شيئا. وبعبارة أخرى هل لهذه المكونات مرجعية أي *bedeutung* أم لا؟ فإذا كنا أمام اسم مثل / شيمير/ أو أمام وصف مثل / ملك فرنسا الحالي/ الذي لا يتطابق مع أي موضوع له وجود فعلي، حينها يكون بإمكاننا التأكيد أن الملفوظ / ملك فرنسا الحالي/ خاطئ⁽⁸⁾ إلا أن رسل، وهو صاحب هذا المثال الشهير، لا يهتم مع ذلك أن يتمتع الملفوظ / ملك فرنسا الحالي/ بمدلول (*sinn*)، رغم اعتماده لأي مرجع. ذلك أن هذا المدلول الذي نتعرف من خلاله دون تردد على المعنى الذي تدل عليه العبارة / ملك فرنسا الحالي/، ليس

ضروريا للملفوظ، فهو لا يشكل سوى «سحنة ثانوية» في جملة تقريرية
 يمكن صياغتها. / ليس صحيحا أن هناك حاليا شخصا يمكن أن يكون
 ملكا لفرنسا، وهو أصلح/. ولقد أبان رسل في كتابه «مبادئ
 لرباصيات» (1904) عدم اهتمامه بالمدلول. «إن قضية امتلاك مدلول
 ما تدور لي مفولة متعددة، تتكون من عناصر نفسية ومنطقية في الآن
 نفسه. فكل الكلمات لها مدلول، لأن هذه الكلمات تعبر عن أشياء
 توجد خارجها. ومع ذلك، وبإستثناء الحالة الخاصة بالقضايا اللغوية،
 فإن لقضية لا تحتوي على كلمات، ولكن على كيانات تحيل عليها
 الكلمات.. بحيث إن المدلول- بالمعنى الذي نقول فيه إن للكلمات
 معنى- لا علاقة له بالمنطق». وشرح رسل ذلك من خلال المثال
 الآتي. / التقيت برجل في الشارع/، فالعبارة /رجل/ لا تحل هنا
 محل مفهوم، بل تعين. «إنسانا واقعا يقف على رجلين». والحلاصة
 عنه هي أن «المفاهيم التي تحيل على كيان ما هي وحدها التي تتوفر
 على مدلول». وهذا ما يفسر لماذا لا يعطي رسل في كتابه on
 (1905) denoting الذي أخذ منه مثال «ملك فرنسا»، أية أهمية
 للمدلول. وكما يلاحظ ذلك بونماشيني (1970)، فإن «رسل يطمح إلى
 تأكيد أن المدلول، في اختلافه عن الرمز من جهة والمنصر المعين من
 جهة ثانية، لا وجود له». ويمكن أن ندقق هذا الحكم من خلال
 اعتراف بأن رسل يشير إلى المدلول عندما يعترف بإمكان وجود قصايا
 مركبة تعين - من الناحية اللغوية الشارحة- مدلولات لا يتطابق معها
 أي حرفي متحدد. ولكن أن يعترف رسل بأهمية المدلول أو بعدم
 أهميته، فمن الديهي أن مقولة المدلول ذاتها ليست ملائمة في الحقل
 المصفي.

ويمكن أن نتساءل كيف وصل الأمر إلى هذا الحد. ذلك أن

على المسطقي أن يفهم، من أجل إنجاز حسابه القضوي، الإشارات التي تحتوي عليها التعابير النووية التي تستخدم من أجل إنجاز هذا الحساب. فمن أجل تأكيد حقيقة أو خطأ، عليه أن يعرف على ماذا تدل هذه التعابير. بل إن الأمر يتجاوز ذلك، فتحديد الخطأ، معه تحديد أن هذه التعابير لا علاقه لها بمواقف معينة، وللتعبير عن عدم التطابق هذا يجب الإمساك بدلالات هذه التعابير.

وسنلاحظ بطبيعة الحال، أننا نقوم في الحساب القضوي الذي نعالجه الآن، بإقامة علاقة بين التعابير التي تتطابق - أو لا تتطابق - مع وقائع ما اعتماداً على عمليات منطقية بعينها (اتصال، نفي، تصميم). إلا أن الحساب في ذاته لا موقع له أبداً في تحديد خطأ أو صحة التعابير النووية. فهذه التعابير هي كما هي من خلال وضعها هذا، لأن الأمر يتعلق بحساب شكلي خالص يتحكم في قيم الحقيقة وليس في قيم الواقع. إن قولها وقول وضعها معناه قبولها باعتبارها وقائع محسومة.

ولنأخذ مثالا مفارقاً، في الظاهر على الأقل، لكي نتأكد من مكنون المشكل. وسنستمد هذا المثال مما يسميه المنطق الشرطي اللاواقعي. وليكن التصميم التالي / لو كان لجذتي عجلات، لكانت سيارة/. إن التصميم من زاوية الحساب القضوي حساب صحيح:

أ: لجذتي عجلات وهي بذلك سيارة

ب: ليس لجذتي عجلات ولكنها سيارة

د: ليس لجذتي عجلات وليست سيارة.

إنها غير صحيحة في الحالة التي لن تكون فيها جذتي سيارة حتى ولو كانت لها عجلات.

فمن الواضح، أن صحة أو خطأ الملفوظ المركب مرشطان

بالحساب المنطقي، أما الصحة والخطأ فيعودان إلى المعطى المحسوس. إن التجربة الحدسية هي التي ستقول لي ما إذا كانت حدثي لها أو ليس لها عجالات، وما إذا كان لفرنسا ملك أم لا. إن هذه لحدوس الملموسة تتعلق بالإدراك الذي يملكه عن المرجع. وفي هذه لحانة، فإن المرجع يصبح هو الكيان الدلالي الوحيد الذي يتمتع بكثافة حقيقية أما المدلول - أي ما يمكنني من فهم ما تدل عليه «جدة تملك عجالات» من الناحية اللسانية - فسيكون شيئاً معطى، يمسك به حدس المتلقي، وهو ما لا يريد الحساب القضوي شرحه.

بل هناك أكثر من ذلك، فالحساب سيقبل كمعطى مدلول التعبير النروي كما سيقبل أيضاً مدلولات الألفاظ (أو الأسماء) المعروفة التي تكونه، مثل / سيارة / أو / جدة /. إن شرطية لا واقعية كتلك التي أشرنا إليها سابقاً قد تدعو إلى الضحك (إنها تنتمي إلى تلك الفئة التي نلجأ إليها باعتبارها أمثلة «مسلية»). إلا أن الحساب القضوي لا يشرح لنا لماذا الأمر على هذه الحال، والحال أن هذا هو موطن المشكل لسميائي لمدلول علامة، سواء كانت بسيطة أو مركبة. ففي «السيارة» وفي «الجدة» شيء لا يشير الضحك إذا نظر إليه معزولاً، ولكنه يشير حالة هزلية عندما ألمح إلى الطابع الياري للجنة. إن الآثار المعنوية المتولدة عن / سيارة / تحنوي على مكون يجعلها لا تناسب مع تلك المتولدة عن / جدة /. وهذا الوضع يعطي الملموظين: / جدتي سيارة / و / جدتي ليست سيارة / مضموماً هزلياً. ففي حين أن الأول سيوصف بأنه خاطئ، فإن الثاني يوصف بأنه صحيح فاحل الحساب القضوي.

ولا يعني كل ما قلناه أن المنطق لا يمكنه أن يساعدنا على توضيح قضية المدلول. إننا نكفي بالقول إن حساب القضايا ينظر إلى

المدلول باعتباره متظما من الناحية الملموسة. إن منطقاً مفهوماً يحل محل الحقائق الممنوحة إلى لفظ ما في عالم ممكن، قريب مما عرضنا له في الفقرة 3 - 8 فيما يتعلق بالتحليل المفهومي للآثار المعنوية. وفي هذا الإطار يمكننا تفسير لماذا لا يقل، أو يصنف ضمن الهرلي، مع لفظ ما خصائص يقول العرف إنه لا يمكن أن يتوفر عليها. وهو المشكل الذي يتناوله كارناب (Carnap 1947) دون أن يجعل التحليل الماصدقي، في هذا السياق، يتحرر كلية من إكراهات المرجع. ومن أجل حل كل هذه المشاكل يجب التمييز بشكل جذري بين المدلول والمرجع، وفصل منطق المفهومية عن منطق قيم الحقيقة. وبهذا الشرط وحده، يمكن لمنطق اللغات الطبيعية أن يدخل في علاقة مع السيميائيات والعكس صحيح. ومن أجل ذلك يجب الابتعاد عن النزعة الحتمية اللسانية (التي تقرر وفقاً هل لهذا الملفوظ مدلول أم لا)، وبناء نظرية للمدلول من قبيل إيجاد تفسير لوجود مدلول ملفوظ وبوعيه.

وكما رأينا ذلك سابقاً، فإن النظر إلى المدلول باعتباره معنى ملموساً، معناه مرجعه مع الحدس الملموس للمرجع. وبعبارة أخرى التعامل معه باعتباره كياناً تابعاً للتعرف الحسي على الرابط القائم بين ملفوظ ما ووقائع. وبطبيعة الحال فإن هذه العملية بعيدة عن اهتمامات فلسفة رسل. إلا أن عدم اكتراثها للمدلول سيقود إلى إلقاء هذا الأخير لصالح التقرير، أي الاستمالة بالمرجع. فلسفة رسل هي ارتكازها على المرجعية، تحكم على نفسها بعدم قدرتها على شرح لماذا تستطيع اللغات الطبيعية مفصلة المدلولات في استقلال عن المرجعيات ومقامات الوقائع والأشياء الموجودة، كما تعجز عن تفسير لماذا نستطيع سرد حرافات، ونكذب ويصدق الآخرون. وبالأكد، فإن

نقول / إن هذا الكلب لا وجود له / في حضور الحيوان يشكل كذبا عيا، ولكن أن تؤكد / في الثريان المقدس يتجلى جسد المسيح ودمه على شكل خير وخمر / ، فإن الأمر يتعلق بإثبات يشكل كذبا في أعين الكثيرين . ولكنه دال ومفهوم، وقد استطاع أن ينتج خطابات لا حصر لها، وأنتج وقائع تاريخية لا حد لها أيضا. ومن الواضح، أن هذا الملعوظ لا يمكن مناقشته، إذا نحن قما بتحليل دلالي لمقولات « الجوهرة » و« العصيلة »، وإذا أردنا دحض ذلك، وجب علينا إبراز عدم تناسب البعد الدلالي لـ / الجوهرة / مع الحقل الدلالي الذي تتم صياغته من لدن لعلوم المعاصرة، لا من خلال إثبات عدم وجود الجوهرة. وبعبارة أخرى، إن موضوع السيميائيات (وموضوع منطق منحرف من لمرجع) هو شرح القدرة التي يبلور من خلالها اللسان أسماء وأوصافا وتضامات وإشارات لا علاقة لها بالوقائع التي نقول عنها إنها واقعية، إنه خطاب، يشكل مع ذلك، نواة ثقافية وجوهر التواصل اليومي.

إن التوسط بين المنطق والسيميائيات قد بدأ في التحقق مع أحد لمنطقة الدين جعلوا من اللغة موضوعا لدراستهم. ونقصد به ستروسن الذي يميز بين المدلول وبين استعمال ملعوظ ما أو جملة. إن الجملة / ملك فرنسا حكيم / كان من الممكن أن تكون ملعوظا صحيحا لو تم التلفظ بها زمن لويس الرابع عشر، وكان من الممكن أن تكون خاطئة لو تم التلفظ بها أيام لويس الخامس عشر. «عمر الجلي» لا يمكن أن تحدث في هذه الحالة، وفي حالات كثيرة أخرى، هي لجملة باعتبارها صحيحة أو خاطئة أو (إذا شئنا) التعبير عن قصة صحيحة أو خاطئة (الترجمة الفرنسية 120; 1976 apud rey، ويستند ستروسن هنا إلى التعبير الذي يرى في الجملة المظهر الدال لحيثية منطقية تعد، بجريديا، قصة).

يقدم لنا ستراوسن، من هذا المنظور، تمييزاً جديداً بين المدلول (وتعامل مع المدلول بالمعنى السابق) وبين فعل المرجعية أو التحديد «ف» تحديد «أو» الإحالة على مرجع... «شيئان لا تقوم بهما العبارة (...)» إنهما أمران يقوم بهما الشخص الذي يستعمل هذه العبارة. إن المعنى (في تصور من التصورات الهامة على الأقل) هو وظيفة الجملة أو التعبير؛ أما التحديد أو المرجعية، «صحة أو خطأ»، فهي وظائف متولدة عن استعمال الجملة أو العبارة (2). وهكذا فإن إعطاء تعبير ما مدلولاً، معناه صياغة القواعد العامة التي تتحكم في استعماله من أجل خلق مرجعية بالنسبة لأشخاص أو موضوعات خاصة. ومعناه أيضاً إقامة قواعد وعادات وأعراف تتحكم في الاستعمال الصحيح لفظه حيث يتم تحديد مرجعية أو خلفها.

إن هذا الموقف شبيه بموقف السيميائيات واللسانيات. فإعطاء لكسيم مدلولاً ما معناه، في نهاية الأمر، هند اللسانيات والسيميائيات، القيام بوصف المظهر المفهومي باعتباره نفساً يتلاءم مع علامات أخرى. وهكذا لا يمكن القول: / إن المكبس (piston) هو الذي يحرك ملك فرنسا/ لأن القواعد الدلالية لمكبس تحتوي على انتقادات خاصة تجعل منه محصوراً في السياقات الميكانيكية. ولا يمكن القول: / هذه القاطرة هي ملك فرنسا/ لأن /الملك/ يمتلك سمة دلالية إنسانية غائبة عن القاطرة⁽⁹⁾.

إلا أن الاستعمال الدلالي، كما تم تحديده، لا يقول لنا لماذا يبدو لنا الجملة التالية «ملك فرنسا الحالي أصلع» خاطئة، رغم وجود انسجام دلالي للمعنى مثل / ملك فرنسا أصلع/ (وهو ملموظ كان من الممكن أن يصدر عن المطران سوغر وزير شارل الأصلع). ويمكن الاكتفاء بتأكيد أن موضوع السيميائيات هو دراسة الشروط العامة

لا استعمال علامة أو مركب من العلامات التي نقوم بتحديد دلالاتها دون الاهتمام بعمل الإحالة الذي يسمح بذلك. فهذه الإحالة لا تجد صحتها إلا من خلال المقارنة الملموسة بين العلامة والشيء. وإذا استشينا كون هذه التحديدات هي تحليلات لا تلبي كل الحاجات (دلت أن علم العلامات سيظل عاجزا عن شرح ما هي الوظيفة المشتركة بين العلامات. التحديد)، فهناك مشكل آخر. وهو أن هذا التناقض له جذور سيماثية: إن الملقوظ يطرح من خلال قولنا: /ملك فرنسا الحالي/، ونحن لا نعرف أي نوع من العلامات يحيل عليه لفظ /الحالي/؟

فإذا عدنا إلى تصنيفات بيرس، فإن هذه العلامة متصنف كمؤشر، أو بعبارة دقيقة، إنها علامة معيارية مؤشورية خبرية. وهذا يعني أن التلطف بـ /الحالي/ يتم كما لو أنك تشير بأصبعك لمحاطبك في اتجاه باريس، إن دراسة الإحالة ستنتج وجهة أخرى وستصبح دراسة لاستعمال المؤشرات.

ويؤكد سترابوسن، في هذا المجال، الاختلاف الموجود بين نوعين من القواعد: تلك التي تستخدم من أجل المنح أو الحرمان (وهي عدنا القواعد الدلالية التي تقود إلى إسناد مدلول وإقامة سُن)، وبين تلك التي تستخدم كمرجع. وعلينا إذن في هذه الحالة التأكيد أن قواعد المرجعية تقتضي من جهة، استعمال علامة لها مدلول خارج أي فعل مرجعي ملموس (مثل / ملك فرنسا/) وتقتضي، من جهة ثانية، نوعا آخر من العلامات - المؤشرات - التي تجمع بين الحدود العامة - لحرر، التصديق، الحجّة - وبين المقامات الخاصة. إذا كان هذا الوضع غير موجود، فإننا يمكن أن نقول إن المؤشر لا دلالة له، وسكون، تما لذلك، كل فعل مرجعي فعلا خاطئا (فإذا قمنا، من

خلال انزياح انفعالي، بالحكم أيضا على العبارة / ملك فرسا / بأنها خاطئة وبلا دلالة، وظلت مع ذلك دالة، فإن هذه قد تشير اهتمام عام النفس، ولكنها لا تدخل ضمن اهتمامات السيميائي).

وهنا سنكون أمام مشكلة أخرى وهي قضية لا يشير إليها سترأوسن. إذا كان المؤشر يستعمل من أجل تحديد المرجعية الملموسة، فهذا معناه أن المؤشر لا يستخدم هنا من أجل شيء آخر، ولكنه هنا لكي يرتبط بشيء آخر. وهو لا يتوفر على إحدى الخصائص الهامة من خصائص العلامة (أو سيكون العلامة الوحيدة التي لا مدلول لها، بل لها مرجع فقط). إن علم الدلالة البيوي، كما سرى ذلك لاحقاً، قد أجاب بشكل ضمني عن هذه القضية، وهو ما سيسمح لنا بتقديم حلول خاصة بها. فإذا سلمنا بأن المضمون الكامن مجزأ في كليته داخل أنساق، وحقول ومحاور تقابلية من خلال ثقافة ما (انظر 3 9)، علينا تبعاً لذلك، أن نسلم بوجود أنساق للموضوعات، ووجود أنساق للفوائد أيضاً. وفي هذه الحالة سنعرف المؤشرات باعتبارها موجهات للتنبؤ يشتغل مدلولها كقاعدة لغوية شارحة (وجه اهتمامك نحو موضع المرجعية، وذلك من أجل معرفة على مد مستطوق الدلالات التي تتوفرها جملة ما)، إنها قاعدة تدرج من جهتها أيضاً داخل نسق من التفاعلات (موجهات سلبية - موجهات إيجابية، انظر 3.4).

إن عدم القدرة على التفكير في كل المدلولات (وليس فقط تلك الخاصة بالمخطاب المشكلن) باعتبارها أساقا لبيئات ثقافية تجعل من الخطاب المنطقي الفلسفي عاجزاً عن التخلص من استنهام المرجع. إن سترأوسن يستبعد كلية هذا المرجع، من أجل دمج داخل العالم المرجعي ذاته. ولقد دفعه هذا الأمر إلى التحلي كلية عن نظرية حاصه

باسمعة الطبيعية: «فلا القواعد الأرسطية ولا تلك التي جاء بها رسل قادرة على مدّنا بمطلق صحيح لتعبير يعود إلى اللغة العادية». وهو أمر صحيح، إلا أنه يضيف: «إن اللغة العادية لا تخضع لمنطق صحيح»، وهو حكم يمكن الشكّيك في صحته.

4.5. استطورة العلامة الأحادية المعنى

4.5.1. لقد عملت الفلسفة كل ما في وسعها، وهي تواجه لاستعمالات المتنوعة للغات الطبيعية وكذا الطابع غير المحدد لمصعبات التي قد تتحقق داخلها هذه اللغات، على تقليص هذه الاستعمالات في عدد صغير من القواعد الوحيدة المعنى (على الأقل في المجالات القابلة للمراقبة).

ولقد بلور السكولائيون، وهم يواجهون القضايا اللاهوتية اندقيقة غير المعروفة، منطقاً مكنهم من التحدث عن الأشياء بشكل أحادي. ومن جهة أخرى كان لهم المصل أيضاً في بلورة نظرية قادرة على شرح الأحادية، وذلك ما كان يتطلبه تأويل المصوص الدينية التي تتميز، بطبيعتها، بالإيحائية والرمزية وهي خاصية تجعلها صعبة تناول.

وبهذه الطريقة ظهرت للوجود من جهة، نظريات للقراءة وتأويل لمصوص المقدسة، وفي القرن السابع ظهرت مع بيل لو هينيرابل نظرية اسمعسي الأربعة للكتاب المقدس (وهي النظرية التي يستعملها فانتني وآخرون لفترة قصيرة بعد ذلك). المعنى الصرفي، المعنى المجازي، المعنى الناطقي والمعنى الأخلاقي. وظهرت للوجود بعد ذلك دراسات عديدة كن همها، لقرون طويلة، إرساء قواعد لقراءة أنواع عديدة من العلامات الطبيعية. وقد سجلوا مثلاً الحالات التي يمكن النظر فيها

إلى كائن ما «كثير» مثلاً- تارة باعتباره رمزاً للمسيح ونارة باعتباره
رمزاً للشيطان وذلك حسب السياقات.

ومن جهة أخرى، ظهرت في مجال المنطق، نظرية كانت تروم
تحليل العلامات من الالتباس. ففي (خلاصة المنطق) Summulae
Logicales لبيير إيسابيا (القرن الثالث عشر) طرح لأول مرة التعبير بين
المدلول والإحالات الممكنة.

ويمكن، إجمالاً، مقارنة هذا التمييز بالزوج العاصدق /
المفهومية. إن مدلول لفظ ما هو الرابط الذي يقيمه هذا اللفظ مع
المفهوم الذي يتطابق معه. أما الإحالات فتشير إلى الطريقة التي
يستعمل بها هذا اللفظ لكي يحيل على الشيء أو حالة من حالات
الأمياء.

ولقد ميز فلاسفة القرون الوسطى بين مجموعة من الإحالات.
فهناك أ- الإحالات البسيطة (مرجعية مخصصة) حيث يحيل اللفظ
على المفهوم المطلق (مثل الإنسان فصيلة)، ب- الإحالات الشخصية
(أو مرجعية فردية) حيث يحيل اللفظ على موضوع (مثل رجل يعدو)،
ج- إحالات مادية حيث يحيل اللفظ على نفسه أو على لفظ آخر
(مثال: للإنسان خمسة أحرف).

2.4.5. ولقد ولدت الوضعية الجديدة كرد فعل على
الاستعمال الغامض والانطباعي للعلامات، لكي تستعمل لغة علمية
حاضمة للمراقبة، وتكتشف في اللغة الفلسفية آثار «اللامعنى»
والنتوءات التي يحلثها الفهم عندما يصطدم بمحدودية اللغة (كما يرى
فيتغنشتاين). وهذا اللامعنى ناتج عن عملية منح معاني متعددة إلى
تعايير متعددة المعاني، أو منح مراجع لتعايير لا تمتلك سوى مدلولات
تستعمل وكأنها تحيل على موضوع واقعي (مثال ذلك الألفاظ

الميتافيزيقية). ولقد حاولت الفلسفة، بدءاً من فيتجنشتاين وكارناب وكل فلاسفة موسوعة العلم الموحد (L'Encyclopedie de le Science Unifiee)، أن تعالج الاستعمالات المتعددة للغة، وسمّرت لنفسها برنامجاً صاعداً بيرس في بداية تعريفاته للتداولية: «على التداولية أن تنحصر في سجل الفلاسفة الذي لا ينتهي، والذي كان من نتائج عيوب أية ملاحظته سليمة للوقائع (...) فقد لاحظنا أنهم يمنحون الكلمة بوحدة معاني متعددة، أو يقومون هنا أو هناك (أو في جميع الأماكن) باستعمال الكلمات بدون دلالة محددة. فما يتفحصنا إذن هو نظرية من أجل توضيح المعنى الحقيقي لكل مفهوم ولكل تصور ولكل قضية، سواء تعلق الأمر بكلمة أو بأي شيء آخر. إن موضوع العلامة شيء ومعناها شيء آخر. إن الموضوع هو الشيء أو الفرصة، التي لم تحدد بعد، وهو ما يجب أن تنطبق عليه العلامة. أما معناها فهو المكرة التي تقوم العلامة بتطبيقها على الموضوع، إما من خلال افتراض، وإما من خلال نظام أو إثبات آخر» (5 . 6).

ولقد كانت نتائج الوضعية الجديدة بالغة الخصوبة في ميدان العلوم الدقيقة، إلا أنها كانت مخيبة للأمال (إن لم تكن خطيرة) في العلوم الإنسانية. ولقد أدى التقسيم الدقيق للأنشطة السيميائية إلى خطابات إثباتية وافتعالية، إلى جمل إثباتية قابلة للمراقبة، أو إلى أشباه جمل إثباتية، إلى خطاب نبليقي وخطاب ينتمي إلى تعبيرية حالية، إلى تفضيل الطرف الأول في جميع هذه التقابلات على حساب الطرف الثاني. وبهذا سيبدو استعمال العلامات الأحادية باعتباره الأداة الوحيدة والشرعية للمواصل، مع أنه استعمال استثنائي في الحياة اليومية، وخاصة تلك الحياة المغلقة للمختبرات. ومن نفس الموقع، تم إرداء الخطاب اليومي، وخطاب السياسة والعواطف والإصاح

والرأي، وهي جميعها أنماط للتواصل لا يمكن إخصاؤها لمعايير دقيقة خاصة بالمراقبة العلمية.

3.4.5. كانت ردود الأفعال، في المقابل، تجاه الوضعية الجديدة أحادية وانعكاسية. فمن جهة، كان هناك رفض للقواعد الدلالية وتبني مسيحية تأويلية حدلية بإمكانها الكشف عن تناقضات التجربة (انظر بالخصوص النقد الذي قدمه ماركوز للوضعية الجديدة في كتابه: الإنسان ذو البعد الواحد). إلا أن هذا الموقف لا يقتضي بأي حال من الأحوال، مشكلة القواعد الدلالية. فهو أيضا يتعامل مع مدلول العلامات كما لو أنه كان معطى حدسيا. ومن جهة أخرى، كان هناك ما يطلق عليه «الفلسفة التحليلية» التي كانت تشتغل بالبعة اليومية. فهي محيط فينمشتاين الثاني، قام مطرو المدرسة الإنجليزية بتلمس دينامية السميور المتواصلة التي تتجلى في كل مظاهر الحياة اليومية، إلا أنهم اکتھوا بوصف لائحة المقامات الملموسة، متوهمين أنهم لا يخضعون لأية قواعد. وهكذا قاموا من جديد بتبني الحدس اللساني كمعيار للحكم (وهو ما استقلناه في 4 ، 3). ولقد كان السجل الذي أسجزوه بالغ القيمة (رايل 1949، روسي لاندي 1961)، إلا أن الخطاب حول العلامات لا يمكن أن يتوقف عند هذا الحد. ومن جهة ثانية، كشف التمييز الذي قدمه شارل موريس بين علم الدلالة وبين التركيب وبين التداولية، عن وجود عالم الاستعمالات والآثار الملموسة للعلامة، وهذا عالم لا يمكن تجاهله. ولم يكن تحليل اللغة واللسانيات النفسية مدون جدوى من أجل دراسة تجليات التداولية. ولكن هل يمكن فعلا فصل التداولية عن الدلالة والتركيب؟

4.4.5. ولقد ذكرنا موريس (1938، 34) قائلا: «ما أن علم

الدلالة بتكامل بالعلاقة بين العلامات والأشياء، وبما أن المؤولين وردود أفعالهم يشكلون موضوعات طبيعية تدرسها العلوم التجريبية، فإن علاقة العلامات بالمؤولين موقعها علم الدلالة. إلا أن مؤول علامة ما هو العادة التي وفقها يقوم الدال عادة بتعيين بعض أنواع الموضوعات وبعض المقامات؛ وبهذا فهو يمثل منهجا من أجل تحديد مجموع الموضوعات التي تقوم بتعيينها هذه العلامة، ولا تعد هذه العلامة جزءا من هذا المجموع. إن المؤول، على هذا الأساس، هو أداة ميتلغوية، تقوم بالتوسط بين الكون الدلالي والكون التداولي. والقواعد التداولية تؤسس «الشروط التي يجب على المؤول الامتثال لها لكي يتحول الدال إلى علامة».

ولقد أكدنا هنا أن قواعد الاستعمال هذه، سواء كانت من طبيعة سباقية أو مقامية، لا يمكنها أن تكون سوى من طبيعة دلالية. فمن الصعب إنكار وجود الشيء ضمن مقام سلوكي؛ فالعناية من كل تعريف للعلامة، ومن كل بلورة للقواعد الدلالية، هو السلوك الذي تنتجه العلامة. فما هو مصير العلامة (استناد إلى هذه القواعد الدلالية) خارج سياق الاستعمال المتوقع والمعترف به؟ وبعبارة أخرى. لماذا لا يصلح علم الدلالة لأي شيء (باعتبار تقاطعه مع التداولية)؟ ألا يمكن في هذه الحالة أن نطبق الدلالة على علم الدلالة الوحيد الأصيل، أي مجموع القواعد الدلالية؟ ولكن هنا سيعني قبول المبدأ القائل إن اللغة (وكل سس) هي بذرة التعدد الدلالي، وإن علم الدلالة هو نظرية علم الاستعمال العام للعلامات. فالدلالة، بحصر المعنى، ليست شيئا آخر سوى سيكولوجيا من مستوى ثان. تلك التي يقوم بها صانعو قوامس الجيب، المتعجلون في إسناد تقرير إلى مدلوله الواضح (وبهذا يستعمل القوامس بترجمة لغة إلى لغة أخرى).

5.5. المؤول والسميوز اللامتناهية

بتجلى عنى استعمال العلامات في السميوز (أو عملية التوليد السيميائي). والسميوز تتطلب أن تكون نظرية المؤولات بالغة التفتح ولتعد إلى بيرس الذي يعود إليه الفضل في هذا المجال.. إن العلامة أو الماثول هي شيء يعوص بالنسبة لشخص ما شيئا ما بأية صفة وبأية طريقة. فهو يخلق عنده علامة موازية أو علامة أكثر تطورا. والعلامة التي يحلفها أطلق عليها مؤولا للعلامة الأولى، وهذه العلامة تحل محل شيء يعد موضوعها. وهذا «الحلول» لا يستوعب مجموع مكونات الموضوع، بل يتم عبر فكرة أطلقت عليها أحيانا «عماد» (fondement) الماثول». (228.2 ترجمة فرنسية ص 121).

إن هذا النسق القائم على أربعة عناصر القابل للتمثيل من خلال بناء رباعي (ماثول، مؤول، عماد، موضوع) يبدو أكثر إرجاجا من المثلث الكلاسيكي. فيرس يعرف في مكان آخر العماد باعتباره فكرة، أو خاصية (أو مجموعة من الخصائص) من خصائص العلامة، أي باعتباره أيقونة ذهنية. ونشكل هذه الأيقونة، بطبيعتها، مؤولا آخر للعلامة. إلا أن الفموض يعود ها إلى غنى التعريف الذي يخص به المؤول، فالحياة الفنية عند بيرس هي دائما تنظيم سيميائي.

هناك في واقع الأمر تعريفان للمؤول: التعريف الأول يرى في المؤول علامة تقوم بترجمة العلامة الأولى (127.4)، أما في تعريف الثاني، فإن المؤول هو الفكرة المتولدة عن سلسلة من العلامات (554.1، 127.4، - 283.5). فلم يكن عميرا على بيرس، وهو يصرح أن لا وجود لفكر دون علامات، أن يستنتج أن العكرة التي نحيل عليها العلامة هي مؤول: «إن مدلول تمثيل ما ليس سوى تمثيل آخر. وبالفعل لا وجود سوى للتمثيلات التي تخلصت من العناصر غير

المميزة. ستكون حينها أمام سيرورة من الالمدحارات اللامتناهية. وفي نهاية الأمر، فإن المؤول ليس شيئا آخر سوى تمثيل آخر، نضفي عليه طابع الحقيقة. وهذه الصفة التمثيلية، فهو يمتلك أيضا مؤولا، وبهذا نكون من جديد أمام سلسلة جديدة من المؤولات» (1. 339).

وفي الواقع، فإن مقولة المؤول ينظر إليها في فكر بيرس باعتبارها عنصرا ثالثا- عنصر التوسط- داخل علاقة ثلاثية تستدعي أولا وثانيا. ولا تشكل هذه العلاقة الثلاثية نموذجا سيميائيا فحسب، بل تشكل واقعة ميتافيزيقية / أنطولوجية للكون الفيزيقي والذهني أيضا. فكلما كنا أمام توسط، كان هناك مؤول، سواء تم هذا التوسط من خلال علامة أخرى، أو من خلال فكرة (بالمعنى الأفلاطوني للكلمة)، أو من خلال صورة ذهنية، أو تعريف، أو من خلال رابط الضرورة الذي يُسج بين استدلال ومقدمة تسمح به (1. 541 - 93.2، 473.5).

ويمبر بيرس في موضع آخر (536.4) بين مؤول مباشر - هو المدلول - وبين مؤول ديناميكي نهائي يشكل «الأثر الذي تنتجه العلامة»، وبين مؤول نهائي هو «الأثر الذي تنتجه العلامة في الذهن إذ ما توفرت الشروط المحققة لذلك الأثر» (رسالة إلى السيدة ويلبي، 14 - 3 - 1909). إن هذا المفهوم الأخير، الذي يبدو غامضا إلى حد ما، سيتضح من خلال المقولة التداولية للمؤول المنطقي النهائي. لقد سبق أن قلنا إن الحياة الذهنية عند بيرس هي سلسلة سيميائية ضخمة، تمتد من المؤولات المنطقية الأولى (التخمينات الأولية التي ندل على الطواهر، لأنها توحي بها)، إلى المؤولات المنطقية النهائية. وتشكل هذه المؤولات الأخيرة عادات، واستعدادات للفعل، أي التأثير على الأشياء، وهو ما نتهى إليه كل سموز.

ويمكن القول إن بيرس يعبر هنا عن شيء قريب مما قدناه في الفقرات السابقة، فقد رأينا كيف أن السميوز تنتهي عند أفعال استباقية حيث تضمحل العلامة، وينبثق الفعل الذي تنتجه. هناك شيء أكبر من هذا عند بيرس: إن النشاط الفكري عند الإنسان هي كدبته يجسج إلى تشكيل عادات للفعل العملي. وتشكل هذه العادات مؤولات منطقية نهائية، لأن السميوز تضمحل داخلها: «فقد يفود المؤول، وفق بعض الشروط، إلى التصرف بطريقة بعينها، كلما رهبنا في الوصول إلى نتيجة بعينها. إن الخاتمة المنطقية، الواقعية والحية، هي هذه العادة، ولا تقوم الصياغة اللفظية سوى بالتعبير عنها. أنا لا ألمي هب إمكانية أن يكون المفهوم أو القضية أو الحجة مؤولات منطقية، بي أشدد فقط على أن هذه العناصر لا يمكن أن تكون مؤولات منطقية نهائية، لأنها تعد في ذاتها علامات، وبالضبط تلك العلامات التي تمتلك مؤولات منطقية. فالعادة وحدها - التي يمكن أن تكون علامة من زاوية ما - لا تشكل علامة بفرض الطريقة التي تشتعل بها باعتبارها مؤولها المنطقي (...). إن العادة (...) هي التعريف الحي، إنها المؤول المنطقي النهائي الأصل. والحاصل أن أكثر الحسابات الخاصة بمفهوم ما، القابل للبحث من خلال كلمات، يكمن في وصف العادة الخاصة التي يقوم هذ المفهوم بإنتاجها» (491.5).

وهذا ما يفسر لماذا أكد بيرس، في مرحلة ما، إمكان وجود مؤولات لا تشتغل كعلامات (332.8، 339). إن مؤول علامة يمكن أن يكون فعلا أو سلوكا. وهذا الموقف هو الذي سيؤدي إلى سلوكية موريس، عدا كونه أدرج التداوليات في كليتها ضمن علم الدلالة من خلال المقولة الموحدة التي هي المؤول. ويبدو أن السميوز، في هرونها اللانهائي من علامة إلى أخرى، ومن توسط إلى

آخر تتوقف في اللحظة التي تنحل فيها داخل عادة ما. لحظتها تبدأ الحياة ويبدأ الفعل. ولكن كيف يؤثر الإنسان على العالم؟ إنه يفعل ذلك بواسطة علامات جديدة. وكيف يمكن أن نصف العادة النهائية إن لم يكن ذلك من خلال علامات تعريفية (491.5)؟ ففي اللحظة التي تبدو فيها السميوز وكأنها اندثرت داخل الفعل، نكون في واقع الأمر أمام السميوز من جديد. إن الإنسان هو في الحقيقة لغة. فبما أن الإنسان لا يستطيع التفكير خارج الكلمات أو خارج رموز توجد خارجه، فإن هذه الكلمات وهذه الرموز سترد عليه قائلا: إنك لن تقول إلا ما سبق أن علمناك إياه، ولا يمكنك أن تنتج دلالة إلا في حدود قدرتك على تعبئة كلمة باعتبارها مؤولا لفكرك. وفي الواقع فإن الإنسان والكلمات يتبادلان التأثير، فكل إغناء للمعرفة الإنسانية هو إغناء للمعرفة الكلامية (313.5). إن الكلمة أو العلامة التي يستعملها الإنسان هي الإنسان ذاته. وأن تكون الحياة تسلسلا من الأفكار، فإن ذلك يثبت أن الإنسان علامة. إنه طريقة أخرى للقول، إن الإنسان والعلامة التي توجد خارجه هما في واقع الأمر شيء واحد، تماما كما أن هناك تطابقا بين homo و main. وهكذا فإن لغتي هي المجموع التام لكيونوتي، ذلك أن الإنسان هو الفكر (314.5).

إن التصور الفلسفي لدى بيرس في كليته هو ما يبرر هذا الاهتزاز النهائي. فبالإمكان، بطبيعة الحال، أن نترجم هذا من خلال حدود معتدلة، ونخرجه من الكون الميتافيزيقي الذي أنتجه، وذلك من أجل التشديد، مرة أخيرة، على مفهوم مازال يتحكم لحد الآن في الأبحاث الخاصة بالعلامة: إن الإنسان هو اللغة التي يتكلمها، ذلك أن الثقافة ليست شيئا آخر سوى نسق أنساق العلامات. فحتى عندما يعتقد

الإنسان أنه يتكلم، فإنه محكوم بالقواعد التي تحكم العلامات المستعملة. فمعرفة هذه القواعد تعني معرفة المجتمع، ولكنها تعني أيضا معرفة التحديدات السيمائية لما كان يسمى قديما البنيات الذهنية، أي التحديدات التي تجعل منا فكرا.

الهوامش:

- (1) الإيبودا: قطعة غنائية صغيرة. ويقصد المؤلف أن الاستعارة أي اكتشاف علاقة المجاورة بين الكلمات والأشياء، واستعمال الكلمات كبدائل عن الأشياء هو الذي أعطى للغة قدرتها السحرية والإقناعية منذ أقدم العصور. وبالطبع فقد كان الشعر في ذلك الطور يرتبط بوظيفة طقسية معينة - (س.غ.).
- (2) ظهرت هذه الثنائية في التراث العربي أيضاً، حين رأى المتصوفة أن الله يتحدث مع البشر بلغتين: الأولى هي «الكتاب التدويني»، أي الكتب السماوية المنزلة بلغات البشر، و«الكتاب التكويني»، أي العالم الذي يتحدث معنا بأبجدية لا نستطيع فك رموزها. فالأشياء في العالم الطبيعي هي أيضاً علامات تحمل رسائل لقوية، وتتصرف تصرف الكلمات في اللغة - (س.غ.).
- (3) في ديوان (أزهار الشر) يكتب بودوير: «الطبيعة معبدٌ يواصل فيه الإنسان فك غابات الرموز» - (س.غ.).
- (4) غالباً ما تلجأ التأويلات الشعبية إلى التناظرات الكتابية أو الصوتية، في جميع الثقافات. ويتوفر المثال الأبرز في تسمية المدن وتعليلها شعبياً، حيث ظل يُعتقد أن اسم «بابل» مثلاً مشتق من «البليلة»، كما وردت في التوراة، حتى اكتشاف الآثار البابلية، حين وجد الأثاريون أن البابليين كانوا يشقون اسمها من (باب أبل) أي (باب الآلهة). وبعد مزيد من الاكتشافات، وجد الباحثون أن بابل كانت تسمى (بابيلا) قبل وجود البابليين أنفسهم. ويمكن قول الشيء نفسه عن أسماء مدن مثل (نابلس) التي يزعم التراث الشامي أنها أطلقت على أفعى اسمها «لس» تزعرت نابها ليها - (س.غ.).
- (5) الأبجدية اليونانية القديمة تطوير للأبجدية الفينيقية. وكانت النقوش القديمة جميعاً تكتب بالطريقة المعلزونية، أي يبدأ الكتاب من اليمين حتى ينتهي السطر، فيواصل كتابة السطر التالي من اليسار، وهكذا. وفي فترة لاحقة، استقرت الكتابات السامية على البدء من اليمين، والكتابات اليونانية، وبعدها اللاتينية، على البدء من اليسار. وهذه قضية، إذا جُرِّدت عن تاريخها، فقد تكون عادية. إذ اعتقد بعضهم أن الشرقيين يشغلون الفص الدماغ الأيسر، والغربيين الفص الأيمن. لكن علم الكتابة يربطها بالنموذج

الخطي المكاني في المساحة الكتابية - (س.غ.).

(6) جرت العادة بأن تترجم كلمة (subject) هنا بـ «الموضوع» بمعنى الفاعل للكلام، فيكون للكلام عند أرسطو موضوع يتصدر الجملة وما يأتي بعده محمول عليه أو تابع له، أي مسند ومُسند إليه. وبشبه هذا التقسيم تقسيم الكلام عند اللغويين العرب إلى مبتدأ وخبر. لكن كلمة (subject) نفسها تدل على الذات، أي الذات الشعورية الواعية بالمعنى الفلسفي. لذلك اقتضى التوجه إلى التميز بين الاستعماليين - (س.غ.).

(7) سبق القول إنَّ المثال العربي على هذا يتوفر في العنقاء أو النسناس أو السعلاة أو أي حيوان أسطوري لا وجود له. (س.غ.).

(8) هناك مثال تقليدي يقدمه المنطقة على إمكانية وجود جمل ذات معنى من الناحية اللغوية، ولكنها كاذبة مرجعياً، مثل: «ملك فرنسا الحالي أصلع». لكننا نعرف أن فرنسا جمهورية، وقد يكون رئيسها طريل الشعر. ويمكن تقديم أمثلة أخرى صحيحة معنوياً من الناحية الداخلية وكاذبة مرجعياً في الخارج، مثل: «في السودان جبال من القشطة»، وهي جملة مقبولة لغوياً، لكن المشكلة فيها أن السودان قد يكون بلداً صحراوياً ليس فيه جبال، وقريباً من خط الاستواء، وربما يعاني من المجاعة. وكذلك إذا قلت: «تزوج جلجامش من مارلين مونرو»، فهي جملة صحيحة لغوياً وتنقل معلومة عن زواج رجل بامرأة، لكنها كاذبة مرجعياً، لأن جلجامش ملك عراقي عاش في الألفية الثالثة ق.م، ومارلين مونرو أمريكية انتحرت في ستينات القرن الماضي. واختلال هذه الجمل مرجعياً هو الذي يظفي عليها طابع التسلية، كما يشير المؤلف - (س.غ.).

(9) وهنا نكون قد عدنا إلى انتظام العبارات والجمل في علاقات من نوعين هما الانتفاء والتأليف، أو التبادل والتتابع، أو الأقي والممودي، أو ما شئت من تسميات، فلا يصح أن نقول: «جاء المرأة»، بل «جاء الرجل»، وكذلك لا يصح أن يقال: «يحرك المكبس ملك فرنسا»، لأن (المكبس) كلمة تستدعي علاقات آلية مثل (يحرك المكبس القاطرة)، وكذلك لا يصح أن يقال: «أكلت طوكيو»، لأن الفعل (أكل) يقتضي مفعولاً به يؤكل، وليس مدينة - (س.غ.).